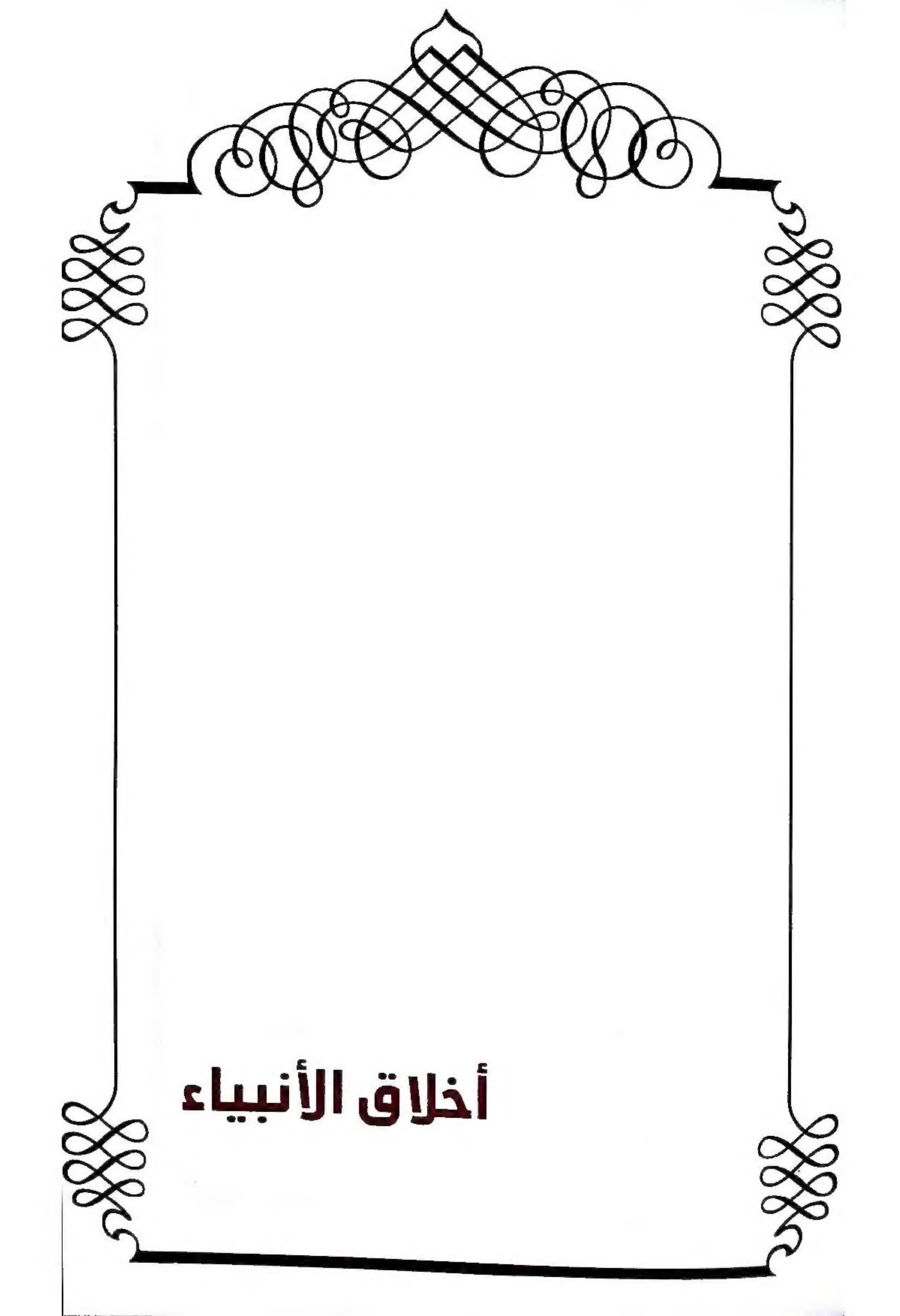
أخلاق الأنبياء

عليهم السلام

د. محمد بن عبد الله الدويش




أخلاق الأنبياء

ⓗ دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الدويش، محمد بن عبدالله بن إبراهيم

أخلاق الأنبياء./ محمد بن عبدالله بن إبراهيم الدويش- ط٢-الرياض ١٤٤١هـ

ص ؛ ٠٠×٠٠ سم

ردمك: ٥-٣٨-٨٢٩٠-٦٠٣-٩٧٨

١-قصص الأنبياء ٢- الأخلاق الإسلامية أ- العنوان

ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٤١/٤٠٩٨

رقم الإيداع: ١٤٤١/٤٠٩٨

ردمك: ٥-٣٨-٨٢٩٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

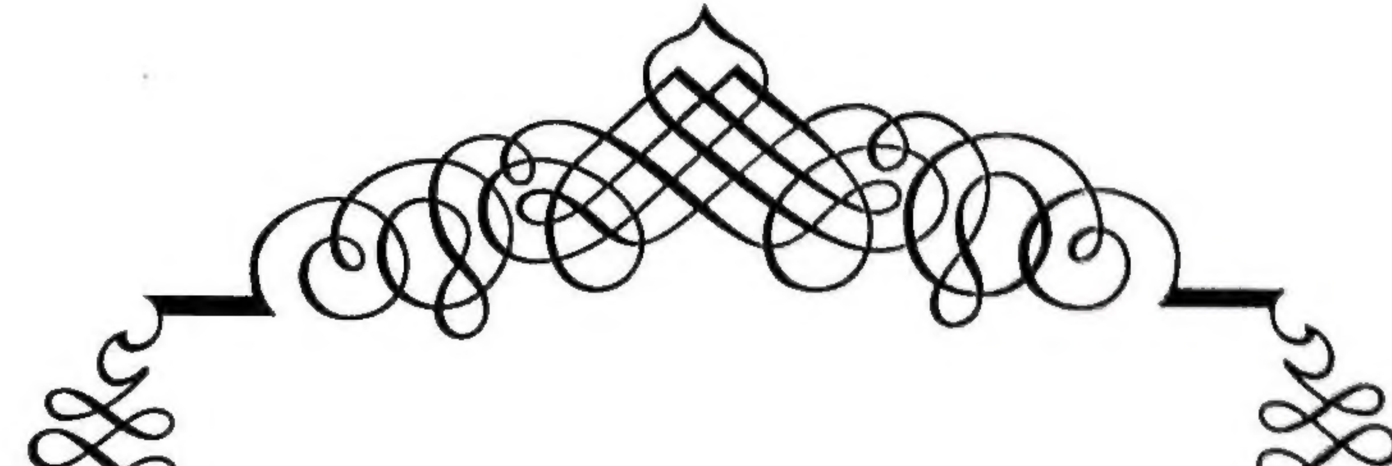
دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هـاتف: ٢٤١٦١٣٩ - ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩

فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣

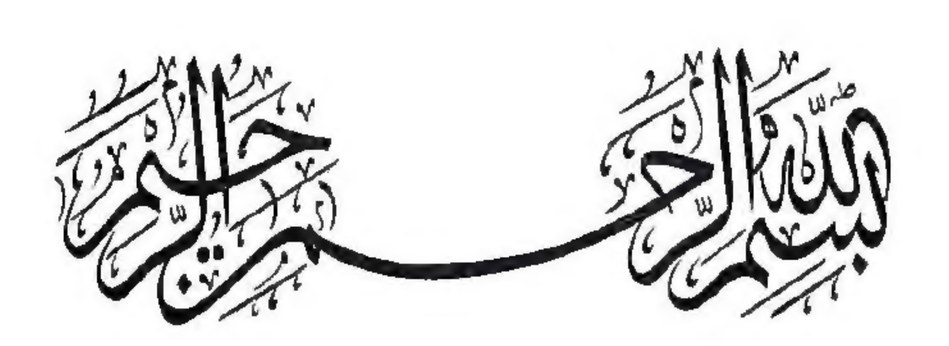
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

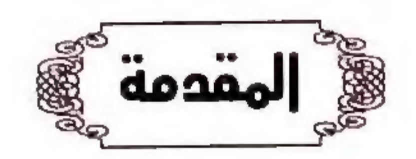


أخلاق الأنبياء

د. محمد بن عبد الله الدويش

دار الحضارة للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده،أما بعد:

فإن التربية الخُلُقِيَّة والسلوكيَّة من أهم مجالات تربية الناشئة، وبالأخص في هذا العصر الذي يعاني فيه العالم بأَسْرِه أزمةَ أخلاق.

فقد أدَّى التقدُّم المادي والتقني إلى ارتفاع القِيَم المادية وعلوّها، وإلى ضمور هائل في ميدان القِيَم الأخلاقيَّة.

وأدَّى تفوُّق العالم الغربي وضعف الأمة إلى هزيمة داخليَّة نفسية روَّجت للقِيَم الغربية، وهوَّنت من شأن الأخلاق والآداب الشرعية.

ومما يؤكِّد على أهمية الاعتناء بالتربية الأخلاقيَّة والسلوكيَّة أن الخلل السلوكي والأخلاقي لم يقتصر على عامَّة الناس، بل امتدَّ إلى عددٍ غير قليل من المتدينين، وطلبة العلم الشرعي، وهؤلاء هم أولى الناس وأحوجهم إلى التحلِّي بمحاسن الأخلاق؛ فأَعْيُن الناس وأبصارهم متَّجهة إليهم، وهم مَحَلّ القدوة والأسوة، يَنظر الناس إلى أفعالهم قبل أقوالهم، وإلى هديهم وسلوكهم قبل مقالهم وبيانهم.

ولأهمية البناء الخُلُقي كان لا غِنَى لنا عن تنوُّع الأساليب، وتعدُّد المداخل، ومن أهمها تلمُّس سِيَر القدوات وأخبارهم وأحوالهم.

وأولى القدوات في تزكية النفس وإصلاحها، وبناء الأخلاق والسلوك

هم من اصطفاهم الله -تبارك وتعالى-، وجعلهم أمناء على وحيه، وحمَّلهم أمانة تبليغ دينه ورسالته للناس.

لقد أمَر الله ﷻ نبيَّه ﷺ بالتأسِّي بالأنبياء، والأمر للنبي ﷺ أمرٌ لأُمَّته، فقال -سبحانه-: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٩٠)، ومن مجالات هدي الأنبياء أخلاقهم الشريفة.

وكان له ﷺ عناية بتمثُّل محاسن الأخلاق؛ فكان يدعو ربه بقوله: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت» (أخرجه مسلم ٧٧١).

وأمر الله -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين بالتأسِّي بنبيه إبراهيم عليه السلام ومن معه، فقال -سبحانه-: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (الممتحنة: ٦).

وجاء الأمر صريحًا بالاقتداء بأخلاق الأنبياء، فقال -سبحانه- لنبيه ﷺ: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

ولئن كانت القدوة ذات أثر بالغ في كثير من مجالات بناء الشخصيَّة؛

فمجال الأخلاق من أهمّ ما يتَّصل بالقدوة، ويتأثر بها؛ فالكثيرون يجيدون الحديث عن الأخلاق والفضائل، والفصاحة والقلم السيال ربما يُسعفان المرء في تدبيج المقالات، والصياغة الآسرة، لكنَّ مصدر التأثير الفاعل الحقيقي هو في النموذج والقدوة.

ومن هنا تأتي أهمية الحديث عن أخلاق الأنبياء والتمعُّن في سِيَرهم، ودراسة هديهم وسَمْتهم؛ فهم خيرُ الناس، اصطفاهم الله لرسالته، وشرَّفهم بتلقِّي وحيه، واختارهم -سبحانه- ليكونوا سفراء بينه ﷻ، وبين خلقه.

حاولتُ في هذه السطور أن ألقي الضوء على ما وقفتُ عليه من أخلاق الأنبياء والمرسلين -صلوات الله وسلامه عليهم-.

سعيتُ لحصر ما وقفتُ عليه مما جاء في القرآن الكريم من وَصْف لأخلاقهم، وتأملتُ في قَصَصهم وأخبارهم، وما جاء في سُنَّة خاتمهم وسيِّدهم محمد ﷺ، ولا أزعم أني استقصيتُ، بل قد فاتني الكثير.

وقرأت ما وقفتُ عليه مما كُتِبَ عن أخلاقهم -صلوات الله وسلامه عليهم-، فاستدركتُ من خلاله بعضَ ما فاتني.

عنونتُ لكلِّ مبحث بنصٍّ من القرآن أو السُّنَّة فيه الدلالة على خُلُق من الأخلاق، وإذا تعدَّد الخُلُق لدى أكثر من نَبِيّ اكتفيتُ بأحدهم، وأشرتُ لسائرهم في أثنائه، كما في خُلِقَ الصبر على المصائب والتكليف

الرباني؛ فقد جاء في قصة أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ووصَفَ الله -تبارك وتعالى- به إسماعيل وإدريس وذا الكفل، وكما في الصبر على الدعوة الذي جاء في السُّنَّة النبويَّة عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وأوردتُ بعض ما رأيت مناسبته من أقوال المفسرين، وخاصةً المتقدمين منهم فيما يحتاج إلى بيان الغريب والمعنى، وأشرت إلى نماذجَ من أخلاق خاتمهم سيد ولد آدم ﷺ، وبعض مواقف السلف ومقولاتهم، ولم أستقصِ أو أتوسَّع في ذلك، إنما اكتفيتُ بما رأيت مناسبته.

وتناولتُ في ثنايا ذلك جوانب من الواقع، وبخاصة واقع الدعاة والمنتسبين للعلم الشرعي، وأشرت إلى بعض ما ألمسه من مظاهر الخلل السلوكي والخُلُقي في البيئة العلميَّة والدعويَّة، وإن كان فيما ذكرتُه في ذلك انتقادٌ؛ فأول من يستحقه كاتب السطور، وهو إذ يسترسل في شيء من ذلك فإنما ينصح نفسه أولاً قبل إخوانه؛ فنحن جسدٌ واحدٌ وكيانٌ واحدٌ نستظل جميعًا بأُخُوَّة الدين.

وتمحورُ الكتاب حول أخلاق الأنبياء كما جاءت في الوحيين؛ ترك أثرَه على منهجية الكتاب؛ فهو ليس كتابًا مفصَّلاً عن الأخلاق، لذا تلافيت الدخول في التفصيلات المتعلِّقة بكل خُلُق وسلوك؛ فهذا مبثوثٌ في كتب الأدب والسلوك قديمها وحديثها.

وارتباط مباحث الأخلاق بقصَّة أو موقف نبويّ قاد إلى نوعٍ من

التداخل أو التقارب الشديد في مباحث الكتاب، وقد اجتهدت في جَمْع ما بينه تقارب في عنوان رئيس.

ولارتباط الكتاب بأخلاق الأنبياء؛ فقد اكتفيت بما يندرج تحت باب الأخلاق والسلوك من سِيَرهم الشريفة، فلم أتناول صلتهم بالله ﷻ، وعبادتهم له -سبحانه-، ولا أسلوبهم ومنهجهم في الدعوة والبلاغ والتعليم، وسائر ذلك مما لا يتَّصِل بالجانب الخُلُقِيّ بصورة مباشرة.

وقد انتابني تردُّد كبير وأنا أكتب سطور هذا الكتاب؛ فهو حديث عن مقام العلية والكبار، عن مقام مَن اصطفاهم الله ﷻ وزكَّاهم وعصمهم؛ وأنَّى لقَلَمِ عبدٍ ضعيفٍ أن يتحدَّث عن مقام أنبياء الله ورسله؟!

وَهَبْ أنَّ عبدًا بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة، فماذا عساه أن يقول عن مقام الأنبياء؟ فكيف بمن هو مثلي؟

إنها محاولة لإضاءة مشاعل للجيل، ووصايا لإخواني المشتغلين بالعلم والدعوة، علَّها أن تكون لبنة في الارتقاء بأخلاقنا وسلوكنا، والتأسِّي بالمصطفين الأخيار من عباد الله.

رحماك يا الله، وأستغفرك من التقصير في مقام صفوة خلقك؛ من قصور في بيان سيرتهم، أو كلمة لا تليق بمقامهم خطَّها قلمي بحُسْن نية، جاوَز فيها الأدب الشرعي.



ربَّاه هذا جهد المُقِلّ، فتقبَّله في صالح أعمال عبدك الضعيف، وأَقِلْ عثرته، وتجاوزْ عن زلته، وسدِّد قَلَمه، واحشره في زمرة مَن أحبَّهم مِن عبادك المصطفين الأخيار.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وإخوانه من الأنبياء والمرسلين، وآل بيته الطاهرين، وصحبه الميامين.

محمد بن عبدالله الدويش
dweesh@dweesh.com
الرياض ٢٦/ ٠٣/ ١٤٤٠هـ





الأخلاق ليست فضلة

جاء هذا الدين ليُصْلِح حياة الإنسان، ويجعله عبدًا لله ﷻ وحده؛ فيعبد الله -تبارك وتعالى- بتوحيده، وتنزيهه عن الشركاء والأنداد، وليتوجه إلى الله ﷻ بقلبه فيحبّه ويرجوه، ويخافه ويخشاه، ويتوكَّل عليه، ويُفوِّض أمرَه له -سبحانه-.

وليتَّجه له ﷻ بالعبادة في طهارته وصلاته وصيامه، وذِكْره ﷻ ودعائه.

وليعبد الله ﷻ بالوقوف عند حدوده؛ فيُحِلّ الحلال، ويُحَرِّم الحرام، في بيعه وشرائه وتعاقده، وفي لباسه وطعامه وشرابه.

ولتقوم حياته على العبودية لله ﷻ في تعامله مع القريب والبعيد، والصديق والعدو، ومع أولياء الله وأعدائه، فيتعامل مع الخلق وفْق مقتضى العبودية له -سبحانه-.

فحُسْن الخُلُق ليس مجرد حِلْيَة أو فضلة، إنه متَّصِل اتصالاً وثيقًا بالإيمان والعبودية لله ﷻ، ويكفي في منزلة حُسْن الخُلُق ما جاء في كتاب الله ﷻ من وصف خير الخَلْق وأزكاهم بمحاسن الأخلاق، والثناء عليهم بمكارمها.

ومن أهم ما يبيّن منزلة الأخلاق من الدين ما يلي:

١- وصف الله ﷻ للنبيّ ﷺ بحُسْن الخُلُق في مقام الثناء عليه، ولا يُثْنِي الله على نبيّه ﷺ إلا بما له منزلة عالية؛ فقد شهد الله ﷻ لنبيه ﷺ بحُسْن الخُلُق؛ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤).

وامتنَّ عليه -سبحانه- بأنْ رزقه حُسْن الخُلُق، فقال ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

وامتنَّ -سبحانه- على المؤمنين بحُسْن خُلُقه ﷺ؛ فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨).

وأما سائر الأنبياء والمرسلين، فالقرآن مليء بوصفهم بمحاسن الأخلاق، وتنزيههم عن مساوئها حاشاهم، وفي أخبارهم وقَصَصهم شواهد عدة على ذلك؛ كما سيأتي.

والمقصود أن ثناء الله ﷻ على صفوة خلقه بمكارم الأخلاق دليل على علوّ منزلتها ومكانتها، فلا يُثْنَى على الكبار إلا بما يستحقّ الثناء.

٢- صِلتها بالإيمان، وأنها معيار لكمال إيمان العبد؛ فعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا،**

وخياركم خياركم لنسائهم» (أخرجه أحمد ٧٤٠٢، وأبو داود ٤٦٨٢، والترمذي ١١٦٢).

وعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وألطفهم بأهله» (أخرجه أحمد ٢٤٢٠٤، والترمذي ٢٦١٢).

٣- أنها أكثر ما يُدخِل الناسَ الجنةَ، عن أبي هريرة ﵁ قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخِل الناس الجنة، فقال: «تقوى الله، وحُسْن الخُلُق»، وسئل عن أكثر ما يُدخِل الناسَ النار، فقال: «الفم والفرج» (أخرجه أحمد ٧٩٠٧، والترمذي ٢٠٠٤).

٤- ثِقَلها في ميزان العبد، وعلوّ درجة صاحبها، عن أبي الدرداء ﵁، أن النبي ﷺ قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حَسَن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء» (أخرجه أحمد ٢٧٥٣٢، وأبو داود ٤٧٩٩، والترمذي ٢٠٠٢).

وفي رواية للبخاري في الأدب المفرد (٤٦٤): «من أُعْطِيَ حظَّه من الرفق؛ فقد أُعْطِيَ حظَّه من الخير، ومَن حُرِمَ حظّه من الرفق، فقد حُرِمَ حظّه من الخير. أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة حُسْن الخُلُق، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء».

عن عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرجل ليُدْرِك بحُسْن خُلُقه، درجة الصائم القائم» (أخرجه أحمد ٢٥٥٣٧، وأبو داود ٤٧٩٨).

٥- أنها معيار للخيرية؛ فعن مسروق، قال: كنا جلوسًا مع عبد الله بن

عمرو رضي الله عنهما يحدثنا إذ قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا، ولا متفحشًا، وإنه كان يقول: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا» (أخرجه البخاري ٦٠٣٥، ومسلم ٢٣٢١).

٦- محبة النبي ﷺ لأهلها، ففي رواية لحديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «إن من أحبكم إليَّ أحسنكم أخلاقًا» (أخرجه البخاري ٣٧٥٩).

عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون، والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون» (أخرجه الترمذي ٢٠١٨).

٧- أنها من مقاصد رسالة النبي ﷺ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بُعِثْتُ لأتمم صالح الأخلاق» (أخرجه أحمد ٨٩٥٢).

٨- أنها من معالم صفة النبي ﷺ؛ فعن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: «أجل، والله؛ إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (الأحزاب:٤٥) ، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتُك المتوكِّل ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن



يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلفًا» (أخرجه البخاري ٢١٢٥).

٩- اعتناء النبي ﷺ بها في الدعوة المكيَّة؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بلغ أبا ذر مبعثُ النبي ﷺ قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: «رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر...» (أخرجه البخاري ٣٨٦١، ومسلم ٢٤٧٤).

ومن يتأمل في الساحة العلمية اليوم يرى هضمًا لمنزلة حُسْن الخُلُق، وتقصيرًا في العناية به، بل ربما لام بعضهم مَن يعتني به على حساب غيره مما يرى أنه أهمّ.

لقد كان للسلف عناية فائقة بالأدب والسلوك ومكارم الأخلاق، وكانت مجالسهم عامرة بها، قال ابن سيرين: «كانوا يتعلمون الهَدْي كما يتعلمون العلم»، قال: وبعث ابن سيرين رجلاً فنظر كيف هدي القاسم وحاله. (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٩).

وقال إبراهيم بن حبيب بن الشهيد: قال لي أبي: «يا بُنَيّ! اصحب الفقهاء والعلماء، وتعلَّم منهم، وخُذْ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم؛ فإن ذاك أحب إليَّ لك من كثير من الحديث» (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١٠).

وعن ابن المبارك، قال: قال لي مخلد بن الحسين: «نحن إلى كثيرٍ من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث» (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١١).

وقال أبو زكريا العنبري: «علم بلا أدب كنَارٍ بلا حطب، وأدب بلا علم كروح بلا جسم، وإنما شُبِّهَت العلم بالنار لما رُوِّينَا عن سفيان بن عيينة أنه قال: ما وجَدْت للعلم شبهًا إلا النار، نقتبس منها ولا ننتقص عنها» (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١٢).

وقد كان أثر طلب العلم يظهر على طالبه في سَمْته وهديه، قال سفيان: «إن كان الرجل ليسمع الحديث الواحد فنرى عليه ثلاثة أيام سَمْته وهَدْيه» (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢١٣).

واعتنى السلف، ومن سار على نهجهم في التصنيف، بباب الأدب والسلوك في مرحلة مبكرة؛ فبوَّب المحدِّثون في مصنَّفَاتهم أبوابًا للأدب والسلوك، وألَّفوا في شمائل المصطفى ﷺ وأخلاقه، وفي أخلاق العلماء، وفي آداب العالم والمتعلم ما لا يُحْصَى.

واعتنى الفقهاء المتأخرون بهذا الأمر؛ فها هو الفقيه الحنبلي ابن مفلح يؤلِّف كتابه النفيس «الآداب الشرعية»، ويتحدَّث في مقدمته عن عناية المتقدمين بذلك، فيقول: «فهذا كتاب يشتمل على جملة كثيرة من الآداب الشرعية، والمِنَح المرعية، يحتاج إلى معرفته أو معرفة كثير منه



كل عالم أو عابد وكل مسلم، وقد صنَّف في هذا المعنى كثيرٌ من أصحابنا كأبي داود السجستاني صاحب السنن، وأبي بكر الخلال، وأبي بكر عبد العزيز، وأبي حفص، وأبي علي بن أبي موسى، والقاضي أبي يعلى، وابن عقيل وغيرهم، وصنَّف في بعض ما يتعلَّق به - كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء، والطبّ واللباس، وغير ذلك - الطبراني وأبو بكر الآجري، وأبو محمد الخلال، والقاضي أبو يعلى، وابنه أبو الحسين، وابن الجوزي وغيرهم» (الآداب الشرعية ١/ ٢).



حول أخلاق الأنبياء

الأنبياء حَمَلَة الهداية، ومشاعل النور إلى الخَلْق، اختصَّهم الله بكرامته ووحيه، وامتنَّ على خَلْقه ببعثتهم وإرسالهم إليهم؛ يهدونهم إلى جنَّته، ويحذرونهم من عقوبته.

قال ابن القيِّم: «فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيِّب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزَن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميَّز أهل الهدى من أهل الضلال؛ فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها والروح إلى حياتها، فأيّ ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير. وما ظنُّك بمن إذا غاب عنك هَدْيه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووُضِعَ في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال بل أعظم، ولكن لا يحسّ بهذا إلا قلب حي» (زاد المعاد ١/ ٦٨).

إن أهمية الاعتناء بأخلاق الأنبياء من البدهيات التي لا ينبغي أن يختلف حولها، والأجدر بمن يتناول الأخلاق، ويتحدث عنها أن يعتني بسِيَرِهم وهديهم؛ فهم أكمل الناس أخلاقًا، قال ابن القيِّم: «والصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة، وضدها من نقصان الحياة، ولهذا كانت حياة الشجاع أكمل من حياة الجبان، وحياة السخي أكمل من حياة البخيل، وحياة الفَطِن الذكي أكمل من حياة الفدم البليد، ولهذا لما كان الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- أكمل الناس حياةً؛ حتى إن قوة حياتهم تمنع الأرض أن تُبْلِي أجسامهم، كانوا أكمل الناس في هذه الأخلاق، ثم الأمثل فالأمثل من أتباعهم» (مدارج السالكين ٣/ ٢٤٩).

ورغم أهمية الجانب الخُلُقِيّ في سِيَر الأنبياء وقَصَصهم إلا أنَّ اعتناءنا بذلك لا يتناسب مع منزلته وأهميته؛ فالحديث عن سِيَر الأنبياء كثيرًا ما يَقتصر على الاعتبار بنجاتهم وهلاك قومهم، ومنهجهم في الدعوة والإصلاح، وهذا من أهم مواطن الاعتبار والتأسِّي، لكنه ليس المجال الوحيد.

وفيما يلي إشارة موجزة لمبرِّرات الاعتناء بأخلاق الأنبياء:

أولاً: منزلتهم العالية:

الأنبياء لهم المنزلة والمكانة العلية عند الله ﷻ؛ فقد اختارهم ﷻ لوحيه، وتبليغ أوامره ونواهيه، والدعوة لدينه، قال ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا

يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (القصص:٦٨).

واختياره ﷻ عن عِلْم وحكمة؛ فهو ﷻ خالق كل شيء، والعالم بما كان وما سيكون، قال -سبحانه-: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ (الملك:١٤).

وعلوّ منزلتهم وسموّ مكانتهم يؤكِّد على الاعتناء بكافَّة جوانب حياتهم، ومنها الأخلاق والسلوك.

ثانيًا: الاصطفاء الرباني:

اصطفى الله ﷻ أنبياءه ورُسُله من بين سائر خلقه؛ فقال -سبحانه-: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ (الحج: ٧٥).

وقال -تعالى-: ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (النمل: ٥٩).

وجاء في القرآن النصُّ على اصطفاء بعض الأنبياء بأعيانهم، قال -جل وعلا-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٣).

وأخبر -تبارك وتعالى- أنه اصطفى موسى عليه السلام فقال: ﴿ قَالَ

يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٤٤).

وأنه جعل إبراهيم عليه السلام إمامًا فقال: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:١٢٤).

وأشار ابن القيِّم -رحمه الله- إلى حكمة الله في الاصطفاء والاختيار فقال: «وإذا تأملتَ أحوال هذا الخَلْق، رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه دالاً على ربوبيته -تعالى- ووحدانيته وكمال حكمته وعلمه وقدرته»، وذكر خَلْق السماوات السبع، واختصاص السابعة منها بمزيد فضل، وخلق الملائكة، واختصاص جبريل وميكائيل وإسرافيل، ثم ذكر اصطفاء الأنبياء فقال: «وكذلك اختياره -سبحانه- للأنبياء من ولد آدم -عليه وعليهم الصلاة والسلام-، وهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، واختياره الرسل منهم، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، على ما في حديث أبي ذر الذي رواه أحمد، وابن حبان في «صحيحه»، واختياره أولي العزم منهم، وهم الخمسة المذكورون في سورة (الأحزاب) و(الشورى) في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ (الأحزاب:٧) ، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ

ﭐلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ (الشورى:١٣)، واختار منهم الخليلين؛ إبراهيم ومحمدًا -صلى الله عليهما وآلهما وسلم-.

ومِن هذا اختياره -سبحانه- ولد إسماعيل من أجناس بني آدم، ثم اختار منهم بني كنانة من خزيمة، ثم اختار من ولد كنانة قريشًا، ثم اختار من قريش بني هاشم، ثم اختار من بني هاشم سيد ولد آدم محمدًا ﷺ» (زاد المعاد ١/ ٤٣-٤٥).

ومن مجالات الاصطفاء: الأخلاق والسلوك؛ لذا فقد كان أنبياء الله معروفين لدى قومهم قبل النبوة والرسالة بكمال الخُلُق، قال قوم صالح له: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (هود:٦٢).

أما سيد ولد آدم ﷺ فقد شهد له قومه بالصدق والأمانة رغم كفرهم، فقالوا: «ما جربنا عليك إلا صدقًا»، وذلك حين سألهم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم، أكنتم مصدِّقي؟» (أخرجه البخاري ٤٧٧٠ ومسلم ٤٩٧١). وفي رواية للبخاري، وهي لفظ مسلم «ما جرَّبنا عليك كذبًا».

وشهد له أبو سفيان -وقت كفره- بالصدق، والوفاء بالعهد حين حديثه مع هرقل.

ثالثًا: التزكية الربانية:

ومع الاصطفاء والاختيار فقد زكاهم ﷻ، قال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ (ص: ٤٦).

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ (يوسف:٢٢).

وقال عن لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ (الأنبياء:٧٤).

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ (القصص:١٤).

رابعًا: بشريتهم:

ومع ما للأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- من منزلة ومكانة عالية إلا أنهم بَشَر، لا يُخرِجهم الاصطفاء عن بشريتهم، فيصيبهم المرض كما قال -سبحانه- على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ (الشعراء: ٨٠).

وتَعْرِض لهم العوارض كسائر البشر، فخليل الرحمن عليه السلام يشعر بالخيفة من ضيوفه ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ (هود:٧٠).

وها هو موسى عليه السلام يخاف فيخرج من مصر، قال -سبحانه-: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص:٢١).

وقال عليه السلام مخاطبًا فرعون: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء:٢١).

وخاف عليه السلام حين ألقى السحرة عِصيَّهم، قال -سبحانه-: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ (طه:٦٧).

ويغضب عليه السلام حين رأى حال قومه، وقد عبدوا العجل، قال -سبحانه-: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ (طه:٨٦).

وحين انصرف الحَجَر بثوب موسى لما اغتسل لَحِقَهُ موسى عليه السلام، وضرَبه، قال ابن حجر: «وأن الآدمي يغلب عليه طباع البشر؛ لأن موسى علم أن الحجر ما سار بثوبه إلا بأمر من الله، ومع ذلك عامَلَه معاملة مَن يَعقل حتى ضربه» (فتح الباري ٦/ ٤٣٨).

وأخبر -تبارك وتعالى- عن إمام الأنبياء وسيد ولد آدم بضيق صدره لمقولة قومه، قال -سبحانه-: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (الحجر: ٩٧).

وفي آية أخرى قال عز وجل: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦).

ويخبر ﷺ بأنهم أشد الناس تعرُّضًا لبلاء الدنيا ومصائبها؛ فعن

مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: قلت: يا رسول الله، أيّ الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل، فالأمثل من الناس، يُبْتَلَى الرجل على حَسْب دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيدَ في بلائه، وإن كان في دينه رِقَّة خُفِّف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يَمْشِي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة» (أخرجه أحمد ١٤٨١، والترمذي ٢٣٩٨، وابن ماجه ٤٠٢٣).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك، فوضعت يدي عليه فوجدت حرّه بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ما أشدها عليك قال: «إنا كذلك يضعّف لنا البلاء، ويضعّف لنا الأجر» قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء» ، قلت: يا رسول الله ثم من؟ قال: «ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر، حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء، كما يفرح أحدكم بالرخاء» (أخرجه أحمد ١١٨٩٣، وابن ماجه ٤٠٢٤).

وطروء هذه العوارض البشرية يجعلهم -صلوات الله وسلامه عليهم- في موطن القدوة؛ فهم بشَر كسائر البشر، لكنَّ الله اصطفاهم؛ فحين يصبرون ويحلمون ويعفون فليس ذلك لأنهم لا يغضبون ويأسفون، ولا أن مشاعرهم جامدة حين يسيء إليهم أحد من الناس، ومصدر شجاعتهم ليس انعدام الخوف عن قلوبهم، إنهم يجاهدون أنفسهم، ويستعلون على دوافعها؛ فيتحلون بمكارم الأخلاق ومحاسنها اختيارًا لا اضطرارًا.

خامسًا: معيارية أخلاقهم:

من الناس من تسمو أخلاقهم وصفاتهم حتى تكون مضرب المثل، فمنهم من يكون إمامًا في العفو، ومنهم من يكون إمامًا في الحلم، أو الصبر، أو الشجاعة وغيرها من مكارم الأخلاق.

إلا أن أخلاق البشر مهما سَمَتْ وارتقتْ فلن تكون محلّ اتفاق الجميع، فهناك مَن يرى بعض صُوَر الحلم ضعفًا، وبعض مواقف الشجاعة اندفاعًا وتهوُّرًا، وبعض أحوال الكرم إسرافًا، وسائر البشر عرضة لذلك، أما أخلاق الأنبياء فهي أخلاق لا يُختلَف حولها، لذا فهي أصدق معيار على الخُلُق السويّ، وميزان لما هو مقبول وغير مقبول من السلوك، كيف لا وقد اختارها لهم من اصطفاهم واجتباهم ﷻ.

سادسًا: اعتدالهم ووسطيتهم:

مهما بلغ البشر من الصفاء وسموّ الأخلاق فلن يسلموا من الغلو وتجاوز القدر؛ فالكريم السخي قد لا يسلم من السَّرف، والحليم قد لا يسلم من الضعف، والشجاع قد لا يسلم من الاندفاع في موقف يحسن فيه التروي.

قال ابن القيم: «كل خُلُق محمود مُكتنف بخُلُقين ذميمين. وهو وَسَط بينهما. وطرفاه خُلُقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خُلُقَا البخل والتبذير، والتواضع: الذي يكتنفه خُلُقَا الذل والمهانة، والكبر والعلو؛

فإن النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخُلُقين الذميمين ولا بدَّ، فإذا انحرفت عن خُلُق التواضع انحرفت: إما إلى كِبْر وعلوّ، وإما إلى ذلّ ومهانة وحقارة، وإذا انحرفت عن خُلُق الحياء انحرفت: إما إلى قحة وجرأة، وإما إلى عجز وخور ومهانة، بحيث يُطْمِع في نفسه عدوَّه، ويفوته كثير من مصالحه، ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء، وإنما هو المهانة والعجز، وموت النفس، وكذلك إذا انحرفت عن خُلُق الصبر المحمود انحرفت: إما إلى جَزَع وهَلَع وجَشَع وتسخُّط، وإما إلى غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجُّر طَبْع». (مدارج السالكين ٢/ ٢٩٥-٢٩٦).

وكان أهل الحكمة من العرب يدعون إلى التوازن والاعتدال، وحين لا يتحقَّق ذلك في الفرد الواحد يسعون لتحقُّقه من خلال المجموع؛ ويحكى أنه أغار حيّ من أحياء العرب على آخر، فاستاقوا أموالهم، وسبوا ذراريهم، فأتوا شيخًا لهم قد خنق التسعين، وأهدف للمائة، يشاوورنه فيما يدركون به ذحلهم[1]، فقال لهم: إن كِبَر سِنّي قد فسخ قوتي، ونكث إبرام عزيمتي، ولكن شاوروا الشجعان من أهل العزم، والجبناء من أهل الحزم، فإنكم لا تعدمون من رأي الشجاع ما شيّد ذكركم، ومن رأي الجبان ما وقَى مهجكم، ثم خلصوا من الرأيين نتيجة، تنأى بكم عن تقحم الشجعان، وعن معرة تقصير الجبان، فإذا خلص لكم الرأي كان أنفذ في عدوكم من السهم

(١) قال ابن فارس: «الذال والحاء واللام أصل واحد يدل على مقابلة بمثل الجناية، يقال طلب بذحله» (مقاييس اللغة ٢/ ٣٧٠).

الزالج[1]، والحواز الوالج» (مكارم الأخلاق للخرائطي ٧٧٦).

أما الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- فأخلاقهم وَسَط وعدل، ليس فيها غلوّ ولا جفاء.

سابعًا: كمالهم الخُلُقي:

في التاريخ وفي واقع الناس وما يعايشونه في عصرهم نماذج ممن اتصفوا بمحاسن الأخلاق حتى ارتبطت بهم فصاروا مضرب المثل كما ضُرب المثل بحاتم في الكرم، وبالأحنف في الحلم... إلخ.

إلا أن من يتصف بالحلم قد يفقد الشجاعة، ومن يشتهر بالكرم قد يكون غضوبًا لجوجًا، فيندر أن تجتمع في واحد من البشر مكارم الأخلاق، أما الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- فهم أئمة في الخُلُق الحسن، جمع الله لهم المكارم كلها، وجبَلهم على جميل السجايا ومحاسن الصفات.

«للمروءة وجوب وآداب لا يحصرها عددٌ ولا حساب، وقلما اجتمعت شروطها قط في الإنسان ولا اكتملت وجوهها في بشر، فإن كان ففي الأنبياء -صلوات الله عليهم- دون سائرهم، وأما الناس فعلى مراتب بقدر ما أحرز كل واحد منهم من خصالها واحتوى عليه من خلالها» (المروءة لابن المرزبان ص ١٣٢-١٣٣).

---

(١) قال ابن فارس: «والزلج: السرعة في المشي وغيره، وكل سريع زالج. وسهم زالج: يتزلج من القوس» (مقاييس اللغة ٣/ ١٩).

«وإذا تأملت في سيرة أنبياء الله ورسله، رأيتهم أبرّ الناس قلوبًا، وأعمقهم علمًا، وأحضرهم بديهة، وأشدهم تحمُّلاً، وأرقّهم طباعًا، فلا عجب أن يختارهم الله ليكونوا أمناء وحيه، والعاملين على إقامة دينه؛ فهم القِمَم السامقة التي تعجز النفوس أن تبلغ مداها». (الرسل والرسالات، للأشقر ٢١٠-٢١١).

ثامنًا: تنزيههم من مساوئ الأخلاق:

لا يسلم كثير من الكبار من خلق معيب، أو سلوك يشينه، فكم من عالم، أو مفكِّر، أو بارز فيه ما يعيبه من خلق سيئ، أو صفة ذميمة؛ فالبشر مجبولون على النقص والقصور، وقد بيَّن الله ﷻ في كتابه أن مَن يكرهه الإنسان قد يوجد فيه خير لم يلتفت إليه ويتفطن له؛ فقال -سبحانه-: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء:١٩).

وأرشد النبي ﷺ الناس في تعاملهم الاجتماعي إلى احتمال ما يكرهونه من خُلُق؛ لأنهم سيجدون سواه، فقال ﷺ: «لا يَفْرك مؤمن مؤمنة؛ إن كره منها خُلُقًا رضي منها آخر» (أخرجه مسلم ١٤٦٩).

فالبشر لا يَسْلَمون من خُلُق محبوب وخُلُق مكروه، أما الأنبياء والمرسلون فهم مُنَزَّهُون عن مساوئ الأخلاق.

قال السفاريني: «فإن الأنبياء منزَّهة عن جميع الرذائل من البخل



والجبن واللهو واللغو وسائر الأخلاق الذميمة، كما أنهم مبرءون من لؤم النسب، وشَرَه القلب، وحرص النفس على الدنيا، ولهذا لم يبعث الله نبيًّا إلا في أشرف منسب أمته، فلم يبعث نبيًّا من ذي نسب مبذول، كما لم يبعث نبيًّا عبدًا ولا لئيمًا» (لوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٦٦).



صلة الأخلاق بوظائف الأنبياء

جاء في كتاب الله ﷻ بيان طائفة من وظائف الأنبياء والمرسلين، فمنها:

- البشارة والنذارة، قال ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء:١٦٥).
- ومنها البلاغ المبين، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النحل:٣٥). وقال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (العنكبوت:١٨).
- ومنها الدعوة لتوحيد الله ﷻ وعبادته، قال -سبحانه-: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (إبراهيم:٩). وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ

وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (النحل:٣٦).

- ومن وظائفهم تزكية النفوس وإصلاحها، قال ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (النازعات:١٥-١٩).
- ومنها الحكم بين الناس، قال ﷻ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ (ص:٢٦).
- ومنها سياسة الناس وقيادتهم، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون» قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «فُوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقَّهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم» (أخرجه البخاري ٣٤٥٥، ومسلم ١٨٤٢).

وهذه الوظائف ذات اتصال وثيق بالجانب الخُلُقِي والسلوكي؛ فمضمون دعوة الأنبياء يتضمَّن الدعوة إلى محاسن الأخلاق: من الصدق، والبر، والإحسان، والصلة، وغيرها، والنهي عن مساوئ الأخلاق: من الظلم، والكذب، والشح، وغيرها.

وهذه الوظائف تتطلب التواصل مع الناس والتعامل معهم، مما يظهر فيه أثر الخلق بارزًا، كما أنها تجعلهم محط أنظار الناس، أتباعهم يتأسون

بهم، ويقتدون بهم في كل صغيرة وكبيرة، كما قال ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره» (أخرجه مسلم ٥٠).

كما أنهم محط أنظار مخالفيهم، يفتّشون لديهم عن ضعف أو زلة وهفوة، ويبحثون عما يوظِّفونه في الطعن فيهم.

إن مهمة الأنبياء ليست مجرد إخبار الناس بما فرَض الله عليهم؛ فهم يعيشون مع الناس، يدعونهم، ويعلمونهم، يعاملون الصغير والكبير، العاقل ومن هو دون ذلك، مما يتطلب امتلاكهم للنموذج السامق في حُسْن الخُلُق، وسلامتهم من أي خُلُق يشين، أو يعوق عن أداء هذه المهام.

تصفّح سيرة النبي ﷺ فسترى نماذج عدة ممن كان سبب دخولهم في الإسلام ما رأوه من أخلاق النبي ﷺ.

ومن ذلك جوده ﷺ، فعن صفوان بن أمية ﷺ، قال: «لقد أعطاني رسولُ اللهِ ﷺ يومَ حُنينٍ وإنَّه لَمِن أبغضِ النَّاسِ إليَّ، فما زال يُعطيني حتَّى إنَّه لَأحبُّ الخَلقِ إليَّ» (أخرجه أحمد ٢٧٦٣٨).

عن أنس ﷺ قال: «ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة» (أخرجه مسلم٢٣١٢).

وإذا أردت أن تبصر أثر محاسن الأخلاق على حَمَلَة الرسالة فتأمل

في حال بعض من لا ينقصهم نية حسنة، ولا رغبة في الخير، لكنَّ أخلاقهم لم تَحْسُن؛ فيتعاملون مع الناس بما ينفِّرهم ويصدّهم، بل ربما كانوا سببًا في فتنة غيرهم.

قال ابن القيِّم -رحمه الله- مبيِّنًا أثر الخُلُق على استجابة الناس للدعوة: «ولقد دعونا نحن وغيرنا كثيرًا من أهل الكتاب إلى الإسلام، فأخبروا أن المانع لهم ما يرون عليه المنتسبين إلى الإسلام، ممن يعظِّمهم الجُهَّال: من البدع والظلم، والفجور والمكر والاحتيال، ونسبة ذلك إلى الشرع ولمن جاء به؛ فساء ظنُّهم بالشرع وبمن جاء به، فالله طليب قُطَّاع طريق الله، وحسيبهم» (إغاثة اللهفان ٢/ ٢٩٨).

وقد امتنَّ الله ﷻ على أصحاب النبي ﷺ بحُسْن خُلُقه، فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨).

وامتنَّ عليه ﷻ بحُسْن الخُلُق، وأخبر ﷻ أن ذلك من أسباب اجتماع القلوب عليه، وأنه لو فقَد هذه المكارم لانصرفَ الناس عنه، قال -سبحانه-: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

وجاء في كتاب الله ﷻ الارتباط بين الأخلاق والدعوة، فأمر ﷻ بمحاسنها بعد الثناء على الدعاة وتزكية قولهم، وأخبر أنها تحوِّل العدو

إلى صديق وولي، قال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت:٣٣-٣٥).



بيان القرآن لأخلاق الأنبياء

القرآن الكريم مليء بالحديث عن أخلاق الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-، ويمكن تقسيم مداخل الحديث عن أخلاق الأنبياء في القرآن الكريم إلى ما يلي:

الأول: النص صراحة على اتِّصاف النبيّ بخُلُق من الأخلاق، وشهادة الله ﷻ له بذلك، ومن ذلك:

- وصف إبراهيم عليه السلام بالحلم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة:١١٤).
- وصف أولي العزم من الرسل بالصبر، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ (الأحقاف:٣٥).
- وصف أيوب عليه السلام بالصبر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص:٤٤).
- وصف إسماعيل وإدريس وذي الكفل بالصبر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنبياء:٨٥).
- وصف نوح عليه السلام بالشكر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء:٣)، ووصف الله ﷻ أيضًا إبراهيم بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (النحل:١٢١).

• وصف إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ (مريم:٥٤).

الثاني: أن يأتي وصفه بالخلق على لسان أحد من عاشوا القصة، كما وصفت الفتاة موسى عليه السلام بالقوة والأمانة في قولها: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ (القصص:٢٦)، وكما وصف الفتيان يوسف عليه السلام بالإحسان في قولهما: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (يوسف:٣٦).

الثالث: حديث النبي عليه السلام عن نفسه، كما قال جمع من الأنبياء لأقوامهم: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ (الشعراء:١٠٧) ، وجاء في قول إسماعيل عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الصافات:١٠٢)، وقول يوسف عليه السلام: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ (يوسف:٥٩).

وقد ينفي عن نفسه صفة سيئة، كما في قول عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾ (مريم:٣٢).

الرابع: ما يمكن استنباطه من الموقف استنباطًا دون أن ينصّ عليه، كما في قول موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ (القصص:٣٤)، وقوله للخضر: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ (الكهف:٦٦)، وقول يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ (يوسف:٨٧).

الخامس: أن يحكي القرآن قصة نَبِيّ من الأنبياء تتضمّن خُلُقًا من

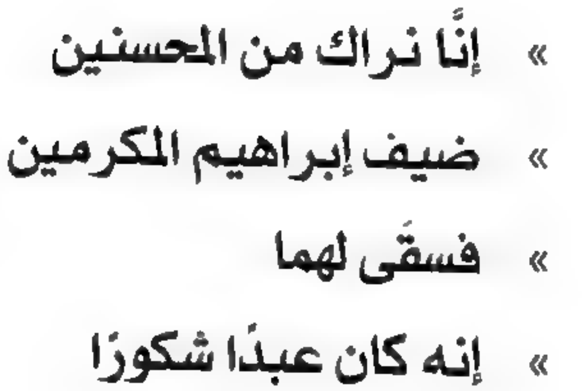


محاسن الأخلاق، وقد ينصُّ على ذلك صراحة في القصة، كما في قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه من الملائكة، ووصفه بالكرم في قوله -تعالى-: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ (الذاريات:٢٤)، وكما في مجادلته لهم بشأن قوم لوط في دلالتها على الحلم، وقوله -سبحانه- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ (هود: ٧٤- ٧٥).

وقد لا ينص على الخلق صراحة في سياق القصة، كما قصة موسى عليه السلام مع فتاتي مدين في سورة القصص، ودلالتها على إحسان موسى عليه السلام، وكما في قصته عليه السلام مع الخضر ودلالتها على التواضع والأدب مع مَن هو دونه في المنزلة.




البذل
والإحسان


» إنَّا نراك من المحسنين
» ضيف إبراهيم المكرمين
» فسقَى لهما
» إنه كان عبدًا شكورًا



إنا نراك من المحسنين

في سورة يوسف التي أفاضت في قصته ذكَرَ الله ﷻ نموذجًا من إحسان يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٣٦).

شهد الفتيان ليوسف عليه السلام بالإحسان، وهذه الشهادة لها وزن وقيمة؛ لاعتبارات عدة، منها:

- أنهما ملازمان له، يعيشان معه ليلاً ونهارًا، مما يعني أن الشهادة لم تكن نتيجة موقف عارض، أو انطباع عاجل؛ فهما مصاحبان له عليه السلام في كلِّ أحواله.
- أن يوسف عليه السلام كان في حال من الضيق والمعاناة؛ إذ فقَد والده وأهله، وابتُليَ في عِرْضه الشريف، واجتمع عليه كَيْد إخوته، وامرأة العزيز، والنسوة، وأخيرًا السجن ظلمًا، فحين تظهر عليه سجية الإحسان في هذه الحال، فكيف بسائر أحواله؟!
- أنهما لم يكونا على مِلّته ودِينه، فإذا كان هذا حاله مع هؤلاء فكيف بإخوة الدين والإيمان؟

والشهادة ليوسف عليه السلام بالإحسان ليس مصدرها الوحيد صاحباه

في السجن، بل شهد له إخوته: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٧٨).

وأعظم من تلك الشهادات شهادة الله ﷻ، فقد وصفه ﷻ بالإحسان عند بلوغه الأشد، قال ﷻ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٢٢).

كما وصفه -سبحانه- بالإحسان بعد خروجه من السجن وتمكينه في الأرض، قال -سبحانه-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٥٦).

لقد لزم يوسف عليه السلام الإحسانَ في شتَّى شؤونه: في سرائه، وضرائه، وفي خاصَّة نفسه، ومع والديه، ومع إخوته، وفي حال الفتنة، وفي حال الانتصار، وفي حال عبادته لربه، وليس بعد هذه الشهادة والتزكية الربانية شهادة أو وَصْف، وأيّ قلم بشري يمكنه وصف إحسان يوسف عليه السلام بعد هذا الوصف الرباني؟!

هذه الكلمات الموجزة تؤكِّد نتائج عظيمة:

أولها: علو منزلة الإحسان وقيمته في خُلُق المؤمن، وإلا فما معنى أن يُوصَف به نبي اصطفاه الله واجتباه لرسالته؟

وثانيها: دعوتنا معشر قراء القرآن إلى التخلُّق بخلق الإحسان والتحلِّي به؛ فالله يحب المحسنين ويجزي المحسنين.

وثالثها: معيارية إحسان يوسف عليه السلام؛ فالناس يتعاملون مع الأخلاق

بنسبية؛ فما يعدُّه بعضهم لينًا وحكمة قد يراه غيره ضعفًا وخَورًا، وما يعدُّه فلان عفوًا وتساميًا عن حظوظ النفس، قد يراه غيره هوانًا ورضىً بالذل والمظلمة، وهكذا اتساع دائرة الإحسان ربما نظر إليه بعضهم أنه وضع للندى في غير موضعه، وتكريم لمن لا يستحقه.

لكنَّ ما قصَّه علينا القرآن من قصص الأنبياء وأخبارهم، وما ساقَه من محاسن أخلاقهم فهو حقٌّ لا مِرْيَة فيه، وهو أعلى معيارية لمحاسن الأخلاق وتمييز ما هو في دائرة الإحسان، أو في دائرة الضعف.

وإنما نُؤْتَى من خطئنا في فهم النص القرآني، أو في تطبيقنا لمناطه، وهذا كله ناتج من قصورنا البشري.

ما إحسان يوسف؟

قال ابن جرير الطبري: «اختلف أهل التأويل في معنى «الإحسان» الذي وصف به الفتيان يوسف. فقال بعضهم: هو أنه كان يعود مريضهم، ويعزِّي حزينهم، وإذا احتاج منهم إنسان جَمَع له» (تفسير ابن جرير ١٦/٩٨).

وروى بإسناده عن سلمة بن نبيط، عن الضحاك بن مزاحم، قال: كنت جالسًا معه ببلخ، فسئل عن قوله: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، قال: قيل له: ما كان إحسان يوسف؟ قال: «كان إذا مرض إنسان قام عليه، وإذا احتاج جمع له، وإذا ضاق أوْسَع له» (تفسير ابن جرير ١٦/٩٨).

وقيل: إنه عليه السلام بادرهما بالسؤال لما رأى من حالهما، قال البغوي: «فرآهما يوسف وهما مهمومان، فسألهما عن شأنهما، فذكرا أنهما صاحبا الملك، حبسهما، وقد رأيا رؤيا غمتهما. فقال يوسف: قُصَّا عليَّ ما رأيتما، فقَصَّا عليه» (تفسير البغوي ٤/ ٢٤٠).

وقال ابن كثير: «وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث، وحُسْن السَّمْت وكثرة العبادة -صلوات الله عليه وسلامه- ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم» (تفسير ابن كثير ٤/ ٣٨٧-٣٨٨).

وقيل: «إنا نراك محسنًا إلى نفسك بلزومك طاعة الله، ذكره ابن الأنباري» (زاد المسير ٣/ ٤٣٩).

وقيل المقصود بالإحسان إخباره لهما بتأويل الرؤيا: قال ابن جرير: وقال آخرون: معناه: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، إذا نبأتنا بتأويل رؤيانا هذه. (تفسير ابن جرير ١٦/ ٩٩).

وهذه الأقوال والمرويات في بيان المقصود بإحسان يوسف عليه السلام مما يُستأنس به، لكن لا يجزم إلا بما ورد في القرآن، أو صح في السنة النبوية.

وعدم الجزم بشيء من تفاصيل هذه الأقوال لا ينفي الأصل، وهو التزكية الربانية من الله عز وجل له، والشهادة له بالإحسان.

خرج يوسف عليه السلام من بيت أهله وأبويه، وأُلْقِيَ في الجُبّ، ثم استرقَّ في بيت العزيز، وتعرَّض لفتنة النساء وإغرائهن، وأخيرًا دخل السجن دون

جريرة بل لعفته وامتناعه عن إجابة دعوة امرأة العزيز.

عاش يوسف عليه السلام في السجن مع طائفة قد يكون فيهم المظلوم، لكن فيهم المجرم والمستحِق للعقوبة.

عاش عليه السلام في هذه البيئة وهو سليل الأنبياء؛ الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ومع ذلك بقي عليه السلام سامقًا بخُلُقه، يشهد له بالإحسان من لم يعرفه من قبل.

ثمَّة فئة من الناس يتخلَّقُون بأخلاق عالية في مواقف تقتضي المجاملة والتصنُّع، لكن هذه الأخلاق سرعان ما تتحول وتتبدل عند أول اختبار حقيقي، فأنت ترى أحدهم لبقًا تتسابق الكلمات الأخَّاذة على لسانه، لا تخطئة الضحكات والابتسامة، وفجأة لسبب لا يستحق تتبدل الحال، وترى شخصًا آخر.

هذا اللون يعبِّر عن مهارة، وقدرة على التمثيل أكثر من تعبيره عن خُلُق حقيقي، أما التخلق الصادق فهو الذي يلازم صاحبه في كل أحواله، يتخلَّق به مع يرجوه ومن لا يرجوه، مع القريب والبعيد، والصغير والكبير، في الضيق والسعة، والرخاء والشدة.

قد يغضب الرجل الخلوق، وقد يتكدَّر خاطره، وتضيق نفسه، لكن شتَّان بين الحال الطارئة، وبين الخُلُق المتصنِّع.

أقلَّنا صاحب أجرة فاضل من مدينة لأخرى، وطفق يحدثنا حديثًا ماتعًا عن سيرة النبي ﷺ وشمائله، وأخرج من درج سيارته كتابًا تآكلت

أوراقه من ملازمة القراءة فيه، وفي الطريق زاحمه صاحب سيارة فانطلق يلعن ويشتم ويسبّ، فابتسمنا وقلنا له: أين السيرة وشمائل النبي ﷺ؟!

هنا تُختبر الأخلاق في حال الكدر والضيق، وحال التعامل مع مَن لا يُطاقُون.

استحضر يوسف عليه السلام إحسان الله -تبارك وتعالى- له حين راودته امرأة العزيز عن نفسه، ورأى أن إحسان الله عز وجل له يقتضي منه العفة عما حرمه -سبحانه- عليه، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (يوسف: ٢٣).

وحين جمعه الله عز وجل بأبويه وإخوته امتنَّ له تعالى بالإحسان، قال عز وجل: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (يوسف: ١٠٠).

وخُلق الإحسان لم يكن خاصًّا بيوسف عليه السلام؛ فقد شهد الله عز وجل لطائفة من عباده المرسلين بالإحسان.

فشهد -تبارك وتعالى- بالإحسان لنبيّه نوح عليه السلام أول رسول أرسله إلى أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الصافات: ٧٩-٨١).



ووصف خليله إبراهيم عليه السلام بذلك، فقال -سبحانه-: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصافات:١٠٨-١١١).

وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ۖ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأنعام: ٨٤).

وقال عز وجل عن موسى وهارون: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات: ١١٩ - ١٢١).

ووصف بذلك أيضًا نبيّه إلياس عليه السلام، فقال -سبحانه-: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات: ١٢٩ - ١٣١).

وأخبر تعالى عن محبّته للمحسنين، فقال: ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٥).

وقال -سبحانه-: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

وشرّف تعالى المحسنين بمعيته، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت: ٦٩).



وبيّن ﷻ استحقاق المحسنين للرحمة فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦).

ووعَد المحسنين بالزيادة فقال: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ١٦١).

ووعدَهم بعدم ضياع الأجر، فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: ١٢٠).

وجاء على لسان يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٠).

والحديث يطول عن منزلة المحسنين وثواب الإحسان العاجل والآجل، وإنما هي إشارة إلى أهميَّة هذا الخلق، وعِظَم منزلته.

والإحسان خُلُق يستوعب حياة المسلم؛ فيتَّسِم بالإحسان في عبادته وسلوكه، وتعامله مع القريب والبعيد، وحاله في السَّرَّاء والضراء.

فهو يحسن الطهارة لله ﷻ، عن حمران، مولى عثمان، قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو بفناء المسجد فجاءه المؤذِّن عند العصر فدعا

بوضوء فتوضأ، ثم قال: والله لأحدثنكم حديثًا لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يتوضأ رجل مسلم فيحسن الوضوء فيصلي صلاة إلا غفر الله له ما بينه وبين الصلاة التي تليها» (أخرجه مسلم ٢٢٧).

ويحسن التأديب والتربية، فعن أبي بردة ﷺ أنه سمع أباه عن النبي ﷺ قال: " ثلاثةٌ يُؤتَون أجرهم مرتينِ: الرجلُ تكونُ له الأَمَةُ، فيعلِّمُها فيحسنُ تعليمَها، ويؤدِّبُها فيحسنُ أدبَها، ثم يعتقُها فيتزوجُها فله أجرانِ، ومؤمنُ أهلِ الكتابِ، الذي كان مؤمنًا، ثم آمن بالنبيِّ ﷺ فله أجرانِ، والعبدُ الذي يؤدِّي حقَّ اللهِ وينصحُ لسيدِه" (أخرجه البخاري ٣٠١١).

وأوْلى مَن يتعاهدهم المسلم بالإحسان هم الوالدان أحقّ الناس بحسن الصُّحبة، قال ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

يليهم ذوو القربى، كما قال -سبحانه-: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣).

والأدوار والمهام الاجتماعيَّة التي يؤدِّيها المسلم من رعاية ونفقة ينبغي أن ترتبط بالإحسان، فعن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي، أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى

عليه، وذكَّر، ووعَظ، ثُمَّ قال: «ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم مَن تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تُحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن» (أخرجه الترمذي ١١٦٣، وابن ماجه ١٨٥١) وأصله في مسلم.

ويوصي ﷺ بالإحسان إلى الجار، ويربط ذلك بالإيمان بالله ﷻ؛ فالإحسان ليس فضلة، أو نافلة من النوافل؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يأخذ من أمتي خمس خصال فيعمل بهن أو يعلِّمهن مَن يعمل بهنَّ؟» قال: قلت: أنا يا رسول الله. قال فأخذ بيدي فعدَّهُنَّ فيها ثم قال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأَحْسِن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تُكْثِرِ الضحك فإن كثرة الضحك تُميت القلب» (أخرجه أحمد ٨٠٣٤، والترمذي ٢٣٠٥، وابن ماجه ٤٢١٧).

وينبغي أن يستحضر المسلم الإحسان كذلك في مواطن النزاع والخلاف، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ (البقرة: ١٧٨).

عليه، وذكَّر، ووعَظ، ثُمَّ قال: «ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم مَن تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تُحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن» (أخرجه الترمذي ١١٦٣، وابن ماجه ١٨٥١) وأصله في مسلم.

ويوصي ﷺ بالإحسان إلى الجار، ويربط ذلك بالإيمان بالله ﷻ؛ فالإحسان ليس فضلة، أو نافلة من النوافل؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يأخذ من أمتي خمس خصال فيعمل بهن أو يعلِّمهن مَن يعمل بهنَّ؟» قال: قلت: أنا يا رسول الله. قال فأخذ بيدي فعدَّهُنَّ فيها ثم قال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأَحْسِن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تُكْثِر الضحك فإن كثرة الضحك تُميت القلب» (أخرجه أحمد ٨٠٣٤، والترمذي ٢٣٠٥، وابن ماجه ٤٢١٧).

وينبغي أن يستحضر المسلم الإحسان كذلك في مواطن النزاع والخلاف، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ (البقرة: ١٧٨).

وحين لا تستقيم الحياة الزوجية، ويقرِّر الرجل فِرَاق زوجته؛ فليستحضر الإحسان، قال تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣٦).

وليس الإحسان قاصرًا على أهل الإسلام، فأهل الكفر لهم نصيب من ذلك، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة: ١٣).

بل يتجاوز الإحسان البشر إلى سائر مخلوقات الله من الدواب؛ فعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: « إنَّ اللهَ كتب الإحسانَ على كلِّ شيءٍ؛ فإذا قتلتم فأحسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسِنُوا الذبحَ، وليُحِدَّ أحدُكم شفرتَه، فليُرِحْ ذبيحتَه » (أخرجه مسلم ١٩٥٥).

ومن هنا فالمنتسبون للعلم والدعوة، والمقتدون بالأنبياء هم أحوج الناس إلى استحضار الإحسان والتحلِّي به مع القريب والبعيد، وبخاصة مع من يختلفون معه، وفي الساحة العلميَّة والدعويَّة مواقف تحتاج لتأمل ومراجعة؛ فالاختلاف مع أحد ليس مسوِّغًا للانفلات الأخلاقي والسلوكي، ولا مُسْقِطًا لحق الإحسان والتعامل مع الاختلاف بمقتضاه؛

فليس المسلم -مهما بلغ- بأقل شأنًا من ذبيحة تُزْهَق روحها.

إن تعدُّد مَن وصفهم الله ﷻ من أنبيائه بالإحسان، وتنوُّع مجالات الإحسان وكثرتها دليلٌ على أهمية الإحسان ومركزيته في خُلُق المسلم، وأن سلوكه وتعامله ينبغي أن يصطبغ بصبغة الإحسان.

وعلو قيمة الإحسان في البناء الخُلُقِيّ، وعظم منزلته تدعونا لبذل مزيد من الجهد في تربية أنفسنا على التحلِّي به، وتربية الجيل على معانيه العظيمة، ومما يُعِين على تحقيق ذلك ما يلي:

- استشعار منزلة الإحسان، وأنه خُلُق الأنبياء والمرسلين، وصفهم -سبحانه- به، وأثنى عليهم بالتزامه، ودعانا للتأسِّي بهم، فهو ليس فضلة من الخلق، ولا نافلة من النوافل.
- تصحيح النية، وإرادة وجه الله ﷻ؛ فالإحسان مدخل لثناء الناس وإعجابهم، ولسان حال الصادقين في إحسانهم ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان:٩).
- البدء بتأسيس الإحسان في القلب؛ فبصلاحه يصلح الجسد، وبفساده يفسد، ومما يؤسِّس للإحسان القلبي: محبة الخير للناس، والرغبة في نفعهم، ومحبة النفس للبذل والعطاء، والتأسيس القلبي للإحسان أو غيره من محاسن الأخلاق ينتج نفسًا تنطلق له بسجيتها وعفويتها.
- تحوُّله إلى سجية في النفس، وهذا يبدأ بالتخلُّق به، وتدريب النفس

عليه، حتى تألفه، ويغدو سجية لها وطبعًا؛ فالعلم بالتعلُّم، والحلم بالتحلُّم، ومَن يتصبَّر يصبِّره الله، ومَن يتعفَّف يعفُّه الله.

- البعد عن الاستعلاء واحتقار الناس، فمما يعوق عن حُسْن التعامل مع الناس والإحسان إليهم تلك النظرة الفوقية لمن هو دون الإنسان في مالٍ أو جاهٍ أو تعليمٍ، أو فيما يظهر عليه مِن مظاهر التديُّن، والإيمان بأن الناس يستحقون حُسْن التعامل والخُلُق أيًّا كانت حالهم، بل إن الخُلُق الصادق إنما يتجلَّى حين نتعامل مع مَن هو أقل منا شأنًا، ولا نرجو منه نفعًا، أو نخاف ضرًّا، ولا ينفعنا ثناؤه أو شكره.

- ألا نحتقر القليل، أو نستهين بشيء مما نبذل؛ فالإحسان ليس قاصرًا على بذل الغالي أو النفيس، لذا يربي ﷺ أصحابه على هذا المعنى؛ فيقول: «على كل مسلم صدقة» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق»، قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: «فيعين ذا الحاجة الملهوف» قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «فيأمر بالخير» أو قال: «بالمعروف» قال: فإن لم يفعل؟ قال: «فيمسك عن الشر؛ فإنه له صدقة» (أخرجه البخاري ٦٠٢٢، ومسلم ١٠٠٨).

وعدَّد ﷺ صورًا من الإحسان والبذل لأبي تميمة الهجيمي ﷺ حين سأله عن المعروف فيقول ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تعطي صلة الحبل، ولو أن تعطي شسع النعل، ولو أن تُفرغ من دلوك في

إناء المستسقي، ولو أن تُنحيَّ الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك، ووجهك إليه منطلق، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحْشَانَ في الأرض، وإن سبك رجل بشيء يعلمه فيك، وأنت تعلم فيه نحوه، فلا تسبه فيكون أجره لك ووزره عليه، وما سر أذنك أن تسمعه فاعمل به، وما ساء أذنك أن تسمعه فاجتنبه» (أخرجه أحمد ١٥٩٥٥ وله شواهد عدة).

ومن تمام الإحسان ألا يشوبه ما يكدِّره، وأعظم ذلك المنّ والأذى، ولشناعة ذلك جعله الله ﷻ مُبْطِلاً للصدقة، وضرب لذلك مثلاً بليغًا، فقال -سبحانه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة:٢٦٤).

ومن تجنب المنّ والأذى مراعاة مشاعر مَن يقدّم له الإحسان، واحترام إنسانيته، وبذله له دون إلجائه للطلب أو السؤال، فضلاً عن الإلحاح والتكرار.

قال مطرف بن عبد الله بن الشخير لبعض أصحابه: «إذا كان لك إليَّ حاجة فلا تكلمني فيها، ولكن اكتبها في رقعة ثم ادفعها إليَّ؛ فإني أكره أن أرى في وجهك ذلّ السؤال» (تاريخ دمشق ٥٨/ ٣٢٨-٣٢٩).

ومن تمامه أن يشعر باذله أنه مُحسِن لنفسه لا إلى الناس، وأنه أحوج

لذلك ممن أحسن إليه، عن أبي ذر ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله، أيَ الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله» قال: قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: «أنفسها عند أهلها، وأكثرها ثمنًا» قال: قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تعين صانعًا أو تَصْنع لأخرق»، قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: «تكفّ شرَّك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك» (أخرجه مسلم ٨٤).





ضيف إبراهيم المكرمين

حين أرسل الله عَزَّ وَجَلَّ الملائكة لعذاب قوم لوط جاءوا لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورة ضيوف، ووردت قصتهم في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ومنها ما في سورة الذاريات، قال -سبحانه-: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ (الذاريات: ٢٤-٢٨).

كرم خليل الرحمن:

يتجلَّى في هذه الآيات كرم خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال ابن كثير مبينًا أوجه دلالة هذه الآيات على كرم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتنَّ عليهم أولاً فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عِجْل فتيّ سمين مشويّ، فقرَّبه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرًا يشقّ على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل» (تفسير ابن كثير ٧/ ٤٢١).

وتوسَّع ابن القيِّم في تناول أوجه دلالة الآيات على كرم إبراهيم عليه السلام فذكر خمسة عشر وجهًا ثم قال:

«وتأمل ثناء الله -سبحانه- عليه في إكرام ضيفه من الملائكة؛ حيث يقول -سبحانه-: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (الذاريات: ٢٣- ٢٧)؛ ففي هذا الثناء على إبراهيم من وجوه متعددة، وذكر خمسة عشر وجهًا منها ما ذكره ابن كثير ثم قال فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة، التي هي أشرف الآداب، وما عداها من التكلفات التي هي تخلُّف وتكلُّف إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم، وكفى بهذه الآداب شرفًا وفخرًا، فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النبيين» (جِلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام. ص: ٢٧١-٢٧٤).

كرم خاتم المرسلين:

على هدي إبراهيم عليه السلام كان ولده -خير الخلق محمد ﷺ- أكرم الناس، يُضرَب المثل بجوده وعطائه، وتسير الركبان بأخبار كرمه ﷺ.

كان ﷺ لا يَرُدُّ سائلاً، فعن جابر رضي الله عنه قال: «ما سُئِلَ النبي ﷺ عن شيء قط فقال: لا» (أخرجه البخاري ٦٠٣٤، ومسلم ٢٣١١).

وكان كرمه ﷺ يأسر الناس؛ فدخل طائفة منهم الإسلام لما رأوه من كرمه وسخائه ﷺ، عن أنس رضي الله عنه قال: «ما سُئِلَ رسول الله ﷺ على

الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة» (أخرجه مسلم ٢٣١٢).

وفي رواية لمسلم: فقال أنس: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها».

وكان كرمه ﷺ وسخاؤه سببًا لتحوُّل مشاعر الناس تجاهه، فعن ابن شهاب، قال: «غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح؛ فتح مكة، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين، فاقتتلوا بحنين، فنصر الله دينه والمسلمين وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة»، قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيب، أن صفوان قال: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحبّ الناس إليَّ» (أخرجه مسلم ٢٣١٣).

وينفي ﷺ البخل عن نفسه الشريفة، فعن جبير بن مطعم ﷺ أنه بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مَقْفَلَهُ من حُنَيْنٍ، فَعَلِقَهُ الناسُ يسألونه حتى اضطروه إلى سَمُرَةٍ، فخطفت رداءَه، فوقف النبي ﷺ، فقال: «أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العِضَاهِ نَعَمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذوبًا، ولا جبانًا» (أخرجه البخاري ٢٨٢١).

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قسم رسول الله ﷺ قسمًا، فقلت: والله يا رسول الله، لغير هؤلاء كان أحق به منهم، قال: «إِنَّهُمْ خَيَّرُونِي أَنْ

يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يُبَخِّلُونِي، فَلَسْتُ بِبَاخِلٍ» (أخرجه مسلم ١٠٥٦).

وعلى منهج النبي ﷺ كان أصحابه الكرام -رضوان الله عليهم- قدوة في الكرم، فعن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ﷺ إلى السوق، فلحقت عمر امرأة شابة، فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجي وترك صبية صغارًا، والله ما ينضجون كراعًا، ولا لهم زرع ولا ضرع، وخشيت أن تأكلهم الضبع، وأنا بنت خفاف بن إيماء الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ . فوقف معها عمر ولم يمض، ثم قال: مرحبًا بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطًا في الدار، فحمل عليه غرارتين[1] ملأهما طعامًا، وحمل بينهما نفقة وثيابًا، ثم ناولها بخطامه، ثم قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أكثرت لها؟ قال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها، قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتحاه، ثم أصبحنا نستفيء سهمانهما فيه» (أخرجه البخاري ٤١٦٠).

الكرم من الإيمان:

الكرم خُلُق نبيلٌ، وقيمة شرعيَّة عالية، وليس مجرد عادة تتَّصف بها فئة من المجتمع: قبيلة، أو أهل بلد، ويكفي في منزلة الكرم أن الله ﷻ وصف به نبيَّه وخليله إبراهيم عليه السلام، وأثنى عليه في ذلك.

بل إن الكرم يرتبط بالإيمان بالله واليوم والآخر، عن أبي هريرة ﷺ،

---

(١) الغرارة : وعاء يستعمل للتِّبن. (انظر: لسان العرب ٥/ ١٨).

قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» (أخرجه البخاري ٦٠١٨، ومسلم ٤٧).

وكانت للكرم منزلته العالية لدى العرب قبل الإسلام وبعده، قال الخوفي: «لم يشغف العرب في الجاهلية والإسلام بأكثر من شغفهم بالشجاعة والكرم، فكان الملوك والأمراء أشد ما يكونون حرصًا على أن يذيع في الناس كرمهم وشجاعتهم، وكان شعراؤهم يشيدون بفِعَالهم، ويختصُّون هاتين الفضيلتين بالتنويه، مُحِقِّينَ حينًا، ومبطلين حينًا، ومبالغين حينًا» (من أخلاق النبي ﷺ ص٩٧).

الشح هلاك:

وكما عظّمت الشريعة الكرم، وأعلت من شأنه، فقد حذَّرت من الشحّ، وذمَّت من اتَّصف به، وأخبر الله ﷻ أن الفلاح مرتبط بترك الشحّ، فقال -سبحانه-: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (التغابن: ١٦).

وأثنى -سبحانه- على الأنصار ببعدهم عن الشُّحّ، قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

والاتِّصاف بالبخل والشحّ سببٌ لعسر حياة الإنسان، قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ

أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (الليل: ٥-١٠).

وقد بيَّن الله ﷻ أن البخل مما يدعو إليه الشيطان، قال -سبحانه-: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٨). وفسَّر بعض المفسرين الفحشاء في هذه الآية بالبخل، قال البغوي: «﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: بالبخل ومنع الزكاة، وقال الكلبي: كل الفحشاء في القرآن فهو الزنا إلا هذا» (تفسير البغوي ١/ ٣٣٣).

وقد كانت العرب تصف البخيل بالفاحش لسوء خُلق البخل عندهم، كما قال طرفة بن العبد:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

وحذّر ﷺ من الشّح؛ فهو نقيض الكرم، فكما أن الكرم من مقتضيات الإيمان، فالشُّحّ مما ينافي الإيمان، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجتمع الشُّح والإيمان في جوف رجل مسلم، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف رجل مسلم» (أخرجه أحمد ٩٦٩٣، والنسائي ٣١١٠).

الكرم الصادق:

ارتباط الكرم بالإيمان بالله واليوم الآخر يلزم منه أمر مهم، ألا وهو أن الدافع للكرم ينبغي أن يكون إرادة وجه الله ﷻ وثوابه -سبحانه-؛

فالكرم والشجاعة مما يمدح الناس به، ويُذمون بخلافه من الشُّح والجبن؛ فيتحلى بعضهم بالكرم بحثًا عن ثناء الناس، أو فرارًا من لومهم، لا سخاء نفس، وإرادة ما عند الله ﷻ.

وقد كان طائفة من كرم العرب قبل الإسلام على هذا النحو «وخلاصة القول: إن الكرم وإن شاع في المجتمع العربي القديم قبيل الإسلام إلا أنه ارتبط بمنافع دنيوية وغايات نفعية ومطامع ومكاسب مادية ليس الدين أو التدين واحدًا منها، وإنما حرص العربي على الكرم لحرصه على المجد، أو لحرصه على الحياة، فهو إما أن يبغي من وراء الكرم شهرة تحقِّق له المجد والسؤدد والسيادة والشرف في قومه؛ فيرتفع بذلك قدره، ويطير بالكرم ذكره؛ فتعلو مكانته، وتسمو منزلته، مما يؤهِّله للحكم في العشيرة، والزعامة في القبيلة، والشفاعة لدى الملوك والأمراء، وإما أن يطلب الحياة بطلب الكرم؛ لأنه يعيش حياة قاسية، إن لانت يومًا فهي عسيرة دومًا، وإن وجد القِرَى آنًا فلن يتيسر له أحيانًا» (الكرم والجود والسخاء ص ٢٦).

وفي عصرنا من ذلك نماذج ليست قليلة؛ يكرم الرجل ضيفه دفعًا للمذمة، ومنعًا لحديث الناس عنه، لا سخاء ورغبة فيما عند الله؛ فيصبح الضيف عبئًا ثقيلاً على صاحبه، وربما تحمَّل كثير من الناس الديون لأجل هذا النوع من التظاهر بالكرم، وإنما الكرم كرم النفس.

لم يُعْلِ الإسلام شأن الكرم ويجعله من خُلُق أهل الإيمان ليضيف عبئًا على الناس، أو يشقّ عليهم، إنما ليخرج الشُّحّ والتعلُّق بالدنيا من قلوبهم، ولتسود المحبة والأنس بين المؤمنين.

ولعل مما يُذْكِي هذا النمط ارتباط الكرم لدى الناس بالشكل أكثر من المضمون؛ ففي بعض البيئات لا يكرم الضيف من طعام المنزل، ولا تتحقق الكرامة إلا بأن يذبح له شاة، وأن يكون ذلك على هيئة ذات دلالة رمزية، وما سواه تقصير في حق الضيف وبُخْل وشُحّ.

هذه عادات فيها الحسن والقبيح، وليست من الشرع في شيء، ولا هي بمعيار للكرم الذي دعَت إليه الشريعة وأثنت على أهله.

وأسوأ من ذلك تطلُّع الضيف لهذا النوع وتشوُّفه له، ولوم مضيفه حين لا يقابله بمثل هذه الكرامة.

الكرم سخاء للنفس، وتقدير للضيف، وخُلُق يبعث على الودّ والمحبة الصادقة، وليس أشكالاً ومظاهر كما يراه البعض، ولا مفاخرة وبطرًا، ولا إسرافًا وتبديدًا للمال.

والصالحون والمصلحون هم أولى مَن يسعى لكَسْر هذه العادات المثقلة لكواهل الناس، والتي حوَّلت الكرم إلى تفاخر وبغي، أو عبء على ذوي الحاجة ومحدودي الدخل.

ولا يتمثَّل الكرم في جانبه المادّي المتمثل بتقديم الطعام والضيافة، بل طلاقة الوجه، وسخاء النفس من أهم ما يقدِّمه المضيف لضيفه كما قال الحليمي:

أُضاحِك ضيفي قبل إنزال رَحْله ... ويخصبُ عندي والمحل جديبُ

وما الخصب للأضياف أن يَكثُر القِرَى ... ولكنما وَجْهُ الكريم خصيبُ

لذا فليس من الكرم المحمود ما يقوم به بعض الناس من إحراج



الضيف والإلحاح عليه، فربما ضيَّق عليه وقته، أو كدَّر عليه راحته، أو أخَّره عن سفره، فهذا لعمر الله عقوبة وتعزير لا إكرام وحسن ضيافة، فما أسوأ أن يأتي الضيف مكرهًا، يدفعه لتلبية الدعوة الحرج، ويحسب الدقائق والثواني لينصرف من مضيفه.

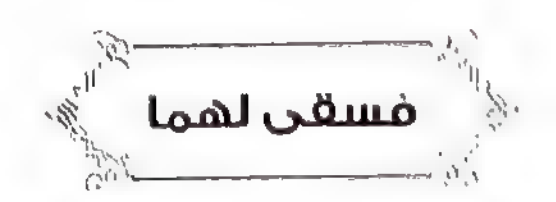
ومن أسوأ ما يُنْسَب للكرم وليس منه: إكرام الضيف ودعوته طلبًا لمصلحة شخصية، وتحصيلاً لجاه لديه، ورغبة في جاهه أو ماله، ونحو ذلك.

إن تأسيس مقاصد الأخلاق الحسنة في الإسلام، وتجليتها وتعليمها الناس يزيل كثيرًا من المفاهيم الخاطئة التي ارتبطت بها، وأساس كلّ خُلُق فاضل: صدق التخلُّق، والانطلاق به على السجية دون تكلف، وإرادة الإحسان للناس ونفعهم، لا ثناءهم ومدحهم.

وبهذا تحسن أخلاق الناس وتصلح أمورهم، وليس الاعتناء بهذا الجوانب في البناء الخلقي بأقل أهمية من الحديث المرسَل عن الأخلاق وأبوابها وفضائلها دون التعمُّق في هذه المعاني التي هي جوهرها وأساسها.







فسقى لهما

خرج موسى عليه السلام من أرض مصر خائفًا يترقَّب حتى حطَّت به الرحال عند ماء مدين؛ حيث الماء كان مركز حياة الناس وتجمعهم.

وعند الماء رأى موسى ما لا يليق بالرجال؛ فالناس يسقون، وامرأتان من خلفهم تذودان ماشيتهما، وكان حقهما التقديم لتنصرفا.

بادَر موسى عليه السلام واتَّجه للمرأتين سائلاً إياهما عن حاجتهما قائلاً: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾، ولم ينتظر طلبهما وسؤالهما المساعدة.

قد يمنع الحياء والخجل الشخصَ عن عرض حاجته والاستعانة بالآخرين، وقد يخنقه جوّ المشكلة فلا يرى بوادر للحل، وقد لا يلمس فيمن أمامه القدرة على حَلّ مشكلته، وهنا تأتي أهمية المبادرة بالإحسان للآخرين وحل مشكلاتهم.

وقد كان صاحب الخُلُق العظيم محمد ﷺ قدوة في تلمُّس حاجات الناس ومشكلاتهم، والمبادرة بحلِّها دون أن يُحوجهم لطلب المساعدة.

أدرك ﷺ حاجةَ صاحبه أبي هريرة رضي الله عنه للطعام دون أن يُحْوِجَه للسؤال؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ألله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشُدُّ الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرَّ أبو بكر،



فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمرَّ ولم يفعل، ثم مرَّ بي عمر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمرَّ فلم يفعل، ثم مرَّ بي أبو القاسم ﷺ، فتبسم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: «يا أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الحَق» ومضى فتبعته، فدخل، فاستأذن، فأذن لي، فدخل، فوجد لبنًا في قدح، فقال: «من أين هذا اللبن؟» قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: «أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: « الحَق إلى أهل الصفة فادعهم لي»..... (أخرجه البخاري ٦٤٥٢).

وحين قدم فقراء مُضَر فَطِنَ ﷺ لحالهم وحاجتهم، فبادَر بدعوة الناس للصدقة، فخطب الناس وقال في خطبته: «تصدَّق رجلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرّه، من صاع تمره»، حتى قال: «ولو بشقّ تمرة». (أخرجه مسلم ١٠١٧).

وحين قدم أبو ذر ﷺ إلى مكة، تفطَّن علي ﷺ لحاجته، فبادَر باستضافته.(أخرجه مسلم ٢٤٧٤).

في المبادرة بقضاء حاجات الناس وإعانتهم دلالة على صدق التخلق، وتمكّن محبة الخير للناس في القلب، وفيها صون لكرامتهم، وبُعد عن إلجائهم للسؤال.

لم ينشغل بخوفه:

خرج موسى عليه السلام كما وصفه ربه -تبارك وتعالى- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ (القصص:٢١).

وقد لمس والد الفتاتين هذا الأمر عند موسى عليه السلام، فبدأ بطمأنته؛ فقد كان موسى في حاجة إلى الطعام والشراب، لكن الحاجة الأبلغ كانت حاجته إلى الأمن، لذا كان أول ما قال له الشيخ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ إذ لا سلطان لفرعون وملئه على أرض مدين.

الخوف يشلُّ تفكير صاحبه، ويشغله بنفسه، ويستولي عليه السؤال: إلى أين؟ ومتى؟ وكيف؟

لكن خُلُق موسى العظيم، غلَب خوفه وتوجُّسه، فلم يشغله عن رعاية حاجة الناس، وإعانتهم في مشكلاتهم.

في مواقف الراحة والسعة قد يسهل على كثير من الناس الإحسان والعطاء، أما مواقف الانشغال الذهني والنفسي فلا يحسن فيها إلا مَن ترسخ لديه الخُلق ولم يكن استجابة لعاطفة طارئة.

السفر قطعة من العذاب:

لم يكن خروج موسى عليه السلام من مصر وَفْق تخطيط وإعداد مسبق، ولم يأخذ للأمر أُهبته، كان فيها كغيره من الناس، فجاءه الرجل على عَجَل ناصحًا ومحذِّرًا قائلاً: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (القصص:٢٠).

ليس في الوقت فُسحة للاستعداد والتهيؤ، أو تجهيز المتاع، أو إعداد راحلة، بل المبادرة بالخروج، والاختفاء عن أعين الملأ المتآمرين على قتله.

والمسافر آنذاك رهين زاده ومتاعه؛ فهو لا يحمل بطاقة مصرفية، ولا يستعين بمن يحوِّل له ما يحتاج، وليس ثمة فنادق يأوي إليها.

خرج موسى عليه السلام من مصر، وجاوز سيناء إلى أرض مدين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سار موسى من مصر إلى مدين، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا فما وصل مدين حتى سقطت نعل قدمه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لتُرَى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة» (تفسير ابن كثير ٦/ ٢٢٧).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «حثثت على جمل لي ليلتين حتى صبحت مدين، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى، فإذا شجرة خضراء ترف، فأهوى إليها جملي وكان جائعًا، فأخذها جملي، فعالجها ساعة، ثم لفظها، فدعوت الله لموسى عليه السلام، ثم انصرفت» (أخرجه ابن جرير ١٨/ ٢١٥).

لم يكن يعرفهما:

يحسن كثيرٌ من الناس لمن يعرفونه بدافع المودة الشخصية، وربما حرّكت بعضَهم الرغبةُ في رد الإحسان، أو حفّزهم للإحسان خوفُ الملامة والذم.

أحسن موسى للفتاتين وهو لا يعرفهما، ولا مَن تكونان، ولم يعرِّفهما بنفسه، أو يطلب منهما جزاءً ولا شكورًا، قال ابن عاشور: «وكان فعل موسى معروفًا محضًا لا يطلب عليه جزاءً لأنه لا يعرف المرأتين ولا بيتهما، وكان فعل شعيب[1] كرمًا محضًا ومحبة لقِرَى كلِّ غريب، وتضييف الغريب من سُنَّة إبراهيم فلا غرو أن يعمل بها رجلان من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ» (التحرير والتنوير ٢٠/ ١٠٤).

وأورد البغوي هذا الحوار بينه وبين والد المرأتين: «فلما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء مهيَّأ، فقال: اجلس يا شاب فتعشَّ، فقال موسى: أعوذ بالله، فقال شعيب: ولِمَ ذاك ألست بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضًا لما سقيت لهما، وإنا من أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضًا من الدنيا، فقال له شعيب: لا والله يا شاب، ولكنها عادتي وعادة آبائي، نقري الضيف، ونطعم الطعام، فجلس موسى وأكل» (تفسير البغوي ٦/ ٢٠٢).

والأمر ليس قاصرًا على عدم معرفته بالمرأتين؛ فالذين يسقون لا يعرفون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا من يكون، إنه لا يريد جزاءً ولا شكورًا ممن قضى حاجتهن، ولا ثناء وذكرًا حسنًا ممن رأوا الموقف، ولولا أن الله عَزَّ وَجَلَّ ذكر لنا هذا الموقف لم نعرفه.

إن الأخلاق ليست استثناء من العمل الصالح؛ فالخُلُق الحقيقي ما

---

(١) القول بأن الرجل الصالح الذي لقيه موسى هو نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ محل خلاف بين المفسرين.

كان صادقًا، يمارسه صاحبه بعفوية وصدق، يُرَاد به وجه الله وحده، لا ردّ الجميل من الناس ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان: ٩).

أهل الفضل والعناية بحوائج الناس:

كان خاتم الأنبياء محمد ﷺ حتى قبل نبوّته من أكثر الناس اعتناء بقضاء حوائج الخلق، كما وصفته خديجة رضي الله عنها في حديث بدء الوحي: « كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ» (أخرجه البخاري ٣، ومسلم ١٦٠).

وكان لأهل العلم والفضل من أصحاب النبي ﷺ، فمن بعدهم قصب السبق في العناية بحوائج الناس.

وكانوا يعدون ذلك مما لا يستوجب الشكر، عن أبي حفص الأبار عن أبيه قال: «كان لي عند ابن شبرمة حاجة فقضاها، فأتيته أشكره فقال: على أي شيء تشكرني؟ قلتُ: قضيتَ لي حاجة، فقال: اذهب، إذا سألت صديقك حاجة يقدر على قضائها فلم يبذل نفسه وماله فتوضأ للصلاة، وكبر عليه أربعًا، وعُدَّه في الموتى». (تاريخ دمشق ٣٤/ ٣٠٧).

وكانوا يرون احتياج الناس إليهم نعمة من الله ﷻ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ثلاثة لا أكافئهم: رجل وسَّع لي في المجلس؛ لا أقدر أن أكافئه ولو خرجت له من جميع ما أملك، والثاني مَن اغبرت قدماه بالاختلاف إليَّ؛ فإني لا أقدر أن أكافئه ولو قطرت له من دمي، والثالث لا أقدر أكافئه حتى يكافئه رب العالمين عني، من أنزل بي الحاجة لم يجد لها موضعًا غيري» (شعب الإيمان ١٣/ ٣١١).

وقال فيض بن إسحاق: كنت عند الفضيل بن عياض، فجاء رجل فسأله حاجة فألحَّ بالسؤال عليه، فقلت: لا تؤذي الشيخ؛ فزجرني الفضيل وصاح عليَّ، وقال لي: «يا فيض، أما علمت أن حوائج الناس إليكم نِعَم مِن الله عليكم؟ فاحذروا أن تملوا النعم؛ فتحوّل نِقَمًا، ألا تحمد ربك أن جعلك موضعًا تُسْأل، ولم يجعلك موضعًا تَسأل». (تاريخ دمشق ٤٨/ ٤٣١).

وفي مقابل ذلك فَفَقْد صاحب الحاجة لدى أهل الجود مصيبة، قال حكيم بن حزام: «ما أصبحت وليس ببابي صاحب حاجة، إلا علمت أنها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها» (سير أعلام النبلاء ٣/ ٥١).

وربما خصَّ بعضهم ذوي الحاجة من أهل الفضل والعلم بمزيد رعاية، كان أبو حنيفة يبعث بالبضائع إلى بغداد، فيشتري بها الأمتعة ويحملها إلى الكوفة، ويجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة، فيشتري بها حوائج الأشياخ المحدِّثين، وأقواتهم وكسوتهم وجميع حوائجهم، ثُمَّ يدفع باقي الدنانير من الأرباح إليهم، فيقول: «أنفقوا في حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله، فإني ما أعطيتكم من مالي شيئًا، ولكن من فضل الله عَليَّ فيكم، وهذه أرباح بضائعكم، فإنه هو والله مما يجريه الله لكم على يدي، فما في رزق الله حولٌ لغيره». (تاريخ بغداد ١٥/ ٤٨٧).

ولم يكن سخاء أبي حنفية واعتناؤه بقضاء حوائج الناس قاصرًا على أهل الصلاح، فقد روى أبو بلال الأشعري عن أبي يوسف قال: كان لأبي حنيفة جارٌ وكان يشرب في الحانة ثم يرجع بالليل يتغنَّى، ويقول:

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

قال: فرجع ذات ليلة فأخذه الطائف فحبسه؛ ففقد أبو حنيفة صوته فسأل عنه، فقيل له: حبَسه الطائف، فتكلم فيه أبو حنيفة حتى أُطْلِقَ، ثم قال له: يا فتى، رأيتنا أضعناك؟ (اخبار أبي حنيفة وأصحابه، ص ٥١).

إن من حكمة الله ﷻ في خلقه أن فضَّل بعضهم على بعض في الرزق، وفاوت بينهم في الدنيا في المال والجاه والمكانة، قال -سبحانه-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (الأنعام:١٦٥).

وهذا له أثره في الابتلاء والامتحان، وفي احتياج الناس بعضهم لبعض، وهو نعمة من الله يمنُّها على عباده لتتحقق لبعضهم نعمة الصبر، ولغيرهم نعمة الشكر، وليُفتح باب لأهل الخلق في الإحسان والبذل والعطاء.

وليس قضاء الحاجة قاصرًا على مباشرة ذلك؛ فقد لا يكون الشخص صاحب مال أو قدرة، فيشرع له حينها الشفاعة لدى مَن يملك ذلك، وقد بيَّن الله ﷻ عِظَم أجر الشفاعة الحسنة، فقال -سبحانه-: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ (النساء:٨٥).

وكان ﷺ يحثّ أصحابه على الشفاعة لصاحب الحاجة؛ فعن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه ﷺ، قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طُلِبَتْ إليه حاجة قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء» (أخرجه البخاري ١٤٣٢، ومسلم ٢٦٢٧).





إنه كان عبدًا شكورًا

وصف الله ﷻ أول رسله إلى أهل الأرض عبدَه ونبيَّه نوحًا عليه السلام بالشكور فقال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء:٣).

قال ابن جرير: «وقد اختلف أهل التأويل في السبب الذي سمَّاه الله من أجله شكورًا، فقال بعضهم: سمَّاه الله بذلك؛ لأنه كان يحمد الله على طعامه إذا طعمه، وروى بإسناده عن سلمان، قال: كان نوح إذا لبس ثوبًا أو أكل طعامًا حمد الله، فسمِّيَ عبدًا شكورًا»، وساق طائفة من أقوال السلف في ذلك. (تفسير ابن جرير ١٧/ ٣٥٥).

وما لم يرد نص قطعي في تحديد شكر نوح عليه السلام فاللفظ القرآني باقٍ على عمومه، وبخاصة أنه جاء في صيغة المبالغة (شكورًا).

وقد جاء وصف نوح عليه السلام بهذا الوصف في سياق الحديث عن ذرية من أنجاهم الله معه؛ فهي دعوة لهم لأن يقتدوا به، قال الزمخشري: «فإن قلت: قوله إنه كان عبدًا شكورًا ما وجه ملاءمته لما قبله؟ قلت: كأنه قيل: لا تتخذوا من دوني وكيلاً، ولا تشركوا بي؛ لأنّ نوحًا عليه السلام كان عبدًا شكورًا، وأنتم ذرية مَن آمن به وحمل معه، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أُسوتهم. ويجوز أن يكون تعليلاً لاختصاصهم والثناء

عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح، فهم متَّصِلُون به، فاستأهلوا لذلك الاختصاص، ويجوز أن يقال ذلك عند ذكره على سبيل الاستطراد» (الكشاف ٢/ ٦٤٨).

وقال السعدي: «ففيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك، والحثّ لذريته أن يقتدوا به في شكره، ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم؛ إذ أبقاهم واستخلفهم في الأرض وأغرق غيرهم». (تفسير السعدي ص٤٥٣).

وجاء في حديث الشفاعة: «فيأتون نوحًا، فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا» (أخرجه البخاري ٣٣٤٠، ومسلم ١٩٤).

وكما وصف الله عز وجل عبده نوحًا بأنه من الشاكرين، وصف خليله إبراهيم بذلك، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (النحل: ١٢٠-١٢١).

وأمر الله عز وجل نبيه موسى عليه السلام بشكره تعالى فقال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٤).

وأمر تعالى نبيه ﷺ بذلك فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٦).

لقد وصف الله ﷻ بعض رسله وأنبيائه بالشكر، ودعا بعضهم إلى أن يكونوا من الشاكرين، وهم أئمة الشكر والأسوة في تحققه.

وجاء على لسان نبي الله سليمان جعل الشكر نقيضًا للكفر فقال حين أنعم الله عليه بعرش بلقيس: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل:٤٠).

يتحقق لسليمان عليه السلام هذا الإنجاز العظيم؛ فيأتيه عرش بلقيس إلى مكانه قبل أن يرتد إليه طرفه، لكنه عليه السلام لا يفاخر بما أنجز وحقَّق، ولا يباهي بما فاق فيه غيره، فيعد الإنجاز نعمة من الله ﷻ تستوجب الشكر ونسبة الفضل له تعالى.

وفي الحديث عن لقمان، ونعمة الله ﷻ عليه؛ جعل الله الشكر في مقابل الكفر ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (لقمان:١٢).

وأقسم الشيطان أن يجتهد في منع بني آدم من الشكر؛ ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٦-١٧).

والشكر مما يَمنع عذاب الله ﷻ: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء:١٤٧).

وهو من أسباب استحقاق مِنَّة الله ﷻ على عباده: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (الأنعام:٥٣).

قال ابن القيِّم رحمه الله: «ومن منازل {إياك نعبد وإياك نستعين} منزلة الشكر، وهي من أعلى المنازل، وهي فوق منزلة الرضا وزيادة؛ فالرضا مندرج في الشكر؛ إذ يستحيل وجود الشكر بدونه. وهو نصف الإيمان -كما تقدم-، والإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر.

وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصَفَ به خواصَّ خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سببًا للمزيد من فضله، وحارسًا وحافظًا لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتقَّ لهم اسمًا من أسمائه؛ فإنه -سبحانه- هو الشكور، وهو يوصِّل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكورًا، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده» (مدارج السالكين ٢/ ٢٣٢).

وكان ﷺ يجتهد في العبادة ليحقِّق هذا المعنى، فعن عائشة ﵂: أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا» (أخرجه البخاري ٤٨٣٧، ومسلم ٢٨١٩).

والحديث عن الشكر يضيق عنه المقام، وليس هذا مقام استيفاء ذلك، إنما المقصود الإشارة إلى عظم منزلته، مما يدلّ على عِظَم حاجتنا إلى الاجتهاد في التخلُّق به، وقد أمر ﷺ معاذ بن جبل ﵁ أن يسأل الله ﷿ الإعانة على الشكر، فقال له «أوصيك يا معاذ! لا تدعنَّ في دُبُر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنِّي على ذِكْرِك وشُكْرِك وحُسْن عبادتك» **(أخرجه أحمد ٢٢١١٩، وأبو داود ١٥٢٢، والنسائي ١٣٠٣).**

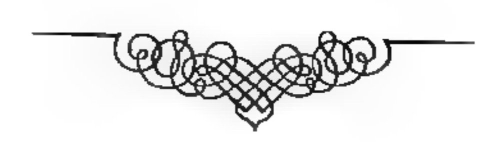
قال ابن القيِّم عن منزلة الشكر: «ويا عجبًا! أيُّ مقام أرفع من الشكر الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان، حتى المحبة والرضا، والتوكل وغيرها؟ فإن الشكر لا يصح إلا بعد حصولها. وتالله ليس لخواص أولياء الله، وأهل القرب منه سبيل أرفع من الشكر ولا أعلى» (مدارج السالكين ٢/ ٢٣٩).

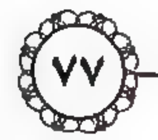
إن من يختزلون الشكر في عبارات يردِّدها الإنسان بلسانه، وربما صاحَب ذلك نوعٌ من الاستحضار الباهت لها، إن هؤلاء لا يدركون حقيقة الشكر الذي أراد الله ﷻ من عباده.

وحقيقة الشكر في العبودية كما يقول ابن القيِّم: «ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه: شهودًا ومحبةً، وعلى جوارحه: انقيادًا وطاعة» (مدارج السالكين ٢/ ٢٣٤).

وقال رحمه الله: «والشكر مبني على خمس قواعد؛ خضوع الشاكر للمشكور، وحبّه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يَستعملها فيما يكره. فهذه الخمس: هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة: اختلَّ من قواعد الشكر قاعدة، وكل من تكلم في الشكر وحده، فكلامه إليها يرجع، وعليها يدور» (مدارج السالكين ٢/ ٢٣٤).

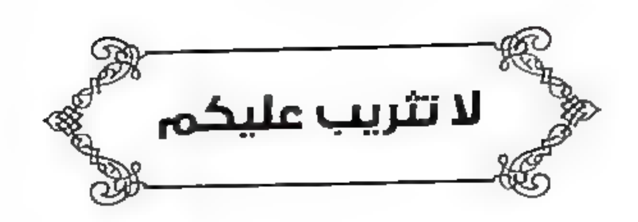
والسؤال الجادّ لأنفسنا: ما مدى تمثلنا لهذا الخلق العظيم؟! جعلنا الله من عباده الشاكرين.







» لا تثريب عليكم
» إذ أخرجني من السجن
» ورفع أبويه على العرش
» فأسرّها يوسف في نفسه
» اجعلوا بضاعتهم في رحالهم
» يوسف أيها الصديق



لا تثريب عليكم

استأثر يوسف عليه السلام بحبِّ والده يعقوب، وهو الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم كما وصفه ﷺ، فترك ذلك أثرًا في نفوس إخوته، وتناجوا بينهم فقرروا ألا مكان لهم في قلب أبيهم إلا بالخلاص من يوسف بقتله، أو رميه في الجب.

خرجوا بيوسف عليه السلام ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾، فألقوه في الجب ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾، التقطته سيارة لم يعرفوا قدره ومنزلته ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ وعاش الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم مُسترقًّا، بعيدًا عن أهله ووالديه، وتعرَّض للفتن والإغواء، حتى دخل السجن، ثم أكرمه الله وخرج منه عزيزًا مكرَّمًا.

مكَّنه الله -تعالى-، وجعله على خزائن الأرض، فأتاه إخوته محتاجين إلى عونه ومساعدته، ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، وكان من شأنهم ما كان، حينها اعترفوا بخطيئتهم، قائلين له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

هاهنا تبرز أمامه نتيجة ما فعله إخوته به؛ حرمانه من والديه سنين عدَّة، الرقّ والغربة، والسجن، والفتنة والإغواء، لكنه ينسى ذلك كله

ويتجاهله، ويبادرهم بالعفو قائلاً: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وهكذا ينهي عليه السلام القضية، ويغلق الملف، ويطوي صفحة الماضي.

فلن يعيِّرهم عليه السلام، ولن يُفسد ذلك ما بينه وبينهم من المودة، قال ابن قتيبة في معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾: «لا تعْيير عليكم بعد هذا اليوم بما صنعتُم، وأصل التَّثْريب: الإفسادُ، يقال: ثَرَّب علينا؛ إذا أفسد. وفي الحديث: «إذا زَنَتْ أَمَةُ أحدكم: فليجلدها الحدَّ، ولا يُثَرِّبْ». أي: لا يُعَيِّرْها بالزنا» (غريب القرآن ص ٢٢٢).

قال ابن جرير في تفسير الآية: «لا تغيير عليكم ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة، ولكن لكم عندي الصفح والعفو» (تفسير ابن جرير ١٣/ ٣٣٠).

عفو عند المقدرة:

عفا يوسف عليه السلام وهو في غاية القدرة ، قد مكَّن الله له في الأرض، وإخوته في غاية الحاجة والضعف، وهنا تكمن قيمة العفو.

إن التنازل الصادق من الضعيف المغلوب عن حقه وهو عاجز عن تحصيله فضيلة، لكن تنازل القوي القادر أعلى وأسمى، وأعظم دلالة على علوّ خُلُق صاحبه.

وقد كان عفو صاحب الخُلُق العظيم ﷺ نموذجًا يُحتذَى؛ فقد عفا عن الذي اخترط عليه السيف ورفعه عليه يريد قتله بعد أن تمكَّن منه،

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرَّق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرَة وعلق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: «إن هذا اخترط عليَّ سيفي، وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله، - ثلاثًا -» ولم يعاقبه وجلس. (أخرجه البخاري ٢٩١٠، ومسلم ٨٤٣).

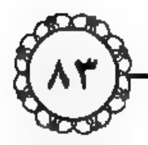
ويتجلى تمام عفوه ﷺ مع أهل مكة الذين آذوه، وأخرجوه من بلاده، ووقفوا في وجه دعوته، وعذَّبوا مَن آمن به، وقاتلوه وحاربوه، حتى أدموا جسده الشريف ﷺ، وقتلوا عمه، وطائفة من خيرة أصحابه، وحين نصره الله ومكَّنه فدخل مكة فاتحًا؛ بادرهم بالعفو والمن ﷺ.

عفو مع عظم الخطيئة:

الهفوة العابرة، والخطأ غير المقصود أمر يعفو عنه معظم الناس، ويكفيهم مجرد الإشارة بالاعتذار، وما يحصل في الأماكن العامة من دفع واحتكاك شاهدٌ على هذا.

أما حين تعظم الخطيئة، وتكبر الزلة فحينها يحضر الشيطان، ويحتج من يطالب بالعفو بأن الأمر لا يحتمل؛ فالخطأ مقصود، والإساءة متعمَّدَة، ونتائج الخطأ وآثاره لازالت حاضرة.

لقد عظّم الله أجر العفو، وجعله سببًا لمغفرة الله -سبحانه-



واستحقاق عفوه ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ (النور:٢٢).

وهذه الآية نزلت في شأن أبي بكر ﷺ في حادثة الإفك، كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك الطويل: «فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه-: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد ما قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه» (أخرجه البخاري ٢٦٦١).

لم يكن ما قيل في الإفك بالشأن الهيِّن، ولا باليسير على بيت النبوة، زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر الصديق، ولا بالأمر الذي يحتمله مثل أبي بكر ﷺ، وحين عُوقِبَ في ذلك مَن استحقَّ العقوبة أمر الله ﷻ بالعفو والصفح.

قال ابن كثير: «فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأُقِيمَ الحدّ على مَن أُقِيمَ عليه، شرع تبارك وتعالى -وله الفضل والمنة- يعطِّف الصدِّيق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر، ﷺ، وكان من

المهاجرين في سبيل الله، وقد وَلَق وَلْقَة تاب الله عليه منها، وضرب الحد عليها، وكان الصديق ﷺ معروفًا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب. فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تَغفر عن المذنب إليك نَغفر لك، وكما تَصفح نَصفح عنك. فعند ذلك قال الصِّدِّيق: بلى، والله إنا نحب -يا ربنا- أن تغفر لنا. ثم رجع إلى مِسْطح ما كان يَصِله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا، فلهذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه وعن بنته» (تفسير ابن كثير ٦/ ٣١).

وذكر السعدي في فوائد هذه الآية: «والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم» (تفسير السعدي ص٥٦٣).

وفي سورة الشورى حين ذكر الله ﷻ من صفات المؤمنين الانتصار عند البغي عقَّب ذلك ببيان أجر العفو، فقال -سبحانه-: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الشورى: ٤٠)، ويكفي في الحثّ على العفو أن جعل -سبحانه- أجر من يعفو عليه ﷻ، هكذا جاء الأجر مبهمًا، فلك أن تتصوَّر عِظَم هذا الأجر الذي جعله الكريم -تعالى وتقدَّس- على نفسه.

وبيَّن بعد ذلك أنه لا سبيل على المنتصر بعد ظلمه، ولما كانت النفوس كثيرًا ما تتجاوز حقها؛ حذَّر من ذلك ﷻ، فقال -سبحانه-: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ

بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(الشورى:٤١-٤٢).

وكم رأينا في الواقع مَن ظُلِمَ فقاده الانتصار لنفسه إلى البغي والتجاوز؛ فلم يَقِف عند حدّ الانتصار.

إنَّ مَن يقع عليه الظلم قد يستولي على تفكيره أنه مظلوم، ولا ينظر لمن ظلمه إلا بعين الخطيئة والظلم؛ فتسترسل نفسه في الانتقام، ويغفل عن كبح جماحها، وضبط تصرفاتها؛ فالظالم بشر يخطئ كما يخطئ غيره، وكما وقع في الظلم، فله من الخير والمحاسن ما لغيره.

ومن هنا جاء التعقيب بالحثّ على العفو، والتنازل عن حظّ النفس، وبيان أنه من العزائم، فقال -سبحانه-: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(الشورى:٤٣)، «وقد اشتمل هذا الخبر على أربعة مؤكدات هي: اللام، وإن، ولام الابتداء، والوصف بالمصدر في قوله: (عزم الأمور) تنويهًا بمضمونه، وزِيدَ تنويهًا باسم الإشارة في قوله: (إن ذلك)، فصار فيه خمسة اهتمامات». (التحرير والتنوير ٢٥/ ١٢٢).

والجدير بحَمَلة العلم والدعوة، والمتصدين للإصلاح أن يأخذوا أنفسهم بالعزائم، وأن يجاهدوها في التخلِّي عن حظوظها؛ فيتحلوا بالعفو والصفح، حتى ولو نالهم الظلم في سبيل الدعوة وحمل الرسالة.

وليحذروا من كيد الشيطان في تهوين شأن العفو، وتعزيز الانتصار

للنفس، أمام العدو الذي لا يستحق أن يُعْفَى عنه كما يقال، فقد أمر الله ﷻ المؤمنين بالعفو عن أهل الكتاب -وهم أكفر وأشد عداوة من كثير ممن يعادون المصلحين اليوم- وجاء ذلك في سياق الحديث عن جهدهم في إضلال المؤمنين، قال -سبحانه-: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٠٩).

وأمر الله ﷻ نبيه ﷺ بالعفو عن أهل الكتاب رغم نقضهم الميثاق، وإصرارهم على الخيانة، فقال ﷻ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:١٣).

وحين كان العفو بهذه المنزلة فلن يستحقه إلا مَن ضحَّى وصبر، ونفسه تدعوه إلى الانتصار، وتحمُّل الأذى العظيم لله ﷻ.

وهكذا سائر الأخلاق إنما تبرز قيمتها في المواقف التي يتجلَّى فيها الصدق والصبر والتضحية؛ فالحلم قد يسهل في حال الخطأ العارض، لكنَّ حِلْم الكبار إنما يكون حين يبلغ الغضب منتهاه، وهذا ما بيَّنه أحلم الخلق ﷺ لأصحابه، فقد سألهم: «ما الصرعة؟» قالوا: الصريع، قال:

فقال رسول الله ﷺ: «الصرعة كل الصرعة، الصرعة كل الصرعة، الرجل يغضب فيشتد غضبه، ويحمر وجهه، ويقشعر شعره، فيصرع غضبه» (أخرجه أحمد ٢٣١١٥).

ومثله العفة؛ فامتناع الشخص عن الحرام ممدوح، لكنَّ أجره يعظم حين يقوى دافع الحرام؛ فيصرع الإنسان شهوته، لذا كان من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله» (أخرجه البخاري ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١)؛ فالمرأة ذات جمالٍ يُغْرِي بها مَن ينظر إليها، كيف وهي أيضًا ذات منصب، كيف وقد دعته إلى نفسها؟

لباقة وذائقة عالية:

تجلَّى تمام العفو، والأدب في مقام يوسف عليه السلام حين حدَّث والده وإخوته عما جرى، لقد طوَى صفحة الماضي، وتحدَّث عن فضل الله عز وجل ومنَّته عليه وإحسانه، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف: ١٠٠).

ثمَّة فئة من الناس يذكِّرون مَن يعفون عنه بتفاصيل خطئه، إن ما فعلته ليس يسيرًا ولا سهلاً، إنه خطيئة متعمَّدة، مثنِّين بوصف معاناتهم، وما

تركته الخطيئة من آثار وندوب، وما فوَّتت من فُرَص، ويختمون ذلك بالعفو، مما يجرح مشاعر المخطئ، ويشعره بالمنة والتفضل.

ولقد تجلَّى في عفوه عَلَيْهِ السَّلَامُ تمام اللباقة، ومراعاة مشاعر إخوته كما سيأتي في المبحث التالي.

وقال أبو عمران الجوني: «أما والله ما سمعنا بعفو قط مثل عفو يوسف، قال: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (يوسف:٩٢)» (أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١٩٥).



إذ أخرجني من السجن

حين جمع الله ﷻ شمل يوسف بأبويه وإخوته ذكَّرهم بنعمة الله ﷻ عليه، وعلى أهله، قال -سبحانه-: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(يوسف: ١٠٠).

ويتجلَّى في حديث يوسف عليه السلام الأدبُ مع أهله وإخوته، وحسنُ التعبير، واللباقة في الحديث، ويتمثَّل ذلك فيما يلي:

أولاً: أنه ذكر إحسان الله ﷻ له بالخروج من السجن لا من الجبّ فقال: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ «ولم يقل من الجبّ، مع كونه أشد بلاءً من السجن، استعمالاً للكرم، لكيلا يُخجل إخوته بعدما قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾» (تفسير البغوي ٤/ ٢٨٠).

وذكر السعدي نحوًا من ذلك فقال: «حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجُبّ؛ لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إليَّ» (تفسير السعدي ص ٤٠٥).

ثانيًا: تلطُّفه في وَصْف حالهم، بقوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾، «فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب» (تفسير السعدي ص٤٠٥).

ثالثًا: أنه جعل إحسان الله ﷻ عائدًا إليه لا إليهم، فلم يقل: «أحسن بكم: بل قال: ﴿أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ جعل الإحسان عائدًا إليه، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب» (تفسير السعدي ص ٤٠٥).

رابعًا: تلطَّف عليه السلام غاية التلطف حين وصف ما كان بينه وبين إخوته؛ فنسب فعل إخوته للشيطان، وجعل الأمر بينهم قائلاً: ﴿نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾؛ «فلم يقل «نزغ الشيطان إخوتي»، بل كأن الذنب والجهل، صدر من الطرفين؛ فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة». (تفسير السعدي ص٤٠٥).

خامسًا: أنه حين ذكر نزغ الشيطان بينه وبين إخوته بدأ بنفسه قبل إخوته.

سادسًا: أنه: «أشار إلى مصائبه السابقة من الإبقاء في الجبّ، ومشاهدة مكر إخوته به بقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾، فكلمة (بعد) اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثره، وقد ألَمَّ به إجمالاً اقتصارًا على شكر النعمة، وإعراضًا عن التذكير بتلك الحوادث المكدِّرَة للصلة بينه وبين إخوته، فمَرَّ بها مَرّ الكرام، وباعدها عنهم بقدر الإمكان؛ إذ ناطها بنزغ الشيطان» (تفسير ابن عاشور ١٣/ ٥٧).

المقام هنا مختلف؛ فيوسف عليه السلام في موقف المنتصِر المتمكِن؛ فهو على العرش وإخوته في موقف الضعيف المعترِف بخطئه الذي يرجو الصفح والعفو.

التزم يوسف عليه السلام غاية الأدب معهم، فتحدَّث عن نعمة الله عليه بالنجاة من السجن لا الجبّ، وجعل ما صدَر منهم مما نزغه الشيطان بينهم كما سبق بيانه.

تتجلَّى أخلاق الكبار في موقف التمكُّن وضعف الطرف الآخر، تناسَى يوسف عليه السلام ما جرى منهم معه وهو صغير عاجز، وحيلولتهم بينه وبين أبويه، وتسبّبهم في غربته ورقِّه في بيت العزيز، وما قادته إليه تلك الغربة وما فيها من اللبث في السجن، تناسى ذلك كله، وتحاشى الحديث عنه، والتزم فيما تحدث عنه الأدب واللباقة مع إخوته.

تحلّي الإنسان باللباقة مع من هو أرفع مقامًا وأعلى قدرًا خُلُق حَسَن، لكنه قد يتأثر بدافع الحياء والاحتشام مع مَن هو أكبر، أو رجاء مصلحة، أو لدفع أذية، أما التحلِّي باللباقة مع من هو دونه وأقل منه مقامًا؛ فهو إنما يصدر عن من طاب معدنه وارتقى خُلُقه.

القول الحسن اللطيف من أهم أمارات حُسُن خُلُق صاحبه، ومن دلائل تقديره للآخرين وتوقيره لهم، وقد كان من أدب خاتم الأنبياء محمد ﷺ، فهو يتأدب حتى مع أزواجه في موقف الحوار والتقرير بالخطأ، قال -سبحانه-: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (التحريم:٣)؛ فلم يستقصِ ﷺ، ويذكر كافَّة التفاصيل، بل اكتفى بالبعض وأعرض عن سائر ما جرى.

وكان ﷺ متحليًا بطيب الحديث وحُسْن الكلام حتى مع أعدائه، بل وهم في موقف سوء الأدب مع مقامه الكريم ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها: أن يهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم. قال: «مهلا يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش»، قالت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: «أولم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم، فيُستجاب لي فيهم، ولا يُستجاب لهم فيَّ» (أخرجه البخاري ٦٠٣٠، ومسلم ٢١٦٥).

وفي رواية لأحمد (٢٥٠٢٩) عن عائشة، قالت: بينا أنا عند النبي ﷺ؛ إذ استأذن رجل من اليهود، فأذن له، فقال: السام عليك، فقال النبي ﷺ: «وعليك»، قالت: فهممت أن أتكلم، قالت: ثم دخل الثانية، فقال مثل ذلك، فقال النبي ﷺ: «وعليك» قالت: ثم دخل الثالثة، فقال: السام عليك، قالت: فقلت: بل السام عليكم وغضب الله إخوان القردة والخنازير، أتحيّون رسول الله ﷺ بما لم يحيه به الله؟ قالت: فنظر إليَّ، فقال: «مه، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، قالوا قولاً، فرددناه عليهم، فلم يضرَّنا شيء، ولزمهم إلى يوم القيامة....».

وتكرر الموقف مع يهودي آخر، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه جاء رجل من أهل الكتاب فسلَّم على النبي ﷺ ، فقال: السام عليكم، فقال عمر: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: «لا إذا سلموا عليكم فقولوا: وعليكم» (أخرجه أحمد ١٣١٩٣).

وكان ﷺ حَسَن المنطق طيِّب الحديث مع أهل السوء؛ فعن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: «بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة» فلما جلس تطلَّق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، متى عهدتني فحَّاشًا؛ إن شرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتِّقاء شرّه» (أخرجه البخاري ٦٠٣٢).

لقد أمر الله عز وجل عباده بحسن القول فقال: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (الإسراء: ٥٣).

بل إن الله عز وجل أخذ الميثاق على بني إسرائيل بحسن القول للناس، وقرنه بالصلاة والزكاة، فقال -سبحانه-: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (البقرة: ٨٣).

وقول التي هي أحسن يعمُّ كل مجالات القول الحسن، قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيِّه محمد ﷺ: وقل يا محمد لعبادي يَقُل بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة» (تفسير الطبري ١٧/٤٦٩).

وخرّج بإسناده عن الحسن قوله: «التي هي أحسن: لا يقول له مثل قوله، يقول له: يرحمك الله، يغفر الله لك» (تفسير الطبري ١٧/ ٤٦٩).

ويأمر -سبحانه- بالقول الحسن في ردّ التحية، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٨٦).

والقول الحسن ليس مأمورًا به لمن نرى أنه يستحقّه فحسب، بل أمر الله ﷻ به في مقابل الإساءة، قال -سبحانه-: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)، وقال ﷻ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٦)، «قال ابن بطال: طيب الكلام من جليل عمل البرّ لقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾» (فتح الباري ١٠/ ٤٤٨).

وأثنى -تبارك وتعالى- على مَن يقابلون السيئة بالحسنة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٢).

ويأمر به ﷻ مع أهل الجهل، قال ﷻ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

وأمر خير الخلق وأحسنهم حديثًا بطيب الكلام، وأخبر ﷺ أن الكلمة الطيبة بمنزلة الصدقة، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة

صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة» (أخرجه البخاري ٢٩٨٩).

حُسْن القول يتضمَّن تعويد اللسان على القول الحسن عمومًا، وأن يكون القول الحسن والكلمة الطيبة شعار الإنسان في كل أحواله.

وهو يتضمَّن اللباقة في الحديث، واختيار ما يناسب المقام، وقد كان ﷺ يُعْنَى بهذا الأمر؛ فيغيِّر الأسماء القبيحة والمستهجَنة إلى أسماء حسنة، ويحب اللفظ الحسن ويتفاءل به.

وأولى ما ينبغي أن يراعى فيه الأدب والذوق في التعبير ما كان متصلاً بمقام الله ﷻ.

قال إبراهيم عليه السلام في حديثه عن مقام الله ﷻ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ (الشعراء: ٧٨-٨٢)؛ فأضاف الإطعام والسقيا والموت والحياة والمغفرة إلى الله ﷻ، بينما أضاف المرض لنفسه، قال ابن عطية: «كما تأدَّب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند المرض إلى لنفسه، إذ هو معنى نقص ومصيبة، وهذا المنزع يطَّرِد في فصاحة القرآن كثيرًا، ألا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وتقديم فعل الله تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾» (تفسير ابن عطية ٣/ ٥٣٧).

وحين كشف الخضر لموسى عليه السلام أسباب ما عمله مما استنكره



موسى عليه السلام تأدَّب في التعبير واللفظ، فقال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف: ٧٩). قال ابن عطية: «وجاء في أنباء الخضر عليه السلام في أول قصة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وفي الثانية: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾، وفي الثالثة ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ﴾، وإنما انفرد أولاً في الإرادة؛ لأنها لفظة عيب، فتأدَّب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه» (تفسير ابن عطية ٣/ ٥٣٧)، مع أنه في نهاية الأمر قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ إلا أنه أسنده إلى نفسه ما أسند كمالاً في الأدب مع الله.

وهكذا قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (الجن: ١٠)، قال ابن كثير: «وهذا من أدبهم في العبارة؛ حيث أسندوا الشرّ إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عز وجل. وقد ورد في الصحيح: «والشر ليس إليك»» (تفسير ابن كثير ٨/ ٢٤٠).

وكان أصحاب النبي ﷺ نموذجًا في الذوق في الألفاظ، أخرج ابن أبي شيبة بإسناده (٣٣٩٢١) إلى ابن رزين أنه قال: قيل للعباس: أنت أكبر أم النبي ﷺ؟ فقال: «هو أكبر مني وأنا وُلِدْتُ قبله».

وقال عبد الملك بن مروان لقباث بن أشيم الكناني رضي الله عنه: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: «رسول الله أكبر مني وأنا أسنّ منه، وُلِدَ رسول الله ﷺ عام الفيل، وتنبأ على رأس أربعين من الفيل» (الآحاد والمثاني لابن عاصم ٩٢٧).

ويضرب سعد بن معاذ ﷺ مثلا بليغًا في اللباقة والأدب في التعبير عن مقام النبي ﷺ؛ فقد جاء في رواية ابن إسحاق لقصة تحكيم سعد ﷺ في بني قريظة: فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» فأما المهاجرون من قريش، فيقولون: إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار، وأما الأنصار، فيقولون: قد عمَّ بها رسولُ الله ﷺ، فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم، وعلى مَن ها هنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتُقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء... (السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩-٢٤٠).

وكان علماء السلف يُراعون هذا الخُلق والأدب في حديثهم عن من يرونه أجلّ منهم؛ فقد قيل لأبي وائل: أنت أكبر أو ربيع بن خثيم؟ قال: «أنا أكبر منه سنًّا وهو أكبر مني عقلاً» (أخرجه ابن أبي شيبة ٣٣٩٢٢).

ومما يقتضيه حُسن اللفظ والذوق في التعبير: البعد عما يُستقبح من الكلام، وفي اللغة مندوحة في التكنية، وسعة في البدائل يصل معها المعنى دون الإخلال بالذوق، أو خدش حياء من يستمع أو يقرأ.

وكان خير الخلق محمد ﷺ نموذجًا في تعليم أصحابه، وبُعده عن التصريح بما يستحيا منه، فهو يقول ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال:



باسم الله، اللهم جنِّبنا الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقتنا، فقُضِيَ بينهما وَلَد لم يضرَّه» (أخرجه البخاري ١٤١، ومسلم ١٤٣٤).

كما يتأكد هذا الأدب في الحديث عن النساء، أو معهن، حتى في تعليم الأحكام الشرعية، وقد كان ﷺ يراعي ذلك في تعليمه للنساء، فعن عائشة ﵂، أن امرأة سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض، فأمرها كيف تغتسل، قال: «خذي فِرْصَةً من مِسْك، فتَطَهَّرِي بها» قالت: كيف أتطهَّر؟ قال: «تَطَهَّرِي بها» ، قالت: كيف؟، قال: «سبحان الله، تَطَهَّرِي» فاجتبذتها إليَّ، فقلت: تتَبَّعِي بها أَثَر الدم. (أخرجه البخاري ٣١٤، ومسلم ٣٣٢).

قال الغزالي: «فهذه مذمة الفحش، فأما حدُّه وحقيقته: فهو التعبير عن الأمور المستقبَحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به؛ فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها، بل يُكنُّون عنها، ويدلون عليها بالرموز؛ فيذكرون ما يقربها ويتعلق بها، وقال ابن عباس: «إن الله حي كريم يعفو ويُكَنِّي؛ كنَّى باللمس عن الجماع»؛ فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة، وهناك عبارات فاحشة يُستقبح ذكرها، ويُستعمل أكثرها في الشتم والتعيير، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش، وبعضها أفحش من بعض، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد، وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة، وبينهما درجات يتردد فيها، وليس يختص هذا بالوقاع، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط

أولى من لفظ التغوط والخراء وغيرهما؛ فإن هذا أيضًا ما يخفى، وكل ما يخفى يستحيا منه، فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة؛ فإنه فحش» (إحياء علوم الدين ٣/ ١٢٢).

ومن صور ذلك البعد عن الألفاظ الفاحشة المستهجنَة، وقد ذمَّها ﷺ، ونفَّر منها، وبيَّن أنها ليست من خُلُق المسلم، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطَّعَّان ولا اللَّعَّان ولا الفاحش ولا البذيء» (أخرجه الترمذي ١٩٧٧).

بل أخبر ﷺ أن الله ﷻ يبغض أصحاب هذا الخُلُق؛ فعن أبي الدّرداء ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حَسَن، وإنّ الله ليبغض الفاحش البذيء» (الترمذي ٢٠٠٢).

وعدَّ ﷺ بذاءة اللسان من صفات المنافقين؛ فعن أبي أمامة الباهليّ ﷺ أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء والعيّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من شعب النّفاق» (أخرجه الحاكم ١/ ٩).

وكان ﷺ يربِّي أصحابه على سلامة اللسان، والبعد عن السباب، فحين قال له أبو جري جابر بن سليم ﷺ: اعهد إليَّ، قال: «لا تَسُبَّنَّ أحدًا» قال: فما سببت بعده حرًّا، ولا عبدًا، ولا بعيرًا، ولا شاة، قال: «ولا تحقرنَّ شيئًا من المعروف، وأن تُكَلِّم أخاك وأنت مُنْبَسِط إليه وجهك، إن ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن

امرؤ شتمك وعيَّرك بما يعلم فيك، فلا تُعَيِّره بما تعلم فيه، فإنما وبالُ ذلك عليه» (أخرجه أبو داود ٤٠٨٤).

وفي رواية أحمد (٢٠٦٣٥) أنَّ جابرًا ﷺ وصف نفسه بالجفاء، فقلت: يا رسول الله، إني من أهل البادية، وفيَّ جفاؤهم فأوصني.

وفي رواية لأحمد (١٥٩٥٥) جعل له ﷺ ضابطًا يَزِن فيه ما يقوله للناس مما لا يقوله: «وما سَرّ أُذنك أن تسمعه فاعمل به، وما ساء أذنك أن تسمعه فاجتنبه».

وتتابع الصالحون من سلف الأمة وأئمتها على ذمّ الفحش، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «إنَّ أبغض النّاس إلى الله كلُّ طعَّان لعَّان».

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «ألأم شيء في المؤمن الفُحْش» .

ورأى أبو الدّرداء ﷺ امرأة سليطة اللّسان، فقال: «لو كانت هذه خرساء، كان خيرًا لها».

وقال الأحنف بن قيس: «ألا أخبركم بأدوأ الدّاء: اللّسان البذيء، والخُلُق الدّنيء».

وقال الماوردي: «ومن آدابه: أن يجتنب أمثال العامة الغوغاء، ويتخصَّص بأمثال العلماء الأدباء؛ فإنَّ لكل صنف من الناس أمثالاً تشاكلهم، فلا تجد لساقط إلا مثلاً ساقطًا وتشبيهًا مستقبحًا، وللسُّقَّاط أمثال» (أدب الدنيا والدين ص ٢٨٤).

وقال: «ومن آدابه: أن يتجافى هُجْر القول ومستقبَح الكلام، وليعدل إلى الكناية عما يُستقبح صريحه ويُستهجن فصيحه؛ ليبلغ الغرض،

ولسانه نَزِهٌ وأدبه مَصُونٌ» (أدب الدنيا والدين ص ٢٨٤).

ويدعو الماوردي إلى الحسّ المرهف، والحذر من إلف لغة بعض المجالس، والاسترسال في استخدامها دون مراعاة الموقف والسياق، فيقول: «وربما ألف المتخصص مثلاً عاميًا أو تشبيهًا ركيكًا؛ لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الأراذل فيسترسل في ضربه مثلاً فيصير به مثلاً، كالذي حُكي عن الأصمعي أن الرشيد سأله يومًا عن أنساب بعض العرب، فقال: على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين. فقال له الفضل بن الربيع: أسقط الله جنبيك، أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب؟ فكان الفضل بن الربيع، مع قلة علمه أعلم بما يُستعمل من الكلام في محاورة الخلفاء من الأصمعي الذي هو واحد عصره وقريع دهره» (أدب الدنيا والدين ص ٢٨٤).

ولئن كان الحديث عن فُحْش اللسان وبذاءة المنطق يجدر أن يكون مُوَجَّهًا لعامة الناس، ومَن لم يبلغوا منزلة أعلى في سُلَّم محاسن الخلق، إلا أنَّ الصالحين وأهل العلم والدعوة بحاجة أيضًا لهذا التذكير.

فمحاسن الأخلاق مراتب، منها ما يليق بالعامة، ومنها ما يليق بالخاصة؛ فالصالحون والدعاة قدوة للناس، ومحطّ أنظارهم، واللغة -مكتوبة أو منطوقة- هي وسيلة إيصال الدعوة والتعليم والفتوى للآخرين، ومن ثَمَّ فهي أحد أهم مرايا حُسْن الخُلُق.

يحتاج الداعية إلى مزيد مِن ضَبْط لسانه، ولباقة التعبير؛ ففي إنكار المنكر، أو الرد على المخالف قد ينظر الغيور إلى الخطأ الذي قد يكون

مستفزًّا، وقد يبلغ قدرًا من السوء وربما الوقاحة.

إنه هنا بحاجة إلى استحضار حُسْن المنطق، والبعد عن الفحش، وألا يكتفي بإيمانه بصدق موقفه عن مراعاة حُسْن الخُلُق في التعبير عنه.

وفي الحديث عن المشكلات الاجتماعية، أو الأخطاء السلوكية دخول في دوائر ذات حساسية، تحتاج إلى ارتقاء في التعبير والحديث.

بعض الدعاة والخطباء ربما أسرَف في وصف مظاهر الفساد والانحراف، بما يؤذي السامع، ويُخْرِج عن حَدّ الوقار، وربما وصَل لدائرة الفحش والبذاء، وليس هذا من خُلُق الأنبياء.

حين نحتاج لوصف الواقع، أو انتقاد بعض المظاهر فلسنا بحاجة إلى الإسفاف، ولدى المتحدث خيارات عدة يمكن أن تُوَصِّل رسالته.

وفي الحديث عن أخطاء الناس وتصويبها يحتاج الداعية والواعظ إلى أن يتحلَّى بقَدْرٍ عالٍ من اللباقة، في وصف الأخطاء، أو لغة التعبير عنها.

كان الناس في عهد رسول الله ﷺ أصحاب مهنة وعمل، ويأتون إلى المسجد وبعضهم قد يؤذي غيره برائحته؛ فلم يحدثهم ﷺ عن وصف هذه الحالة، إنما عبر ﷺ بلغة راقية توصل المطلوب دون أن تجرح مشاعر الناس.

سأل يحيى بن سعيد عمرة عن الغسل يوم الجمعة، فقالت: قالت عائشة رضي الله عنها: «كان الناس مهنة أنفسهم، وكانوا إذا راحوا إلى الجمعة، راحوا في هيئتهم فقيل لهم: لو اغتسلتم» (أخرجه البخاري ٩٠٣، ومسلم ٨٤٧).

وفي رواية مسلم: «كان الناس يتتابون الجمعة من منازلهم من العوالي، فيأتون في العباء، ويصيبهم الغبار، فتخرج منهم الريح».

ومن المهم الوعي بأن صحَّة ما نقول، وحُسْن نوايانا لا يعني سلامة تعبيرنا عنه، فيؤكد الماوردي على مراعاة هذا المعنى، فيقول «ومما يجري مجرى فُحْش القول وهُجْره في وجوب اجتنابه، ولزوم تنكُّبه، ما كان شنيع البديهة مستنكَر الظاهر، وإن كان عقب التأمل سليمًا، وبعد الكشف والروية مستقيمًا» (أدب الدنيا والدين ص ٢٨٤).







ورفع أبويه على العرش

حين جمع الله ﷻ شمل يعقوب وأهل بيته بيوسف عليه السلام، أحسن وِفَادتهم واستقبالهم، ورَفَع أبويه على العرش، يقول تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف: ١٠٠).

يوسف عليه السلام قد مكّنه الله ﷻ، وهو صاحب الأمر والنهي، وحين أتاه أهله أكرمهم بما يليق بهم، وما يليق بخُلُقه الرفيع عليه السلام.

آوى إليه أبويه، وأشْعَرهم بالأمن والاطمئنان، ثم رفعهما على العرش فأجلسهما معه، وهكذا الكبار يعرفون قَدْر الكبير ويُوَقِّرُونه.

وكان سيِّد الخلق ﷺ قدوة في توقير الأكابر وإنزالهم منزلتهم، فقد أمَر بتقديمهم في مجلسه، وفي صفوف الصلاة، فعن أبي مسعود رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: «استووا، ولا تختلفوا، فتختلف قلوبكم، ليلني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، قال أبو مسعود: «فأنتم اليوم أشد اختلافًا» (أخرجه مسلم ٤٣٢).

قال النووي: «ولا يختص هذا التقديم بالصلاة، بل السنة أن يُقَدَّم أهل الفضل في كل مجمع إلى الإمام، وكبير المجلس، كمجالس العلم، والقضاء، والذكر، والمشاورة، ومواقف القتال، وإمامة الصلاة، والتدريس، والإفتاء، وإسماع الحديث، ونحوها، ويكون الناس فيها على مراتبهم في العلم والدين والعقل، والشرف والسن، والكفاءة في ذلك الباب، والأحاديث الصحيحة متعاضدة على ذلك» (شرح صحيح مسلم ٤/ ١٥٥).

ويأتي على رأس الأكابر الوالدان فلهما حق الوالدين ومنزلتهما، ولهما كل ما يليق بالتعامل مع الأكابر.

ومن الأكابر كبير السن؛ فهو داخل في عموم الأكابر، وقد جاء النص على اعتبار تقديم الأسن، وحين تقدم أصغر القوم بالحديث أمره ﷺ أن يقدم الأكبر، فعن سهل بن أبي حثمة، قال: انطلق عبد الله بن سهل، ومحيصة بن مسعود بن زيد، إلى خيبر وهي يومئذ صلح، فتفرقا فأتى محيصة إلى عبد الله بن سهل وهو يتشحط في دمه قتيلاً، فدفنه ثم قدم المدينة، فانطلق عبد الرحمن بن سهل، ومحيصة، وحويصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ، فذهب عبدالرحمن يتكلم، فقال: «كَبِّر كَبِّر» وهو أحدث القوم، فسكت فتكلما. (أخرجه البخاري ٣١٧٣، ومسلم ١٦٦٩).

ودعا ﷺ إلى إكرام ذي الشيبة المسلم؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِن إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المسلم،

وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط» (أخرجه أبو داود ٤٨٤٣).

وأكرم ﷺ شيبة أبي قحافة والد أبي بكر رضي الله عنهما، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة، ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟ قال أبو بكر، يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت. فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: أَسْلِمْ، فأَسْلَمَ، قالت: فدخل به أبو بكر وكأن رأسه ثغامة، فقال رسول الله ﷺ: غَيِّرُوا هذا مِن شعره... (أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٤٠٦ وعنه أحمد ٢٦٩٥٦).

ومنهم ذو السلطان المتَّصف بالعدل والقسط كما سبق في حديث أبي موسى.

ومنهم صاحب المكانة والجاه في قومه، وقد كان ﷺ يعتني بهؤلاء، وينزلهم منزلتهم.

وأحوج الناس إلى العناية بتقديم الأكابر هم مَن يتصدَّى للدعوة والتعليم ونحو ذلك؛ فإن هؤلاء يَحْظَوْنَ بتقدير الآخرين، ويقدمونهم، وكثيرًا ما يلتقون الأكابر في المناشط والمجالس والمناسبات، فيجدر بهم أن يُعْنَوْا بتقديرهم وإجلالهم، وأن يُنْزِلُوهم منزلتهم.

ولا يليق بشابّ منتسب للعلم والدعوة أن يتقدم الكبار في المجلس، والدخول والانصراف، ولا أن يتعامل معهم كسائر الناس، وليس من

مكارم الأخلاق ولا معالي المروءة أن ينسى مَن حوله، ويغفل عن رعاية مقام مَن يستحق التوقير والإجلال.

حين يسأل أحدهم، أو يبدي رأيه فلا يليق أن يجيبه كما يجيب سائر الناس، فضلاً عن أن ينسى حدود اللباقة وحسن التصرُّف.

وحين يتحدث الكبير فحقُّه أن يُصغي له، ويظهر الاهتمام بما يقوله؛ فيسأله، أو يطلب منه مزيدًا من التفصيل، أو يظهر استفادته واغتباطه بما سمعه، أو يسأله عما يحسنه.

وقد يبدر مِن بعضهم اعتراضٌ، أو وجهة نظر مخالفة، فحقُّه حُسْن الاستماع، والحوار، وليس المرء مضطرًّا أن يقول رأيه في كل صغيرة وكبيرة، ولا أن يُبْدِي اعتراضه على كلِّ ما يختلف فيه مع الآخرين.

وقد كان السلف يرعون قَدْر كبارهم حين يختلفون، فها هو عمر بن الخطاب ﷺ يعرف لأبي بكر ﷺ قَدْره ومكانته، فيقول وهو يحكي اختيار قصة الصحابة لخليفة رسول الله ﷺ: «وكنت قد زوَّرْتُ مقالةً أعجبتني أريد أن أقدِّمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحَدِّ، فلما أردتُ أن أتكلم، قال أبو بكر: على رِسْلَك، فكرهت أن أُغْضِبه، فتكلَّم أبو بكر فكان هو أحلم مِنِّي وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري، إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت» (أخرجه البخاري ٦٨٣٠).

وعن ثابت البناني أن أبا برزة كان يلبس الصوف، فقال له رجل: إن



أخاك عائذ بن عمرو يلبس الخز، وهو يرغب عن لباسك، قال: ويحك ومن مثل عائذ؟ ليس مثله، ثم أتى عائذًا، فقال: إن أخاك أبا برزة يلبس الصوف، وهو يرغب عن لباسك، قال: ويحك ومن مثل أبي برزة؟ ليس مثله، فمات أحدهما فأوصى أن يصلِّي عليه الآخر (الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٢٩٩-٣٠٠).

وجاء في وصية قيس بن عاصم السعدي ﷺ لأبنائه عند موته: «وسوِّدُوا أكابركم، فإنكم إذا سوَّدْتم أكابركم لم يزل لأبيكم فيكم خليفة، وإذا سوَّدْتُم أصاغركم هان أكابركم على الناس» (أخرجه البخاري في الأدب المفرد الأدب المفرد ٩٥٣).

وسئل ابن المبارك بحضور سفيان بن عيينة عن مسألة، فقال: «إنا نُهِينَا أن نتكلم عند أكابرنا». (سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٢٠).

ومن توقير الأكابر: تأدُّب الشباب مع كبار أهل العلم والدعوة، وتقدير مكانتهم، وعدم التقدُّم بين يديهم، وقد كان طائفة من أئمة الصحابة والسلف يمتنعون عن التحديث بين يدي الأكابر؛ إجلالاً لهم، عن أبي المنهال، قال: سألت البراء بن عازب، وزيد بن أرقم ﷺ عن الصرف، فكل واحد منهما يقول: هذا خير مني، فكلاهما يقول: «نهى رسول الله ﷺ عن بيع الذهب بالورق دَيْنًا» (أخرجه البخاري ٢١٨٠، ومسلم ١٥٨٩)، ولفظ مسلم: «سألت البراء بن عازب عن الصرف، فقال: سل زيد بن أرقم، فهو أعلم، فسألت زيدًا، فقال: سل البراء، فإنه أعلم».

وقال سمرة بن جندب ﷺ: لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلامًا، فكنت أحفظ عنه، فما يمنعني من القول إلا أن ها هنا رجالاً هم أسنّ مني، وقد «صليت وراء رسول الله ﷺ على امرأة ماتت في نفاسها، فقام عليها رسول الله ﷺ في الصلاة وسطها» (أخرجه مسلم ٩٦٤).

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يقول: يا سعيد، اخرج بنا إلى النخل، ويقول: يا سعيد حدِّث قلت: أحدث وأنت شاهد؟ قال: إن أخطأت فتحت عليك. (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١٨٢٦).

وحضر ابن المبارك عند حماد بن زيد مُسَلِّمًا عليه، فقال أصحاب الحديث لحماد بن زيد: يا أبا إسماعيل، تسأل أبا عبد الرحمن يحدثنا؟ فقال لي: يا أبا عبد الرحمن حدثهم، فقلت: سبحان الله يا أبا إسماعيل أحدث وأنت حاضر؟ قال: أقسمت لتفعلن -أو نحوه- فقال ابن المبارك: خذوا: أخبرنا أبو إسماعيل حماد بن زيد، فما حدث بحرف إلا عن حماد -يعني في ذلك المجلس أدبًا-، وعقب على ذلك القاضي عياض بقوله: «وناهيك من فعل حماد أيضًا، ومن أدب الحاضرين في رغبتهم لحماد» (الإلماع للقاضي عياض. ص ٢٣٠).

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: كان يحيى بن سعيد يجالس ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فإذا غاب ربيعة حدثهم يحيى أحسن الحديث، وكان يحيى بن سعيد كثير الحديث، فإذا حضر ربيعة كفَّ يحيى؛ إجلالاً لربيعة، وليس ربيعة بأسنّ منه، وهو فيما هو فيه، وكان كل واحد منهما مُجِلًّا لصاحبه. (تاريخ بغداد ٩/ ٤١٤).



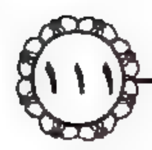
وربما شدَّد بعضهم في ذلك، قال أبو إسحاق الجوزجاني: سمعت يحيى بن معين يقول: الذي يحدِّث ببلد به من هو أولى بالتحديث منه أحمق، وإذا رأيتني أحدِّث ببلد فيها مثل أبي مسهر، فينبغي للحيتي أن تُحْلَق. (سير أعلام النبلاء١٠/ ٢٣٠-٢٣١).

وعن ليث قال: كنت أمشي مع طلحة، فقال: «لو كنت أعلم أنك أكبر مني بليلة ما تقدمتك» (ابن الجعد في مسنده).

ولما ولي زياد العراق صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إني قد رأيت خلالاً ثلاثًا، نبذت إليكم فيهن النصيحة: رأيت إعظام ذوي الشرف، وإجلال أهل العلم، وتوقير ذوي الأسنان، وإني أعاهد الله عهدًا، لا يأتيني شريف بوضيع لم يعرف له حق شرفه إلا عاقبته، ولا يأتيني كهل بحدث لم يعرف له حق فضل سنّه على حداثته إلا عاقبته، ولا يأتيني عَالِمٌ بجاهِلٍ لاَحَاهُ في عِلْمِه لِيُهَجِّنَهُ عليه إلا عاقبته؛ فإنما الناس بأشرافهم، وعلمائهم، وذوي أسنانهم" (مكارم الأخلاق ٣٥٩).

إن الشباب الذي يجفون في حق الكبار يؤتون في الأغلب من النظر لزاوية واحدة من الأمر؛ فهو يحدثك عن قول الحق والصدع به، وأن الحق أكبر من الرجال، وربما استرسل محذِّرًا من تقليد الرجال والسير وراءهم وتقديسهم.

ويحدثك عن الحرية ومنزلتها، والنقد وأهميته، فلا أحد أكبر من النقد، والناس مهما علا مقامهم بشر يخطئون ويصيبون.



وفي الواقع الدعوي والعمل صور من الإخلال بحق الكبير تتمثل في الصراع بين الجيل القديم وجيل الشباب؛ فكثيرًا ما ينتقد الشباب أشياخهم وأساتذتهم ممن سبقوهم في العلم والدعوة، والاختلاف بين الجيلين وارد؛ فالثقافة وطرق التفكير مختلفة، وزوايا النظر للأمور متباينة.

ولو وقف الأمر عند الخلاف العملي والفكري لكان ظاهرة صحية، لكنه كثيرًا ما يتجاوز ذلك؛ فلا يقف الأمر عند النقد وبيان الرأي، بل يصحبه التهوين من شأن الجيل السابق، والاستهانة بخبرته، وأن الزمان قد تجاوزه... إلخ.

وهب أن الصغار فاقوا الكبار، وأدركوا ما لم يدركوه؛ فهذا لا يوجب الاستهانة بقدرهم، والتهوين من منزلتهم، ولا يسقط حقهم وفضلهم.

كان شابًّا منهمكًا في طلب العلم، ذا ذهنية وقَّادة، لكنه استهوته هذه الروح، ناقشني يومًا منفعلاً عما أسماه التلبيس الذي كان يمارسه أهل العلم وقادة الدعوة، فقلت له: إنهم لا يَسْلمون من الخطأ، وليس لأحدٍ عصمة بعد رسول الله ﷺ، لكن التلبيس يعني أن يعرف الإنسان الحق فيتعمد مخالفته، وغاية ما كان يقوله أولئك أنه أمر يرونه حقًّا، وتراه أنت بخلاف ذلك.

وهي صورة مقابلة لتلك التي تغلو في الأشخاص، وتجعل من مخالفة اختيارهم ورأيهم طعنًا في الكبار.

فما أحوجنا لتأسيس الاعتدال، وتعزيز الأدب مع الكبار، والاحتفاظ بقَدْرهم ومقامهم، دون غُلُوّ ممقوت.

فأسرّها يوسف في نفسه

حين استخرج يوسف عليه السلام الصواع من وعاء أخيه، أشار إخوة يوسف إلى حادثة نسبوها ليوسف أيام طفولته؛ ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾(يوسف:٧٧).

وقد تعدَّدت المرويات في كتب التفسير في بيان ما يَعْنونه بسرقة يوسف، ولا يُجْزَم بشيء من ذلك لم يثبت به دليل من القرآن والسنة، ولا يترتب على ذلك كبير فائدة.

قال ابن جرير في معنى الآية: «معنى الكلام إذًا: فأسرَّها يوسف في نفسه ولم يُبْدِها لهم، قال: أنتم شرّ عند الله منزلاً ممن وصفتموه بأنه سرق، وأخبث مكانًا بما سلف من أفعالكم، والله عالم بكذبكم، وإن جهله كثيرٌ ممن حضرَ من الناس» (تفسير الطبري ١٦/ ٢٠٠).

اكتفى يوسف عليه السلام بأن يقول هذه الكلمة في نفسه، ولم يشأ إيذاءهم وجرح مشاعرهم بها، وهكذا الكبار لا يرون أن خطأ الطرف الآخر يبرر الاستمرار في لومه وتعنيفه.

وها هو محمد ﷺ يراعي مشاعر زوجته؛ فلا يسترسل في الحديث عن تفاصيل ما صنعت، قال -سبحانه- تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ

أَزْوَاجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (التحريم:٣).

ونقل جمع من المفسرين في تفسير هذه الآية قول سفيان: «ما زال التغافل من فعل الكرام» (تفسير الزمخشري ٤/ ٥٦٥).

وقال الحسن: «ما استقصى كريمٌ قط» (البحر المحيط ١٠/ ٢١٠).

والتغافل من خُلق الكبار والقادة، قال ابن الأثير عن صلاح الدين الأيوبي: «وكان رحمه الله كريمًا، حليمًا، حَسَن الأخلاق، متواضعًا، صبورًا على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يَسمع مِن أحدهم ما يكره ولا يُعْلِمه بذلك ولا يتغير عليه» (الكامل لابن الأثير ١٠/ ١١٨).

وهو لدى العقلاء من كمال العقل لا من الضعف والخور، قال معاوية ابن أبي سفيان ﷺ: «العقل: ثلثه فطنة، وثلثاه تغافل».

وقال زين الدين العراقي: «وفيه -أي: حديث سلام اليهود وردّ عائشة رضي الله عنها عليهم- استحباب تغافل أهل الفضل عن سَفَه المبطلين إذا لم يترتب عليه مفسدة وفي التنزيل: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٩٩)، وقال الشافعي -رحمه الله-: «الكَيِّس العاقل هو الفَطِن المتغافل».

وقال أبو زرعة العراقي: «عظِّموا مقاديركم بالتغافل، وهذا الكلام مما كان والدي -رحمه الله- يؤدبني به في مبدأ شبابي حين يرى غضبي من كلمات تَرِد عليَّ» (طرح التثريب ٨/ ١١١).

وكثيرٌ من الإِحَن والخلافات تُوَأد بالتغافل، قال الأعمش -رحمه الله-: «التغافل يُطفئ شرًّا كثيرًا».

ويعلي الإمام أحمد شأن التغافل ومنزلته بين محاسن الأخلاق، فيقول: «تسعة أعشار حُسْن الخُلُق في التغافل»؛ ففي التغافل يتحقّق الصبر، والحلم، والعفو، والأناة وكثيرٌ من مكارم الأخلاق.

وقال مؤيد الدولة:

إذا جرحت مساويهم فؤادي ... صبرت على الإساءة وانطويت

ورحت عليهم طلق المحيا ... كأني ما سمعت ولا رأيت

تجنَّوا لي ذنوبًا ما جنتها ... يداي ولا أمرت ولا نهيت

ولا والله ما أضمرت غدرًا ... كما قد أظهروه ولا نويت

ويوم الحشر موعدنا وتبدو ... صحيفة ما جنوه وما جنيت

التغافل فيه ذوق عالٍ ومراعاة لمشاعر الآخرين، وفيه إحساس بمعاناتهم وتأذيهم من بعض ما يسمعون، وحين يتمكَّن الإنسان من وضع نفسه موضع الآخرين، والتفكير بحالهم يتجنَّب كثيرًا مما يؤذيهم، ويتفهم انزعاجهم وردود أفعالهم.

نحتاج كثيرًا إلى التأسي بهذا الخلق النبوي الرفيع في ميدان النصيحة، وبالأخص فيمن هو قريب منا كولد أو زوج أو تلميذ؛ فالنصيحة وسيلة إصلاح وتقويم، وتسديد وتهذيب، وليست جلسة استجواب تبحث عن إدانة الآخر وإثبات جرمه.

ليس من اللائق الإصرار على الحديث عن التفاصيل الدقيقة، والتذكير بكل صغيرة وكبيرة، فهذا مما ينقل الطرف الآخر من دائرة الاستماع والاسترشاد إلى دائرة الدفاع وإثبات البراءة.

نحتاج التغافل حين نتحاور مع من اختلفنا معه، وبخاصة في ميدان الخصومات الشخصية؛ فالإغراق في التفاصيل الدقيقة، واجتهاد كل طرف في تعداد أخطاء صاحبه، وسَرْد هفواته يُوتِّر أجواء النقاش، ويقود الآخر إلى ممارسة الدور نفسه، فينتقل الطرفان من بيئة الحوار إلى الخصومة واللجج، وتضعف الثقة بينهما، ويجنح كلٌّ منهما إلى البحث عن مزيد من الهفوات تُعَزِّز موقفه، وإلى سوء الظن وتغليب التفسير السيئ.

ونحتاج لهذا الخُلق في محاسبة العامل والموظف تحت أيدينا؛ فنكتفي بالتلميح، أو التعريض، وحين نحتاج المصارحة نقدِّر مشاعره، ونُعْرِض عما لا ضرورة للحديث عنه.

وفي هذه المواقف يحتاج الطرف الآخر إلى إشعاره بقيمته واحترامه، وإحساسه بإنسانيته، وأنه لا يزال محل التقدير والاهتمام.

وحين يتعامل الإنسان مع مَن يملك هذا الإحساس، ويتحلَّى بهذا الخُلق، يغلبه الحياء، ويدفعه للتصحيح، ومحو الصورة السيئة، وهذا أحرى بالإصلاح والتغيير، وهو ما نسعى إليه ونهدف له.

ومما يعيننا على تهذيب أنفسنا بهذا الخُلُق: أن نضع أنفسنا موضع مَن يحتاجه؛ فنعامل الناس بما نحب أن يعاملونا به، ونجتنب ما نكره أن نراه منهم في حقنا.

ومما يعين أيضًا على ذلك: معرفة قَدْر النفس، واستحضار خطئها وقصورها؛ فالزوج الذي يلوم زوجته على التقصير لا يخلو هو من التقصير في حقها، والوالد الذي يلوم ولده على الخطأ لا يسلم هو من التقصير في تربيته إما بإهمال وتكاسل، أو ممارسة تربوية غير سوية، والمدير الذي يلوم موظفًا تحت سلطته لا يخلو هو الآخر من خَلَل وقصور في أدائه، لكن بعض الناس ينظر لتقصير الآخرين، ويتجاهل تقويم نفسه.

حين ننظر إلى قصورنا وخطئنا نستحضر ملازمة القصور للبشر، ونكفّ عن رسم الصور المثالية ومحاسبتهم في ضوئها.



اجعلوا بضاعتهم في رحالهم

حين جاء إخوة يوسف له فعرفهم وهم له منكرون، أمر بأن تُعاد لهم بضاعتهم في رِحالهم؛ إكرامًا لهم، قال -سبحانه-: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (يوسف:٦٢).

أخرج ابن جرير بإسناده إلى ابن إسحاق في معنى هذه الآية: «ثم أَمَر ببضاعتهم التي أعطاهم بها ما أعطاهم من الطعام، فجُعِلَتْ في رحالهم وهم لا يعلمون» (تفسير الطبري ١٦/ ١٥٧).

وفي سبب فِعْل يوسف عليه السلام ذلك قال ابن جرير: «فإن قال قائل: ولأيَّةِ علة أمر يوسف فتيانه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحالهم؟ قيل: يحتمل ذلك أوجهًا:

أحدها: أن يكون خَشي أن لا يكون عند أبيه دراهم؛ إذ كانت السَّنة سَنة جَدْب وقَحْط، فيُضِرُّ أخذ ذلك منهم به، وأحبّ أن يرجع إليه.

أو: أرادَ أن يتَّسع بها أبوه وإخوته، مع قلّة حاجتهم إليه، فردَّه عليهم من حيث لا يعلمون سبب ردّه، تكرمًا وتفضُّلاً» (تفسير الطبري ١٦/ ١٥٧).

وأوصل الرازي الأسباب في ذلك إلى عشرة، فقال: «ثم اختلفوا في السبب الذي لأجله أمر يوسف بوَضْع بضاعتهم في رحالهم على وجوه:

الأول: أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه، علموا أن ذلك كان كرمًا من يوسف وسخاءً محضًا فيبعثهم ذلك على العود إليه والحرص على معاملته.

الثاني: خاف أن لا يكون عند أبيه من الوَرِق ما يرجعون به مرة أخرى.

الثالث: أراد به التوسعة على أبيه؛ لأن الزمان كان زمان القحط.

الرابع: رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم.

الخامس: قال الفراء: إنهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو، وهم أنبياء وأولاد الأنبياء؛ فرجعوا ليعرفوا السبب فيه، أو رجعوا ليردُّوا المال إلى مالكه.

السادس: أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منَّة.

السابع: مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا لطلب زيادة في الثمن.

الثامن: أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم، وطلبه له لمزيد الإكرام فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه.

التاسع: أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق، فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى أبيهم.



العاشر: أراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغته في الإحسان إليهم» (مفاتيح الغيب ١٨/ ٤٧٩).

ولا سبيل للجزم بشيء من ذلك إلا بنصٍّ من الكتاب أو السنة.

وتدور هذه الأقوال والتعليلات في فعل يوسف عليه السلام على معنين:

الأول: الإحسان لوالده عليه السلام وأهله.

والثاني: اضطرار إخوته للعودة إليه، إما طمعًا في كرمه، أو لإعادة ما تركه لهم.

يوسف عليه السلام من عباد الله المحسنين، كما زكَّاه ربه عز وجل، وكما شهد له بذلك من ليسوا على دينه قائلين: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٣٦)، **والمقولة نفسها قالها عنه إخوته.**

وسبق الحديث عن إحسان يوسف عليه السلام، إلا أن هذا الإحسان نوع آخر، وصورة أخرى.

إنه إحسان في غاية اللطف واللباقة، إحسان دون مِنَّة ولا تكثر، والإحسان دون منَّة من أكبر الدلائل على صدق صاحبه، وعلى صفاء خُلُقه؛ فالإحسان من أكثر ما يرجى عود نفعه من الأخلاق، وقد يتخلق به مَن لا يريد وجه الله عز وجل، إنما همه الانتفاع من عائد إحسانه بإحسان من أحسن عليه بنفع مادي، أو ثناء وذكر حسن.

وفي موقف يوسف عليه السلام إحسان لوالده وأهله، وهم أولى الناس بحُسْن الخُلُق والبذل والإحسان، وقد جعل ﷺ الوالدين أحق الناس

بحسن المصاحبة والإحسان؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك» (أخرجه البخاري ٥٩٧١، ومسلم ٢٥٤٨).

وحسن الصحبة قد تكون بالمال والنفقة لمن هو محتاج، أو بقضاء الحوائج وتيسير الأمور، أو المؤانسة وحسن المجالسة، وهذا مما يغفل عنه كثير من الأخيار فضلاً عن من دونهم، فتراه لطيف المعشر مع رفاقه وأصدقائه، مجاملاً لهم، يؤنسهم بحديثه، ويُضحكهم بطرائفه، بينما هو مُتجهِّم مع والديه، يضع نفسه منزلة الخادم أو الموظف الذي ينتظر الأمر من مخدومه أو رئيسه فحسب.

وفي موقف يوسف عليه السلام إحسان لإخوته رغم ما فعلوه معه، وما تآمروا به عليه؛ فأدركته الشفقة عليهم، ورثى لحاجتهم فأحسن إليهم بإعادة متاعهم لهم في بضاعتهم، والإحسان لمن أساء إليه عليه السلام.

وربما يقوِّي القول بأن دافع يوسف عليه السلام من جعل البضاعة في الرحال هو الإحسان إليهم مقولتهم بعد أن وجدوها: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ (يوسف:٦٥)، وأنهم حين رجعوا إليه لم يعيدوا له البضاعة، بل سألوه إيفاء الكيل والصدقة عليهم.

وعلى التفسير الآخر -أن دافعه هو اضطرارهم للعودة-؛ فهو شاهد على حسن التصرف، وطول النفس والتأني؛ فهو عليه السلام لم يعاجلهم بإخبارهم بأمره، وأنه هو يوسف، وإنما أمهلهم ليعودوا مرة أخرى ومعهم أخوهم.

وحين عادوا إليه، وشكوا له حالهم قائلين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف:٨٨)؛ أشفق عليهم وأراد أن يخبرهم بالأمر فقال: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ (يوسف:٨٩).

قال ابن جرير: ذكر أن يوسف -صلوات الله عليه- لما قال له إخوته: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾، أدركته الرقّة وباح لهم بما كان يكتمهم من شأنه، كما حدثنا ابن حميد، قال، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام غلبته نفسه، فارفضَّ دمعه باكيًا، ثم باح لهم بالذي يكتم منهم، فقال: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾؟ ولم يَعْنِ بذكر أخيه ما صنعه هو فيه حين أخذه، ولكنْ للتفريق بينه وبين أخيه؛ إذ صنعوا بيوسف ما صنعوا» (تفسير الطبري ١٦/ ٢٤٣).

هكذا غلبت شفقة يوسف عليه السلام ورحمته، فأخبرهم بأمره، ولم ير إطالة معاناتهم، أو جعل الموقف فرصة لمزيد من أخذ حقه.



إن الكبار تغلب رحمتهم وشفقتهم انتقامهم، ويعلو صفحهم وعفوهم على أخذ الحق والانتصار للنفس.

الخلق الصادق أقوى على إلجام النفس، وأقدر على تهذيب دوافع الانتقام، وكلما صح الخلق، وسمت دوافعه ظهر أثره في تهذيب النفس والارتقاء بها، ولا يدرك ذلك من تأسرهم الأنانية، ويفكرون دومًا بما لهم وما عليهم من مكاسب عاجلة، ويمنحون مزيدًا من التركيز على أخطاء الآخرين وإساءاتهم.

لسنا بحاجة حتى تسمو أنفسنا إلى مزيد من الفلسفة، وإلى عمق معرفي وعلاقات منطقية؛ فيكفينا صِدْق التخلُّق، واستحضار مكانة حُسْن الخُلُق من الدين، ومنزلة أهله ممن زكَّاه ربه واصطفاه؛ فشهد له بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم:٤).

وحين نصدق في تمثُّل معالي الأخلاق، ومحاسن الفضائل دون البحث عن الجزاء والشكر من الناس، حينها نرقى إلى خُلُق الكبار.



يوسف أيها الصديق

حين عبّر يوسف عليه السلام الرؤيا لصاحبي السجن أمَر مَن ظنَّ خروجه أن يذكر أمره للملك، قال -سبحانه-: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف:٤٢).

وحين قصَّ الملك رؤياه على ملئه تذكر الرجل شأن يوسف عليه السلام؛ ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف:٤٥ -٤٦).

فلما جاء الفتى ليوسف عليه السلام يسأله عن تأويل الرؤيا لم يذكِّره يوسف عليه السلام بما أوصاه به، ولم يَلُمْه أو يعاتبه على نسيانه، بل عبر له الرؤيا، واكتفى بذلك.

تضرَّر يوسف عليه السلام بسبب نسيان الفتى، ولبثَ بضع سنين في السجن، والسبب في ذلك نسيان الفتى ما أوصاه به، وقد كان ليوسف عليه فضل كبير في تأويل الرؤيا، وتبشيره في الخروج من السجن، والعمل ضمن حاشية الملك، وهذا أمر كان يحبه ذلك الفتى.

من يضع نفسه في هذا الموضع وينظر إلى إحسانه، وإلى ما تسبَّب

به نسيان الفتى ما أوصي به، سيلومه ويعاتبه، لكنَّ يوسف عليه السلام صاحب الخُلق الرفيع تجاوز ذلك كله.

قال السعدي في فوائد قصة يوسف عليه السلام: «ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربّه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتيًا عن تلك الرؤيا، فلم يعنِّفه يوسف، ولا وبَّخه، لتركه ذِكْره، بل أجابه عن سؤاله جوابًا تامًّا من كل وجه» (تفسير السعدي، ص: ٤٠٧).

تعامل الإنسان مع من هو دونه، أو تحت مسؤوليته وولايته من ولد أو تلميذ أو خادم ونحوهم، من أهم مقاييس خلقه؛ فالأقران والأصدقاء نجاملهم ونشعر بالحرج تجاههم، ونحتاج إليهم.

أما حُسن خُلق الإنسان مع مَن هو دونه؛ فالأغلب أنه نابع من طيب السجية، والتواضع وإنكار الذات.

لا يسلم مَن هو تحت سلطان الإنسان وولايته من الخطأ والقصور، والغفلة والنسيان، وكثيرًا ما تؤدِّي هذه الأخطاء إلى فوات فُرَص ومصالح، أو تبعات غير مرغوبة، وهنا ينصرف التفكير عند كثير من الناس إلى نتيجة

الخطأ والتقصير، ويغفل عن من أمامه، فربما انهال عليه لومًا وتقريعًا، وربما صاحَبَ اللومَ أوصافٌ لا تليق، أو عباراتٌ مُهِينة، أو وَسْمٌ بالفشل وانعدام الفائدة من ورائه.

إن اللوم لن يعيد لنا ما كنا نأمله من مصالح، ولن يدفع نتائج الخطأ وآثاره، وغاية ما فيه صناعة التوتر في العلاقة، وتعكير الصلة، ناهيك عن غرس الإحباط واليأس وفقدان الثقة بالنفس.

لقد امتنَّ الله ﷻ على نبيه ﷺ باللين في تعامله مع أصحابه، وأخبر أن فقدانه مدعاة لتنافر القلوب، وانفضاض الصلة، وعقّب على ذلك -سبحانه- بأمره بالعفو والصفح، قال ﷻ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وكان صاحب الخُلق الرفيع ﷺ إمامًا وأُسوة في التعامل مع خادمه؛ فعن أنس بن مالك ﷺ، قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أُفٍّ قط، ولا قال لي لشيء: لِم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟»

(أخرجه البخاري ٦٠٣٨، ومسلم ٢٣٠٩، واللفظ له).

قال ابن حجر حول حديث أنس ﷺ: «ويُستفاد من هذا ترك العتاب على ما فات؛ لأن هناك مندوحة عنه باستئناف الأمر به إذا احتيج إليه، وفائدة تنزيه اللسان عن الزجر والذم، واستئلاف خاطر الخادم بترك

معاتبته، وكل ذلك في الأمور التي تتعلق بحظ الإنسان، وأما الأمور اللازمة شرعًا فلا يُتسامح فيها؛ لأنها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (فتح الباري ١٠/ ٤٦٠).

وفي رواية لأحمد (١٣٤١٨): «فما أمرني بأمر فتوانيت عنه، أو ضيّعته، فلامني، فإن لامَني أحدٌ من أهل بيته إلا قال: «دعوه، فلو قُدِّر -أو قال: لو قُضِيَ- أن يكون كان».

ومن التطفيف الخُلُقي أننا نلوم غيرنا حين يخطئ، بينما نعذر أنفسنا فيما قد يكون أكبر من ذلك، نحتجّ تارة بالطبيعة البشرية، أو النسيان الذي لا سلطان لنا عليه، أو الجهل بواقع الحال.

بل إننا نخفق في حالات عدة بسبب إهمالنا، أو تقصيرنا في بذل الجهد العملي أو الذهني، وحين يكون الإخفاق من غيرنا نتعامل مع الموقف بصورة مختلفة.

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبْصِر أحدكم القذاة في عين أخيه، وينسى الجذع في عينه» (أخرجه ابن حبان ٥٧٦١. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٩٢ موقوفًا).

وقد علَّق عليه المناوي -رحمه الله تعالى- بقوله: «كأن الإنسان لنقصه، وحبّ نفسه: يتوفر على تدقيق النظر في عيب أخيه فيدركه مع خفائه فيعمى به عن عيب في نفسه ظاهر لا خفاء له ! مَثَل ضُرِبَ لمن يرى الصغير من عيوب الناس ويُعيِّرهم به، وفيه من العيوب ما نِسْبته إليه كنسبة

الجذع إلى القذاة، وذلك من أقبح القبائح، وأفضح الفضائح» (فيض القدير ٦/٤٥٦).

وقد يقتضي الأمر التنبيه على الخطأ، وربما المحاسبة والعقوبة، لكن ذلك كله لا يعفينا من حُسْن الخُلُق، وطيب التعامل، فقد أمر ﷺ بمراعاة حال من وقع في موبقة من الموبقات، وأن يكتفى بالعقوبة الشرعية دون التثريب واللوم، عن أبي هريرة ﵁، قال: سمعت النبي ﷺ، يقول: «إذا زنت أمة أحدكم، فتبيَّن زناها، فليجلدها الحد، ولا يُثَرِّب عليها، ثم إن زنت فليجلدها الحد، ولا يُثَرِّب، ثم إن زنت الثالثة، فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر» (أخرجه البخاري ٢٢٣٤، ومسلم ١٧٠٣).

والجفاء مع الناس قد يكون عونًا للشيطان عليهم؛ فعن أبي هريرة ﵁ قال: أُتِيَ النبي ﷺ برجل قد شرب، قال: «اضربوه» قال أبو هريرة: فمنّا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه، فلما انصرف، قال بعض القوم: أخزاك الله، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان» (أخرجه البخاري ٦٧٧٧).





الصبر والعزيمة

- إنا وجدناه صابرًا
- رحم الله موسى
- ليس بي سفاهة
- أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين
- فكيدوني جميعًا
- لا يتبعني رجل

إنا وجدناه صابرًا

جاءت قصة أيوب عليه السلام في القرآن مرتين؛ الأولى في سورة الأنبياء، في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣ - ٨٤).

والثانية في سورة ص في قوله -سبحانه-: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤١ - ٤٤).

وخلاصة ما ورد في القرآن الكريم بشأن أيوب عليه السلام أنه ابتُلِيَ بالضُرّ والعذاب الدنيوي، وكان ذلك بمسٍّ من الشيطان، وأنه دعا ربه سبحانه وتعالى؛ فكشف الله ضُرّه، ووهَبَه أهله ومثلهم معهم.

وأما في السنة فأصح ما رود في ذلك ما خرَّجه البخاري في صحيحه (٣٣٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «بينما أيوب يغتسل عريانًا، خرَّ عليه رِجْلُ جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربُّه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غِنَى لي عن بركتك».

وقد وردت مرويات كثيرة فيها تفاصيل ما أصاب أيوب عليه السلام، ويكفينا هنا ما جاء في القرآن والسنة الصحيحة.

إنه ليس ضُرًّا وعذابًا كسائر ما يصيب الناس، فيكفي في معرفة قَدْر ذلك الضر أنَّ الله عز وجل سمَّاه بذلك، وأنه امتنَّ على عبده أيوب عليه السلام بكشف هذ الضُّرّ.

ولعل أقوى ما يدل على عِظَم الضُّرّ الذي أصاب أيوب عليه السلام أن الله عز وجل شهد له بالصبر، وجعله قدوة لنبيه صلى الله عليه وسلم وسائر الخلق، فقال -سبحانه- مخاطبًا لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص:١٧)، فحكى -سبحانه- قصة داود عليه السلام، ثم إسماعيل، ثم قصة أيوب عليه السلام واصفًا له بالصبر فقال عز وجل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وفي الصلة بين قصة أيوب عليه السلام، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يلقاه من قومه يقول الرازي: «كأن الله -تعالى- قال: يا محمد، اصبر على سفاهة قومك؛ فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالاً من داود وسليمان -عليهما السلام-، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد، وأن العاقل لابد له من الصبر على المكاره» (مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢١٢).

وحين طال البلاء بأيوب عليه السلام لجأ إلى ربه عز وجل شاكيًا حاله له، وفي دعائه عليه السلام غاية الأدب مع الله عز وجل، فقد اكتفى بشكاية حاله فقال: ﴿أَنِّي

مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، وفي سورة ص: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٍ وَعَذَابٍ ﴾.

وأخبر عليه السلام عن مسّ الضر له، وأضاف ذلك إلى الشيطان تأدبًا مع الله ﷻ، وأشار ابن عاشور إلى لطيفة في الإشارة إلى الشيطان في هذا السياق، فقال: «ففي قول أيوب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٍ وَعَذَابٍ ﴾ كناية لطيفة عن طلب لطف الله به، ورفع النَّصَب والعذاب عنه بأنهما صارا مدخلاً للشيطان إلى نفسه فطلب العصمة من ذلك، على نحو قول يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾(يوسف: ٣٣)» (التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٧٠).

وليس في دعاء أيوب عليه السلام ما ينافي الصبر، قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف وجده صابرًا وقد شكا إليه ما به واسترحمه؟ قلت: الشكوى إلى الله -عز وعلا- لا تُسمَّى جزعًا، ولقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾(يوسف:٨٦)، وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب، وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمني العافية وطلبها، فإذا صحّ أن يسمى صابرًا مع تمني العافية وطلب الشفاء، فليُسَمَّ صابرًا مع اللجإ إلى الله -تعالى-، والدعاء بكشف ما به ومع التعالج ومشاورة الأطباء» (الكشاف ٥/ ٢٧٤).

إن الضُّرّ والبلاء ملازم لطبيعة الحياة الدنيا؛ فقد قال الله ﷻ لآدم حين أسكنه الجنة: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا

وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ (طه: ١١٧-١١٩).

وأخبر الله ﷻ أنه يبتلي عباده بالشر والخير فقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٥).

وبيَّن الله ﷻ صورًا من ابتلاء عباده بالضراء، ثم ختم ذلك ببيان عظم أجر الصابرين فقال -سبحانه-: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٥).

لذا فحاجة الناس لخُلُق الصبر لا تعادلها حاجة، بل هو أساس كثير من الأخلاق؛ فهي لا تتحقق عند صاحبها إلا حين يتحلَّى بصبر النفس، قال الفخر الرازي: «ثم اعلم أن الصبر ضربان؛ أحدهما: بدني، كتحمُّل المشاق بالبدن والثبات عليه، وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة أو بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والألم العظيم. والثاني: هو الصبر النفساني وهو منع النفس عن مقتضيات الشهوة ومشتهيات الطبع، ثم هذا الضرب إن كان صبرًا عن شهوة البطن والفرج سُمِّيَ عفَّة، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي عليه الصبر، فإن كان في مصيبة اقتصر عليه باسم الصبر ويضادُّه حالة تسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق داعي الهوى في رفع الصوت وضرب الخد وشق الجيب وغيرها، وإن كان في حال الغنى يسمى ضبط النفس، ويضاده حالة تسمى: البطر. وإن كان في حرب ومقاتلة يسمى: شجاعة، ويضادّه الجبن، وإن كان في كظم الغيظ والغضب يسمى: حلمًا، ويضاده

النزق، وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة، سُمِّيَ: سعة الصدر، ويضاده الضجر والندم وضيق الصدر وإن كان في إخفاء كلام يسمى: كتمان النفس، ويسمَّى صاحبه: كتومًا، وإن كان عن فضول العيش سُمِّي زهدًا، ويضاده الحرص وإن كان على قدر يسير من المال سُمِّيَ بالقناعة ويضاده الشَّرَه، وقد جمع الله -تعالى- أقسام ذلك، وسمَّى الكل صبرًا فقال: الصابرين في البأساء أي المصيبة: والضراء أي الفقر: وحين البأس أي المحاربة: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧). (التفسير الكبير ٤/ ١٣٠-١٣١).

إن الصبر خُلُق مركزيّ، يسهم بناؤه في النفس في إصلاحها، وتقويم كثير من مجالات حياتها، وينشأ عن فَقْده عديد من صور الاختلال في تعامل الإنسان مع نفسه، وإدارته لحياته، وفي تعامله مع أهله ومن حوله، فضلاً عن تعامله مع مَن يختلف معه.

الأنبياء أئمة الصابرين:

وإذا أَحبَّ الله ﷻ عبده ابتلاه؛ ففي البلاء تكفير السيئات، وميدان للصبر؛ فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إن عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» (أخرجه الترمذي ٢٣٩٦، وابن ماجه ٤٠٣١).

ولما كان الأنبياء أحب خَلْق الله ﷻ إلى الله صاروا أشد الناس بلاءً، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قلت: يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاءً؟

قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل، فالأمثل من الناس، يُبْتَلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيدَ في بلائه، وإن كان في دينه رقة خُفِّفَ عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة» (أخرجه أحمد ١٤٨١، والترمذي ٢٣٩٨، وابن ماجه٤٠٢٣).

وجاء الحديث في القرآن كثيرًا عن صبر الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-، ووصف الله ﷻ به طائفة من أنبيائه.

فوصف الله ﷻ نبيه يعقوب بذلك، فقال: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ١٨)، وقال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (يوسف: ٨٣).

ووصف به -سبحانه- إسماعيل وإدريس وذا الكفل، قال ﷻ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٥).

وفي قصة إسماعيل عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الصافات:١٠٢).

ووصف يوسف عليه السلام بالصبر، فقال: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِىۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٠)، صبر يوسف عليه السلام على فقْد والديه، وعلى ألم الغربة، وعلى الرقّ في بيت العزيز، وعلى شهوة النساء

ومراودة امرأة العزيز وكيد النسوة، وعلى السجن ظلمًا، وحين دُعِيَ للخروج من السجن صَبَرَ حتى تظهر براءته.

ووصف الله ﷻ بالصبر أولي العزم من الرسل، ودعا نبيه ﷺ للاقتداء بصبرهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

ووصف عموم المرسلين به فقال: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم: ١٢).

أما خاتم المرسلين وسيِّد ولد آدم -عليه الصلاة والسلام- فقد كان إمام الصابرين، فقد ابتُلي ﷺ في نفسه، فعن عبد الله ﷺ، قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكًا شديدًا؟ قال: «أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم» قلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال: «أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذًى؛ شوكة فما فوقها، إلا كفَّر الله بها سيئاته، كما تحطُّ الشجرة ورقها» (أخرجه البخاري ٥٦٤٨، ومسلم ٢٥٧١).

أما صبره ﷺ في دعوة قومه على أذى الكفار والمنافقين، وصبره في تعليم أصحابه ورعايتهم، وعلى حدثاء العهد بالإسلام؛ فالسيرة النبوية مليئة بذلك، بل السيرة في حقيقتها هي الصبر في ميادين الدعوة والتعليم والجهاد.



الصبر انجع دواء للمصائب والعقبات:

الكَبَد والشقاء طبيعة للحياة الدنيا؛ فلا يسلم الناس مما يصيبهم في أنفسهم وأموالهم ومعاشهم، وفي إطار علاقاتهم الاجتماعية كثيرًا ما تنشأ صعوبات ومشكلات فيما بين الزوجين، والوالدين مع أولادهم، والأولاد مع والديهم، والأقارب والجيران، سواء أكانت تلك المشكلات واقعًا فرَض نفسه، أو أنها إفراز لسلوك مَن وقع في المشكلة، وأسلوب إدارته لحياته وعلاقاته مع الآخرين.

وعلى مستوى المجتمع يعيش الغيورون من الشباب والفتيات صراعًا مريرًا داخل أنفسهم وهم ينظرون إلى تنامي الفساد، وضَعْف فرص الإصلاح، وميل الكفة للمفسدين، وعلى مستوى الأمة يرون التحديات والأزمات تنمو وتتصاعد دون أن يلوح لهم أُفُق للحلّ أو الخروج من هذه الأزمات.

على المستوى الشخصي والاجتماعي، أو على مستوى واقع المجتمع والأمة يكثر التساؤل عن الحل والمخرج، ويسعى الجميع للخروج بوسائل محددة، وخطوات إجرائية لتجاوز هذه المشكلات.

ومع أهمية الاجتهاد في تجاوز المشكلات والأزمات، والبحث عن الحلول العملية، إلا أن الصبر واحد من أنجع الحلول.

فالصبر سببٌ لمعية الله ﷻ كما قال -سبحانه-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٣).





والصبر فيه الخير، كما قال -سبحانه-: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦).

والصابرون مهتدون للحق، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥- ١٥٧).

وحين رأى النبي ﷺ امرأة تبكي على فقيدها أمرها بالتقوى والصبر؛ فعن أنس بن مالك ﷺ، قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري» قالت: إليك عني، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوَّابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» (أخرجه البخاري ١٢٨٣، ومسلم ٩٢٦).

وأمر ﷺ بالصبر على الاستئثار بالمال العام، وحرمان الحقوق، فعن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال النبي ﷺ للأنصار: «إنكم ستَلْقَوْنَ بعدي أَثَرَةً، فاصبروا حتى تلقوني وموعدكم الحوض» (أخرجه البخاري ٣٧٩٣، ومسلم ١٨٤٥).

والصبر سلاح المؤمن في مواجهة المعصية، قال أبو الطيب المكي: «واعلم أن أكثر معاصي العباد في شيئين: قلة الصبر عما يحبون، أو قلة الصبر على ما يكرهون». (قوت القلوب ١/ ٣٣٣).

وقال أيضًا: «اعلم أن الصبر سبب دخول الجنة، وسبب النجاة





من النار؛ لأنه جاء في الخبر: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات»، فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ليدخل الجنة، وإلى صبر عن الشهوات لينجو من النار» (قوت القلوب ١/ ٣٣٦).

وليس المقام مقام استيعاب نصوص الصبر وحصرها، إنما هي نماذج تؤكِّد على أن الصبر علاج ناجع، ودواء لكثير من الأدواء، وأننا بحاجة لمراجعة تعاملنا معه، والنظرة إليه.

ولا يمكن لعاقل أن يتجرأ على وَصْف موقف النبي ﷺ وإرشاده بالقصور، أو أنه لم يقدم حلاً، ولم يُعطِ رأيًا عمليًّا.

ومن المهم في هذا السياق التعامل مع الصبر على أنه حلّ عمليّ وواقعيّ، وليس مجرد عجز واستسلام للواقع، أو ضرورة يلجأ إليها من لم يجد الحل.





رحم الله موسى

الصبر من أعظم أخلاق الأنبياء، أثنى الله عليهم به، ووصف طائفة منهم بالصبر، وأمَر نبيه ﷺ أن يتأسَّى بأولي العزم من الرسل في صبرهم.

وسبق الحديث عن ذلك في المبحث السابق عند قصة أيوب عليه السلام.

وتركَّز الحديث هناك على أحد أنواع الصبر، ألا وهو الصبر على مصائب الدنيا ومتاعبها، إلا أن صبر الأنبياء يشمل كل أنواع الصبر ومجالاته، ومن أعظم ذلك صبرهم على الدعوة إلى الله عز وجل.

وقد تذكر رسول الله ﷺ حين تعرَّض للأذى ما أصاب موسى عليه السلام من بني إسرائيل، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قسم النبي ﷺ قسمًا، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أُريدَ بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى، قد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبَر» (أخرجه البخاري ٣٤٠٥، ومسلم ١٠٦٢).

أنقذ الله عز وجل بني إسرائيل من بطش فرعون وجبروته بدعوة موسى عليه السلام، ومنَّ الله عليهم بالتمكين في الأرض، قال -سبحانه-: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ

﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ (القصص:٤-٦).

وتحقَّق وعد الله لبني إسرائيل بصبرهم، قال -سبحانه-: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف:١٣٧)

فما أن نجاهم الله من فرعون وملئه، ورأوا عُبَّاد الأصنام حتى سألوا موسى أن يتخذ لهم إلهًا: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف:١٣٨).

ولما ذهب موسى لميقات ربه وعاد إليهم وجدهم قد عبدوا العجل؛ ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ (الأعراف:١٤٨).

وصبر موسى عليه السلام على كثرة مسائل بني إسرائيل، ومن ذلك تعنُّتهم في السؤال عن البقرة ما هي، وما لونها، وسؤالهم إياه: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

وعلى تبديلهم أمر الله حين دعاهم للدخول سجودًا قائلين حطَّة؛ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ (البقرة:٥٩).

وجحودهم نعمة الله عز وجل، وتعنُّتهم في مطالبهم؛ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا

وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ (البقرة:٦١).

وصبر عليه السلام على تلكؤ استجابة بني إسرائيل لما فرض الله عليهم، وذكر حاله معهم لأخيه محمد ﷺ حين لقيه في الإسراء، كما حدَّث عن ذلك ﷺ في حديث الإسراء الطويل، وفيه: «فرجعت فمررت على موسى، فقال: بما أُمِرْتَ؟ قال: أُمِرْتُ بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جرَّبت الناس قبلك، وعالجتُ بني إسرائيل أشدّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأُمِرْتُ بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ قلت: أُمِرْتُ بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكني أرضى وأسلم، قال: فلما جاوزت نادى منادٍ: أمضيتُ فريضتي، وخفَّفت عن عبادي» (أخرجه البخاري ٣٨٨٧، ومسلم ١٦٢).

وامتدَّ أذاهم لموسى عليه السلام إلى الجانب الشخصي، فعن أبي هريرة

عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة، ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى ﷺ يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر[1]، فذهب مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففرَّ الحجر بثوبه، فخرج موسى في إثره، يقول: ثوبي يا حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضربًا» فقال أبو هريرة: والله إنه لندب بالحجر، ستة أو سبعة، ضربًا بالحجر. (أخرجه البخاري ٢٧٨، ومسلم ٣٣٩).

وذكر النووي من فوائد الحديث: «ومنها ما ابتُلِيَ به الأنبياء والصالحون من أذى السفهاء والجهال وصَبْرهم عليهم » (شرح صحيح مسلم ١٥/ ١٢٧).

وكان آخر المطاف معهم حين دعاهم لدخول الأرض المقدسة ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة:٢١)، فتمنعوا من ذلك حتى أعلنوا أنهم لن يدخلوها أبدًا حتى يخرج منها الجبارون، وأساؤوا الأدب مع الله ومع موسى عليه السلام، ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ (المائدة:٢٤).

حينها حان الفراق بينه وبينهم، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (المائدة:٢٥).

(١) قال ابن حجر: «قوله آدر: بالمد، وفتح الدال المهملة، وتخفيف الراء، قال الجوهري: الأدرة نفخة في الخصية، وهي بفتحات» (فتح الباري ١/ ٣٨٦).

والمقام لا يقتضي استيعاب مواقف موسى عليه السلام في صبره على قومه، فقد صبر كثيرًا في تعليمهم، وفي دعوتهم، وعلى تعنّتهم وكثرة مسائلهم، وعلى سوء أدبهم مع الله تعالى، ومع نبيهم موسى عليه السلام.

الأنبياء والصبر على الدعوة:

لقد كان الأنبياء -عليهم السلام- أئمة في الصبر على الدعوة، وما نالهم فيها، ومن أوجه ذلك:

أولاً: الصبر على كُفر قومهم وإعراضهم، وعدم استجابتهم للدعوة، وقد كان أتباع الأنبياء في الجملة قليل، ومع ذلك صبروا، ولم ييأسوا من دعوتهم.

ثانيًا: الصبر على طول طريق الدعوة؛ فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ (العنكبوت:١٤)، وهو عليه السلام في ذلك كله صابر لا يفتر عن تذكيرهم ووعظهم ودعوتهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ (نوح:٥-٩).

ثالثًا: الصبر على الأذى الذي نالهم من قومهم بسبب الدعوة، ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم:١٢).

وقد تنوّعت صنوف الأذى الذي نال الأنبياء، فوصل في بعض



الحالات إلى القتل ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة:٨٧).

ومما نالهم من أقوامهم الأذى النفسي، فوصفوا الأنبياء بأبشع الأوصاف؛ ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (الذاريات:٥٢-٥٣).

رابعًا: الصبر على انحرافهم وفسادهم، فحين جاءت الملائكة إلى لوط عليه السلام شقَّ الأمر عليه، وتذكر فساد قومه وانحرافهم؛ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (هود:٧٧).

وكان ما خشيه وخافه؛ فقد تسابق القوم دون حياء أو عفة إلى رسل الله يظنونهم بشرًا ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (هود:٧٨- ٧٩).

فتمنَّى امتلاك القوة، أو اللجوء إلى ركن شديد؛ ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود:٨٠).

أما محمد ﷺ فقد كان إمام الصابرين، وقدوة الخلق أجمعين، بلغ الغاية ﷺ في الصبر والمجاهدة.

صبر ﷺ على أذى طغاة قريش؛ فعن عروة بن الزبير، قال: سألت

عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: رأيت عقبة بن أبي معيط، جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (غافر: ٢٨) (أخرجه البخاري ٣٦٧٨).

وصبر ﷺ على الخوف وصُوَر الإيذاء؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أُوذِيتُ في الله، وما يُؤْذَى أحد، وأُخِفْتُ في الله، وما يخاف أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثة من بين يوم وليلة، وما لي وبلال طعام يأكله ذو كبد، إلا ما يُوَارِي إبط بلال» (أخرجه أحمد ١٢٢١٢).

وصبر ﷺ على جَهَلَة الأعراب وحدثاء العهد بالإسلام، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية»، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى «نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته»، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك، «فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء» (أخرجه البخاري ٥٨٠٩، ومسلم ١٠٥٧).

وصبر ﷺ على المنافقين؛ فعن عروة بن الزبير، قال: أخبرني أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ ركب حمارًا، عليه إكاف تحته قطيفة فدكية، وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مَرَّ في مجلس فيه أخلاط من

المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أُبي بن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمَّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبِّروا علينا، فسلم عليهم النبي ﷺ ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أُبي بن سلول: أيها المرء، لا أحسن من هذا إن كان ما تقول حقًّا، فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رَحْلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، قال عبد الله بن رواحة: اغشنا في مجالسنا؛ فإنا نحب ذلك، فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى همُّوا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي ﷺ يخفِّضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال: «أي سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا» قال: اعفُ عنه واصفَحْ، فلقد أعطاك اللهُ ما أعطاك، ولقد اجتمَعَ أهلُ هذه البَحرَةِ أن يُتَوِّجوه فيُعَصِّبوه، فلما رَدَّ ذلك بالحَقِّ الذي أعطاك شَرِقَ بذلك، فذلك الذي فعَل به ما رأَيْتَ، فعفا عنه النبي ﷺ (أخرجه البخاري ٦٢٥٤، ومسلم ١٧٩٨).

وصبر على الغلاة وجفائهم؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: بينا النبي ﷺ يقسم ذات يوم قسمًا، فقال ذو الخويصرة، رجل من بني تميم: يا رسول الله اعدل، قال: «ويلك، مَن يعدل إذا لم أعدل» فقال عمر: ائذن لي فلأضرب عنقه، قال: « دَعْه. فإنَّ له أصحابًا يحقِر أحدُكم صلاتَه مع صلاتِهم، وصيامَه مع صيامِهم، يقرأون القرآنَ، لا يجاوزُ تَراقيهم، يمرُقون من الإسلامِ كما يمرُق السهمُ من الرَّميَّةِ، ينظر إلى نصلِه فلا يوجدْ فيه

شيءٌ، ثم ينظر إلى رِصافِه فلا يوجد فيه شيءٌ، ثم ينظر إلى نضِيِّه فلا يوجد فيه شيءٌ (وهو القدحُ)، ثم ينظر إلى قُذَذِه فلا يوجد فيه شيءٌ. سبق الفرثَ والدَّمَ. آيتُهم رجلٌ أسودُ، إحدى عَضُدَيه مثلُ ثدي المرأةِ، أو مثلَ البَضعة تَدَرْدَرُ، يخرجون على حينِ فُرقةٍ من الناسِ». قال أبو سعيدٍ: فأشهدُ أني سمعتُ هذا من رسولِ الله ﷺ، وأشهدُ أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ -رضي الله عنه- قاتلَهم وأنا معه، فأَمَر بذلك الرجلِ فالتُمِسَ، فوُجِدَ، فأُتِيَ به، حتى نظرتُ إليه، على نَعْتِ رسولِ الله ﷺ الذي نعَتَ» (أخرجه البخاري ٦١٦٣، ومسلم ١٠٦٤).

الصبر قرين للدعوة:

إن الصبر قرين الدعوة، فلا دعوة صادقة دون صبر، ولهذا حين أوصى العبد الصالح لقمان ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عقَّب ذلك بالوصية بالصبر، فقال: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (لقمان:١٧).

وجعل الله ﷻ الصبر من أسباب استحقاق الإمامة؛ فقال ﷻ: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة:٢٤).

يحتاج الداعية إلى الصبر على طول الطريق، وألا يستعجل النتائج؛ فاستعجال النتائج يقود إلى حَرْق المراحل، وربما إلى تجاوز حدود الشريعة، ولعل فَقْد الصبر من أهم ما يدفع كثيرًا من الشباب إلى تقبُّل



مناهج الغلوّ؛ فهي تقوم على التغيير السريع والإصلاح الخاطف.

وكان إمام الصابرين ﷺ يربِّي أصحابه على الصبر على طول الطريق؛ فحين اشتكى خباب رضي الله عنه أذى المشركين، وسأله ﷺ الدعاء، أخبره ﷺ بطائفة مما أصاب الأمم السابقة، وبيَّن له طول الطريق فقال: «واللهِ لَيُتمَّنَّ هذا الأمرَ، حتى يسير الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرمَوت، لا يخاف إلا اللهَ، والذئبَ على غنمِه، ولكنكم تستعجِلون» (أخرجه البخاري ٢٩٤٣).

كما كان ﷺ يتمثَّل هذا المعنى، فلا يستعجل عذاب قومه، ويرجو الأمل بالجيل التالي منهم، فحين استأذنه ملك الجبال أن يطبق على أهل مكة الأخشبين امتنع ﷺ، وقال: «بل أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم مَن يَعْبد الله وحده، لا يُشركُ به شيئًا» (أخرجه البخاري ٣٢٣١، ومسلم ١٧٩٥).

ويحتاج الداعية إلى الصبر على أذى أعداء الدعوة، فهم موجودون في كل وقت وحين، وإن اختلفت الأسماء وتباينت الشعارات، وقد قال ورقة رضي الله عنه للنبي ﷺ: «لم يأتِ رجل قط بمثل ما جِئْتَ به إلا عُودِيَ» (أخرجه البخاري ٣).

ويحتاج إلى الصبر على مَن يقل فقهه وعلمه؛ فيسوء أدبه، ويجفو على مَن يأمره وينهاه.

ويحتاج إلى الصبر على قلة الاستجابة، وضعف التأثير، أو إخفاق بعض الخطط والبرامج والمشروعات.

إن الداعية والمصلح يقول بلسان حاله أو مقاله للناس: إن حالكم تستوجب التغيير، وإن ما أنتم عليه لا يُرضي الله ﷻ، وإن طريق الحق

خلاف الطريق الذي تسيرون عليه؛ فيصعب على الناس التخلي عن مألوفاتهم، وتغيير عاداتهم، والاعتراف بخطأ ما هم عليه.

وقد يصحب دعوة الحق فوات مصالح بعض الناس، وخسارة من كان يتكسب بما لا يرضي الله ﷻ، وضمور صيت بعض من كان يعلو على الناس، حينها يصطف الخاسرون في موكب من يؤذي الدعاة والمصلحين.

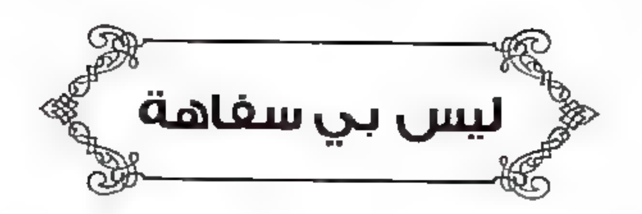
ومع اتساع وسائل الإعلام الجديد زاد تصدر السفهاء، وتطاول الصغار على الأكابر، وصار الرويبضة يتحدث في شأن العامة؛ فيخطِّئ ويُصوِّب، وينال الكبار والصالحين بقلمه ولسانه الفاحش.

فلا غنى عن الصبر لمن اختار التصدي للناس تعليمًا، وإصلاحًا، ودعوة، وله أسوة حسنة بالأنبياء والمرسلين.

إن نتيجة ضعف صبر الداعية لا تقف عند حدود الجزع والتسخُّط، ولا عند قلة احتساب ما يصيبه، بل هي تمتد إلى منهج الدعوة، وإلى رؤيتها، وإلى تصوُّر منهج التغيير؛ فكثير ممن وقع في الغلو، أو ما هو دونه من القسوة على الناس والمجتمع، أو القفز إلى حرق المراحل والبحث عن الحلول العاجلة، وعدم تقبُّل مشروعات البناء العميق، والعمل الاستراتيجي إنما أُوتِيَ هؤلاء من ضعف الصبر.

وفي مقابلهم من يجنح لمجاراة الناس، وتسويغ انحرافهم، والتغيير والتبديل في الدين؛ فهو أيضًا إنما أوتي من قلة صبره.





ليس بي سفاهة

أرسل الله ﷻ أنبياءه الكرام إلى أقوامهم كافَّة، وفيهم الجاهل سيئ الأخلاق، والمتكبر المتجبر، ومن هو دون ذلك.

وقد اتفق المعرضون عن دعوة الأنبياء على وصف الأنبياء بأوصاف نابية لا يليق أن توجه لإنسان، فضلاً عن سادة البشر وخيرهم وأبرّهم.

قال -سبحانه وتعالى- مبينًا اتفاقهم على وصف رسلهم بالسحر والجنون: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ (الذاريات:٥٢).

وحين جاء هود عليه السلام برسالته إلى قومه وَصَمُوه بالسفاهة، قال -سبحانه-: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ (الأعراف:٦٨).

لم يستشط هود عليه السلام غضبًا وهو يسمع هذه المقولة الشنيعة فيمن أتى لهم بالرسالة والهداية، ولم يرد عليهم الكلمة النابية بمثلها، إنما قال لهم عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف: ٦٧- ٦٨).

وقد سبقهم قوم نوح بقريب من تلك المقولة: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (الأعراف:٦٠)، فأجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿لَيۡسَ

بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٦١-٦٢).

وقد أشار طائفة من المفسرين إلى أدب هود عليه السلام في ردّه على قومه، قال الزمخشري: «وفي إجابة الأنبياء -عليهم السلام- من نسبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة، بما قالوا لهم مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفههم؛ أدَبٌ حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء؟ وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم؟ على ما يكون منهم، ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي: عُرِفْتُ فيما بينكم بالنصح والأمانة» (الزمخشري ٢/ ١١٦-١١٧).

وقال السمعاني: «وهذا أيضًا من حسن الجواب» (تفسير السمعاني ٢/ ١٩٢).

«قال عليه السلام مستعطفًا لهم أو مستميلاً لقلوبهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾: أيُّ شيء منها، فضلاً عن تمكني فيها كما زعمتم ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والرسالة من قبله تعالى تقتضي الاتصاف بغاية الرشد والصدق، ولم يصرح عليه السلام بنفي الكذب اكتفاء بما في حيز الاستدراك» (روح المعاني ٤/ ٣٩٣).

إن الدعاة وأهل العلم هم أحوج الناس إلى التحلّي بهذا الخُلُق، وإلى حُسْن التعامل مع السفهاء والجاهلين؛ فهم يتعاملون مع البرّ والفاجر،

ومع العاقل الحصيف، والسفيه المتطاول.

وما يقرِّره طالب العلم، أو يدعو إليه الداعية ليس دومًا مما يروق لهؤلاء السفهاء وسيئي الخُلق، بل إن كثيرًا منهم يسعى لتبرير فساده وتسويغ واقعه السيئ بالطعن بالشرفاء، واتهام العقلاء، وكل إناء بما فيه ينضح؛ فيطلق هؤلاء الحمقى على الدعاة والصالحين أوصاف التنقص والازدراء، طاعنين في صدقهم وتدينهم، أو متهمين عقولهم بالقصور والخلل، وربما اتجهوا للحديث عن المظهر والاختيار الشخصي.

والمعاناة مع السفهاء ليست وليدة اليوم، فها هو ابن حزم -رحمه الله- يشكو منهم فيقول: «حتى إنك تجد المجنون المطبق والسكران الطافح يسخران بالصحيح، والجاهل الناقص يهزأ بالحكماء وأفاضل العلماء، والصبيان الصغار يتهكمون بالكهول، والسفهاء العيارين يستخفون بالعقلاء المتصاونين، وضعفة النساء يستنقص عقول أكابر الرجال وآراءهم، وبالجملة فكلما نقص العقل توهَّم صاحبه أنه أوفر الناس عقلاً، وأكمل تمييزًا» (الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص٧٧-٧٨).

وليس الأمر قاصرًا على الضُّلّال والفاسدين، ففي الوسط العلمي والدعوي في مجتمعات المسلمين سوء إدارة للتنوُّع والخلاف، فيحوِّله بعضهم إلى فُرْقَة ونزاع وشقاق، والأدهى من ذلك أن يمُارَس هذا كله باسم الدين والغيرة عليه، والانتساب للسلف الصالح والدفاع عن منهجهم.

وقد توجد في الساحة العلمية والدعوية لغة فجّة لا تَليق بخُلُق

المسلم الصادق فضلاً عن المنتسب للعلم والدعوة، الساعي لنصرة الدين ورفعته.

والحق أن هذا النمط من اللغة الهابطة، والتحزُّب المقيت إنما يُقْلِق بسوئه ومجافاته للأدب لا بكثرته وانتشاره؛ فالسواد الأعظم لا يزال -بحمد الله- يعامل أهل التدين والعلم والدعوة بما يليق بهم.

وقد أسهمت وسائل التواصل الاجتماعي والانفتاح التقني اليوم في كَسْر كثير من الحواجز، وإتاحة الفرصة للجاهل والعاجز للتعبير عن رأيه، ومناقشة عويصات المسائل ودقائق المشكلات، ومناطحة الكبار.

وفي وسائل التواصل يتجرَّأ مراهق لا يحسن مبادئ النحو والإملاء -فضلاً عن العلم وأصوله- فينتقد ما لا يطيق فهمه من المقولات، ولا يحيط به من المواقف، جازمًا برأيه، واصمًا من خالفه بعبارات التخوين والطعن في النية والديانة.

وهذا الواقع المستفزّ قد يستثير الداعية وطالب العلم؛ فهو بشَر لا ينقله سمو خلقه وحسن أدبه إلى دائرة المثالية والعصمة.

إنه بحاجة ماسَّة إلى ترويض نفسه بأخلاق الأنبياء والمرسلين، والبعد عن مجاراة السفهاء والخوض مع الحمقى.

ويتجلَّى هذا الخُلُق الرفيع في مراتب عِدَّة:

أولها: توطين النفس على الصبر واحتمال الأذى، وتهيئتها على سماع ما لا تحب، ورؤية ما تكره، وخير ما يعينها على ذلك تذكيرها بما أصاب

خير الناس وأبرّهم وأتقاهم، وما لقوه من أقوامهم، والقرآن الكريم مليء بذلك.

ثانيها: الارتقاء باللغة، والتعفُّف في البيان، والبعد عن ردّ الكلمة النابية بمثلها، ويجدر بالقدوات أن يستخدموا المنطق الرصين واللغة الموضوعية؛ فينفوا ما اتُّهِمُوا به بلغة محايدة رصينة تليق بهم، كما قال أئمة الهدى وسادة المتقين: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ .

ثالثها: تجاهل الدخول في المعارك الشخصية، والخوض في الجدل مع السفهاء؛ فساحة هؤلاء بطبيعتها عَكِرة، تحضر فيها لغة السِّباب والشتائم، وتَضْمُر لغة الحجة والبرهان، والدواء الأنجع لها هو التجاهل والتجافي، كما أمر الله -تبارك وتعالى- نبيه ﷺ بقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩). **قال ابن جرير: «وذلك وإن كان أمرًا من الله نبيَّه، فإنه تأديب منه -عز ذِكره- لخلقه باحتمال مَن ظلمهم أو اعتدى عليهم»** (تفسير ابن جرير ١٣/ ٣٣٢).

ووصف -سبحانه- من اصطفاهم وشرّفهم بعبوديته بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان:٦٣).

وبقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص:٥٥).

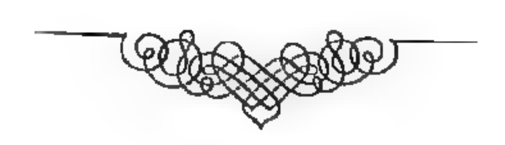
وقال ابن مفلح: «وما ندم حليم ولا ساكت، وإنما يندم المُقْدِم على

المقابلة والناطق؛ فإن شئت فاحتسب سكوتك عن السفيه أجرًا لك، وإن شئت فاعدده احترازًا من أن تقع في إثم، وإن شئت كان احتقارًا له، وإن شئت كان سكوتك سببًا لمعاونة الناس لك، وإن تلمحت القدر علمت أنه ما يُسلَّط إلا مُسَلَّط فرأيت الفعل من غيره إما عقوبة وإما مثوبة» (الآداب الشرعية ٢/ ٨-٩).

رابعها: الحذر من بعض المداخل النفسية التي قد ينتصر فيها المرء لنفسه باسم الدين، ومن ذلك التعامل مع النقد الشخصي الموجَّه له على أنه استهزاء بالدين وأهله، وأن مخالفيه إنما دافعهم الحرب على الحقّ الذي يحمله.. إلخ، وهذا إن صحَّ شيء منه فليس من المناسب إثارته في مواضع الخلاف الشخصي، بل اللائق هو التسامي والتعالي؛ فمن يسيئ لنا قد يكون دافعه الخلاف الشخصي لا كراهية الدين وأهله، بل ربما كان ممن حسنت نيته، ولم يوفق لحسن خطابه.

وليس من اللائق ظهور الدعاة بمظهر من يوظِّف الدين في صراعاته وخلافاته الشخصية.

وكثير ممن يسيئ الخلق، ويجفو في الأدب، إنما يُؤْتَى من سُوء خُلُقه وقلة تهذيبه لا كراهيته للدين وأهله، فهؤلاء دواؤهم الرفق وحُسْن التعامل لا تحويلهم إلى أعداء، أو دفعهم إلى دائرة المخالفين.



أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين

حين أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه بذبح البقرة استغربوا هذا الأمر واستنكروه، واتهموا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسخرية والاستهزاء بهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (البقرة:٦٧).

ذلك أن بني إسرائيل اختلفوا في شأن قتيل لهم، فأتوا إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فقالوا: نأتيك فنذكر قتيلنا والذي نحن فيه، فتستهزئ بنا؟ فقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

حاشا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يكون من الجاهلين؛ فهو ممن اصطفاه الله عَزَّ وَجَلَّ واختاره لرسالته، وقال عنه -سبحانه-: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ (الأعراف: ١٤٤).

الجهل والاستهزاء بالآخرين ليس من صفة أهل الخُلُق الرفيع، ولا من شأنهم، ولذا حين قال النبي ﷺ مقولته لسادة قريش شهدوا له بنفي الجهل، والحق ما شهدت به الأعداء، فقد كانوا يذكرونه في حديثهم وهم في البيت، فمَرَّ بهم طائفًا فكلّ ما مرَّ بهم غمزوه ﷺ حتى قال لهم: «تسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم

بالذبح»، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدًا؛ فوالله ما كنت جهولاً. (أخرجه أحمد ٧٠٣٦).

والبعد عن الجهل والسَّفَه من خُلُق المؤمن الصادق، بل قد نفى ﷺ هذا الخلق عن المؤمن فقال: «ليس المؤمن بالطَّعَّان، ولا اللَّعَان، ولا الفاحش، ولا البذيء» (أخرجه الترمذي ١٩٧٧).

وأولى الناس بالتحلي بهذا الخُلُق النبوي: من ورث الأنبياء بعلم، أو دعوة ومشاركة في خير.

ربما يواجه الداعية أو طالب العلم انتقادٌ حادٌ يستفزه، أو سوء أدب من بعض الجاهلين، فقد لا يضبط مشاعره، ولا يتحكم بردَّة فعله؛ فيجزي السيئة بأسوأ منها، ويرد الصاع صاعين، وردّ الصاع صاعين هو عدوان وتجاوز؛ فغاية ما يُباح هو ردّ السيئة بمثلها، والانتصار دون بغي قال -سبحانه-: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (الشورى: ٤١-٤٢).

وبعدأن بيَّن الله ﷻ جواز دفع السيئة بالسيئة أرشدالمؤمنين إلى المرتبة الأكمل والأعلى، فقال ﷻ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ (الشورى:٤٣).

والحَرِيّ والمُؤَمَّل ممن يحمل لواء الدعوة إلى الله ﷻ أن يتأسَّى بنبيه ﷺ، فقد أمره الله ﷻ بدفع السيئة بالحسنة، والصبر على أذى السفهاء، قال -سبحانه-: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ (المؤمنون:٩٦-٩٨).

وفي سورة فصلت أرشد الله ﷻ نبيَّه لذلك، ثم بيَّن أثر هذا على الناس، وعلى قبول دعوته ﷺ، وجاءت تلك الوصية الربانية بعد بيان فضل الدعوة ومنزلة الداعية، قال -سبحانه-: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت:٣٣-٣٥).

وقد ضرب أصحاب النبي ﷺ أروع الأمثلة في الإعراض عن الجاهلين؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس، وكان من النفر الذين يُدْنِيهم عمر، وكان القُرَّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شبانًا»، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: «فاستأذن الحُرّ لعيينة فأذن له عمر»، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تُعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هَمَّ أن يُوقِعَ به، فقال

له الحرّ: يا أمير المؤمنين، إن الله -تعالى- قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف:١٩٩)، وإن هذا من الجاهلين، «والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافًا عند كتاب الله» (أخرجه البخاري ٤٦٤٢).

ولئن ساغ للداعية أن ينتصر لنفسه، فإن الانتصار إنما يكون بالحق، واللغة التي تليق بأهل الحق هي اللغة الرصينة المعبِّرة عن صفاء الحق وعدالة قضية أصحابه، أما لغة الجاهلين، ومنطق السفهاء فلا يليق بأهل الفضيلة.

وفي كل من الساحة العلميَّة والدعويَّة قديمًا وحديثًا، ردود واستدراكات، وصراعات قليل منها ما يدور بين حق وباطل جَلِيّ واضح، وكثير منها في منطقة رمادية يختلط فيها الحق والباطل، وضجيج الصراع أعلى من عدالة القضية، وبعض هذه الصراعات والمعارك تتجاوز حدود الأدب الشرعي، ولا تَسْلَم من وقوع بعض الأفاضل في خُلُق الجاهلين.

إن الخلَل السلوكي والخُلُقِيّ ليس بالضرورة صادرًا عن سوء نية، ولا عن تعمُّد وسبق إصرار، بل إن كثيرًا من المزالق السلوكيَّة يحسب أصحابها أنهم يحسنون صنعًا.

إن تبنِّي بعض الناس لقضية يَحسب أنها عادلة، ودخوله في معركة يَعتقد فيها أنه مدافع عن الحق ومنتصِر له ربما شغَله عن تقويم دفاعه عن قضيته، ومراجعة أدائه؛ فانشغل بحسن نيته عن تسديد عمله.

وإذا كانت صحة نية المتعبِّد لا تبرِّر له الخطأ في العبادة، بل إنَّ معظم مَن يأتي البدع العملية لا تنقصه النية الصادقة، وهو معتقِد في معظم أحواله أنه يتقرَّب إلى الله ويحسن صنعًا، فكذلك اجتهاد الإنسان في نشر الحق والدفاع عنه، ومقارعة أهل الباطل، لا يلزم منه صحة أساليبه وسلامة أدواته.

وحين تغيب الرصانة والوقار عن لغة الناطق بالحق، ويستخفه الذين لا يوقنون؛ فينبو قلمه ولسانه بما لا يليق بمثله، ينظر كثير من الناس إلى تجاوزه السلوكي والخُلُقِيّ أكثر مما ينظرون إلى الحقّ الذي يحمله.

والناس يرسمون صورة مثالية لحَمَلَةِ الحقِّ، ولا يعذرونهم فيما يعذرون فيه غيرهم، ويتوقعون منهم قدرًا عاليًا من الإشراق والصفاء.

وغياب الواقعية في تطلُّعات الناس مِن حَمَلَة الحقِّ لا يُعْفِي أهل الحق من وَضْع أنفسهم دومًا تحت مجهر التقويم، ومراجعة أدائهم وقتًا بعد وقت وحينًا بعد حين.



فكيدوني جميعًا

حين دعا هود عليه السلام قومه إلى التوحيد كذَّبوه كغيرهم من الأمم، واتَّهموه في عقله؛ ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ (هود:٥٣-٥٧).

أعلنها هود عليه السلام صريحة مدويَّة أمام قومه، أعلنها وهو يعرفهم تمام المعرفة؛ فهم قومه يعرفهم بجبروتهم، وتسلطهم، وهم القائلون: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ اجتمعوا كلكم برأيكم وقوتكم، وكيدوني، وافعلوا ما بدا لكم، وليكن كيدكم حاضرًا ناجزًا لا مؤجلاً ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

لقد لجأ إلى الله عز وجل، وفوَّض أمره إليه، وتوكل عليه؛ ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، إنه -سبحانه- ذو القوة المطلقة، والقدرة التي لا حدود لها، فهو القادر عليَّ، وهو كذلك القادر عليكم، نواصينا كلنا بيده -سبحانه-؛ ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

وعلى خطى هود عليه السلام جاء خليل الرحمن إبراهيم ليقف الموقف نفسه مع قومه قائلاً لهم: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (الأنعام:٨٠-٨١).

عرف التاريخ طائفة من حَمَلَة الأفكار والفلسفات، قاوموا مخالفيهم، ودفَع كثيرٌ منهم ثمَن ذلك من حريته، وتمتُّعه بدنياه، بل ربما من حياته، فكيف بحملة العقيدة ومنهج الحق؟

من سُنَّة الله تعالى أن يملي للباطل، وربما مُكِّن أهله كما تمكن قوم هود، وثمود، وأصحاب مدين، وفرعون، وقارون، وغيرهم كثير.

وامتلاك الباطل للقوة المادية يتيح له استخدام قوة الحجة والمنطق والبيان، كما كان فرعون يتحدث مع قومه متظاهرًا بحرصه على حماية الحق، وحذَّرهم من إفساد موسى لدين الناس، أو إشاعة الفساد في الأرض؛ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ (غافر:٢٦).

وقد يبتلي الله مَن آتاهم العلم، وشرَّفهم بوراثة الأنبياء، يبتليهم بتمكُّن الباطل، وسطوته وقوة جبروته.

حينها لا يقوم بالحق ويصدح به، ولا يتأهل لحمله إلا أهل الشجاعة

والعزيمة، أما الجبان فسيجد له ألف مخرج ومخرج.

وعدوان الباطل ليس حكرًا على الظلم والإيذاء البدني والمادي؛ فطغيان الإعلام، وسطوة الوسائل المسموعة والمرئية والرقمية قد تكون أعظم وأقوى كيدًا من الأذى المادي والبدني.

إن حَمَلة الدعوة أصحاب رسالة عظيمة، وليسوا مجرد حمَلة أفكار، ليسوا مجرد كُتَّاب أو متحدِّثين يحاورون بآرائهم، ويسوِّقون لأفكارهم، وإن كان هذا أحد ميادينهم.

ربما يطرب الناس لهم حين يتحدثون عن اللباقة، وحسن التعامل مع الناس، والمرونة وسعة الأفق، ويعجبون بما يقولونه حول بناء الأسرة، والتعامل الزوجي... إلخ ذلك.

ويثنون عليهم حين يتحدثون عن يُسْر الدين وسماحته، وتفهُّم الخلاف وقبول الآخر... إلخ.

وذلك حق لا يسوغ أن يتخلَّى عنه الدعاة، لكنَّ وظيفة الدعاة أوسع من ذلك؛ وظيفتهم إبلاغ دين الله ﷻ، وبيان الحق، وليس مجاراة أهواء الناس ورغباتهم ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (المؤمنون:٧١). ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (الجاثية:١٨).

وهكذا كان منهج الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-؛ فقد جاءوا بدعوتهم الصريحة لقومهم للزوم التوحيد، ونفي الشرك وعبادة الأوثان،

وواجهوا قومهم بانحرافهم؛ فلوط عليه السلام دعاهم لترك الفاحشة، وشعيب عليه السلام دعاهم لترك التطفيف في المكيال والميزان، والبعد عن الصدّ عن سبيل الله، وهكذا كان منهج الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-.

إن بيان الحق، ودعوة الناس لدين الله بحاجة إلى الشجاعة كما كان أنبياء الله عز وجل، وسُنَّة الله في حمَلة الحق هي كما قال ورقة رضي الله عنه: «لم يأتِ رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ» (أخرجه البخاري ٣، ومسلم ١٦٠).

وكانت شجاعة أبي بكر رضي الله عنه يوم الردة مما حمى الله بها بيضة الإسلام، وهكذا شجاعة الإمام أحمد في محنة خلق القرآن، كما قال الإمام ابن المديني: «إن الله أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث؛ أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة» (تاريخ بغداد ٦/ ٩٠).

وتحلي رجال العلم والدعوة بالشجاعة من أهم ما يصنع جيل الشجاعة، كما قال الرافعي: «رؤية الكبار شجعانًا هي وحدها التي تُخْرِج الصغار شجعانًا، ولا طريقة غير هذه في تربية شجاعة الأمة» (مجلة الرسالة ع٩٤ ص ٥).

تبدأ الشجاعة وتنتهي بقوة القلب، والجسم إنما هو خادم وتابع للقلب؛ فالجبان ليس بالضرورة ضعيف البنية، خائر القوى، وليس الشجاع دومًا قوي البدن، مفتول العضلات، هذا في الشجاعة المادية البدنية، فكيف بالشجاعة الأدبية الداخلية؟

ومن هنا فخُلُق الشجاعة لدى الأنبياء وأتباعهم مصدره الإيمان؛ الإيمان العميق بقدرة الله -سبحانه- وقوته، وهوان المخلوق وضعفه،

الإيمان الذي ربى عليه ﷺ أصحابه حين أوصى غلامًا يافعًا بتلك الوصية العظيمة فقال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتْ الأقلام، وجفَّت الصحف» (أخرجه أحمد ٢٦٦٩ والترمذي ٢٥١٦).

وأحسب أن حاملي الحق من أهل العلم والدعوة بحاجة لأن يتحلوا بالشجاعة إلى منتهاها، وأحسب أن ما يُمَارَس من أخطاء باسم الشجاعة ليس نتيجة اتصاف صاحبها بالشجاعة، إنما مصدره غياب عناصر أخرى تحكم سلوك أصحابها وتصرفهم؛ فالإنسان السوي لا يتحرَّك بخُلُق واحد دون سواه.

مصدر الخلل في بعض التجاوزات قد يأتي من غياب الحكمة؛ الحكمة التي تقود صاحبها إلى التأني، والتفكير العميق، ودراسة الأمر من جوانبه، ثم وضع التصرف المناسب في موضعه المناسب.

وقد يكون مصدر الخلل من النظرة الجزئية؛ فالواقع له تعقيداته، والداعية الحكيم ينظر إلى مسؤوليته عن بيان الحق دون تلبيس، كما ينظر إلى مسؤوليته عن بَذْل السبب لتحقيق قبول الناس للحق، ومن ذلك حُسْن الخُلُق والتلطف معهم، وقد قال الله ﷻ عن أصدق الخلق وأفصحهم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).



كما أنه ينظر إلى واقع الناس وما يعوقهم عن قبول الحق، وأن مِن مسؤوليته إعانتهم على تجاوز العقبات، والأخذ بأيديهم.

كما أنه ينظر إلى حاجة الناس إلى التدرج كما كان ذلك منهج القرآن، كما في تحريم الخمر، وفرض الجهاد، وإلى الحاجة لمعرفة المآلات ووزن المصالح والمفاسد.

وقد يكون منشأ الخلل من اتِّصاف الإنسان بالعجلة؛ فالإقدام دون تأنٍّ قد يدفع صاحبه للمهالك.

ومما يغفل عنه بعض المتلبسين بخُلُق الشجاعة: الحذر من الهوى؛ فالهوى كما يقود صاحبه للجبن والقعود، وتغليب سلامة النفس، فقد يقوده إلى الإقدام والاندفاع؛ فالنفس فيها العجلة، وهوى الانتصار، والوقوف موقف البطولة، وفيها هوى الإخلاد للسلامة.

وليس المقام مقام بَسْط الحديث في فقه الدعوة، إنما الإشارة إلى ضرورة خُلُق الشجاعة لمن يتصدَّى للدعوة، مع مراعاة أنه كغيره من محاسن الأخلاق ومكارمها ينبغي أن يُحَاط بسياج الفقه والحكمة، كما أن الفقه والحكمة لا ينبغي أن تكون تبريرًا للضعف والخور حين يقتضي الموقف الشجاعة والإقدام.



لا يتبعني رجل

حين مضى موسى بقومه، وسألهم دخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، ووعدهم بالنصر والتمكين امتنعوا، وقالوا لموسى عليه السلام متخلين عن أبسط مبادئ الأخلاق والأدب مع مقام الأنبياء: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ (المائدة:٢٤).

حينها يأس موسى عليه السلام من استجابتهم، وسأله ربه عز وجل مفارقتهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ (المائدة:٢٥).

واستجاب الله دعاء موسى عليه السلام؛ فكتب الله عز وجل عليهم التيه أربعين سنة؛ ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ (المائدة:٢٦).

وبعد أن انقضت سنوات التيه، وذاق بنو إسرائيل ما ذاقوه؛ عقوبةً من الله عز وجل على تخلّيهم عن أمره، أرسل لهم عز وجل نبيه يوشع بن نون عليه السلام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «غزا نبيٌّ من الأنبياءِ، فقال لقومِهِ: لا يَتْبَعْنِي رجلٌ ملكَ بضعَ امرأةٍ، وهو يريدُ أن يَبْنِيَ بها ولمَّا يَبْنِ بها، ولا أَحَدٌ بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفها، ولا أَحَدٌ اشترى غنمًا أو

خَلِفَاتٍ، وهو ينتظرُ ولادها، فغزا، فدنا من القريةِ صلاةَ العصرِ، أو قريبًا من ذلك، فقال للشمسِ: إنكِ مأمورةٌ وأنا مأمورٌ، اللهمَّ احبسها علينا، فحُبِسَتْ حتى فتحَ اللهُ عليهِ، فجمعَ الغنائمَ فجاءت - يعني النارَ - لتأكلها فلم تَطْعَمْهَا، فقال: إنَّ فيكم غُلولًا، فليُبَايعني من كلِّ قبيلةٍ رجلٌ، فلزقتْ يدُ رجلٍ بيدِهِ، فقال: فيكمُ الغُلُولُ، فلتُبايعني قبيلتُكَ، فلزقتْ يدُ رجليْنِ أو ثلاثةٌ بيدِهِ، فقال: فيكمُ الغُلُولُ، فجاؤوا برأسٍ مثلِ رأسِ بقرةٍ من الذهبِ، فوضعوها، فجاءتِ النارُ فأكلتها، ثم أحلَّ اللهُ لنا الغنائمَ، رأى ضعفنا وعجزنا، فأحلَّها لنا» (أخرجه البخاري ٣١٢٤، ومسلم ١٧٤٧)، وزاد النسائي في الكبرى (٨٨٢٧): «أو له حاجة في الرجوع».

وقد جاء في حديث آخر تسميته بأنه يوشع بن نون عَلَيْهِ السَّلَامُ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الشمس لم تُحْبَس على بَشَر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس» (أخرجه أحمد ٨٣١٥).

قال ابن حجر: «قال المهلب: في هذا الحديث أن فِتَن الدنيا تدعو النفس إلى الهلع ومحبة البقاء؛ لأن مَن ملك بُضْع امرأة ولم يدخل بها، أو دخل بها وكان على قرب من ذلك فإن قلبه متعلِّق بالرجوع إليها، ويجد الشيطان السبيل إلى شغل قلبه عما هو عليه من الطاعة، وكذلك غير المرأة من أحوال الدنيا» (فتح الباري ٦/ ٢٢٣).

إن المقام مقام جد وعزيمة؛ فهم سيقاتلون القوم الجبارين، ولسلفهم سابقة في النكوص والتخلي، فلا يريد يوشع عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يصحبه إلا الجاد،

إلا الرجل الذي ليس له في الدنيا مطمع، وليس وراءه ما ينتظره أو تتعلق نفسه به.

حين يأتي الحديث عن الخُلُق تنصرف الأذهان دومًا إلى الرِّقة واللِّين، واللباقة في التعامل مع الناس، بل ربما عدَّ بعضهم من طيب الخلق ألا يقول الرجل لا، ولو كان المقام يقتضي ذلك، ولو كان ما يمنعه هو العجز والضعف، وليس حبّ الإحسان إلى الناس.

لا شك أن الرفق واللين، وأن حُسن التعامل مع الناس أساس من أُسُس الخلق، بل إنه الله يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف.

لكن ثمَّة أحوال تتطلب الحزم، وتقتضي الصرامة، وأن يقول الإنسان لا، وأن يتمسك بموقفه؛ فلكل مقام مقال.

كان خاتم النبيين ﷺ متحليًا بالحزم حين يقتضي المقام ذلك، ولم يكن هذا متعارضًا مع ما وصف به ﷺ من الرفق واللين.

وصفه -تبارك وتعالى- باللين مع أصحابه فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

ووصفه -سبحانه- بأنه يعز عليه ﷺ عَنَتُ أمته، فقال ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).



ومع ذلك فقد أخذ أصحابه بالعزيمة في غزوة تبوك، فعزم عليهم ﷺ المسير في وقت اشتداد الحر، وساعة العسرة ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١١٧)، وساءل ﷺ مَن تخلف من أصحابه، وعاقَب الثلاثة الذين خُلِّفُوا، وأمر أصحابه -رضوان الله عليهم- بهجرهم حتى نزلت توبتهم من الله ﷻ.

وكان ﷺ أرفق الناس بأهله وزوجاته، حتى قال عنه جابر ﷺ في تعامله مع عائشة حين سألته العمرة بعد الحج -مع أنها كانت قارنة ﵂، قد جمع الله لها بين أجر الحج والعمرة-: «وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويت الشيء تابعها عليه» (أخرجه مسلم ١٢١٣).

ومع ذلك فحين اقتضى المقام الحزم مع نسائه -وعلى رأسهن عائشة- كان حازمًا ﷺ، عن عائشة أم المؤمنين ﵂، أنها قالت: إن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «مروا أبا بكر يصلي بالناس» قالت عائشة: قلت: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمُرْ عمر فليصلِّ للناس، فقالت عائشة: فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمُرْ عمر فليصلِّ للناس، ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: «مه إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل للناس»، فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب

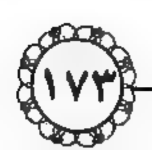


منك خيرًا (أخرجه البخاري ٦٧٩، ومسلم ٤١٨)، وجاء في رواية مسلم: أن عائشة قالت: «والله، ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ».

ثمة مقامات عدة تقتضي الحزم في التعامل معها ولو سخط الناس، فمن ذلك انتهاك حرمات الله ﷻ، وكان ﷺ من أشد الناس حزمًا في ذلك، عن عائشة رضي الله عنها قال: قَدِمَ رسول الله ﷺ مِن سَفَر، وقد سَترتُ بِقِرَامٍ لي على سَهْوَةٍ لي فيها تماثيلُ فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه، وقال: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله»، قالت: فجعلناه وسادة، أو وسادتين. (أخرجه البخاري ٥٩٥٤، ومسلم ٢١٠٧). وفي رواية مسلم: «فتلوَّن وجهه، ثم تناول الستر فهتكه».

ومما يقتضي الحزم تمادي الأمر، وامتداده، والخشية بأن يتَّسع؛ فالحزم في مثل هذا الموقف يغلق الباب، وقد كان ﷺ حازمًا حين ضربت نساؤه أخبيتهن في المسجد، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ أراد أن يعتكف، فلما انصرف إلى المكان الذي أراد أن يعتكف، إذا أخبية: خباء عائشة، وخباء حفصة، وخباء زينب، فقال: «آلبرَّ تقولون بهن؟» ثم انصرف، فلم يعتكف حتى اعتكف عشرًا من شوال. (أخرجه البخاري ٢٠٣٤، ومسلم ١١٧٣).

لقد ترك النبي ﷺ هذه العبادة العظيمة، وهي الاعتكاف في العشر الأواخر؛ إنكارًا لما فعله أزواجه -رضوان الله عليهن-، قال ابن حجر:



«وفيه ترك الأفضل إذا كان فيه مصلحة» (فتح الباري ٤/ ٢٧٧).

وتحكي أم المؤمنين عائشة ﵂ صورة من الحزم لدى أبيها الصديق، وخليفته عمر -رضي الله عنهم أجمعين-، فتقول: قُبض النبي ﷺ فارتدت العرب، واشرأب النفاق بالمدينة، فلو نزل بالجبال الرواسي ما نزل بأبي لهاضها، فوالله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بحظها وعنائها في الإسلام، وكانت تقول مع هذا: ومن رأى عمر بن الخطاب عرف أنه خلق غَنَاء للإسلام، كان والله أحوزيًّا، نسيج وحده، قد أعَدَّ للأمور أقرانها. (فضائل الصحابة لأحمد ٦٨، الطبراني في الصغير ١٠٥١، والأوسط ٤٣١٨).

وقيل لمعاوية بن أبي سفيان: «إنا نراك تقدم حتى نقول يُقتل، وتتأخر حتى نقول لا يرجع فقال: أتقدّم ما كان غُنمًا، وأتأخر ما كان التأخر حَزمًا». (الخرائطي ٧٧٨).

ومن صور ما ينبغي حسمه وقطعه: التمادي في الجدل، أو استمرار المراجعة بعد أن يتضح الأمر ويُحْسَم.

إن الناس بحاجة إلى الرفق واللين، وإلى مراعاة مشاعرهم، وهم أيضًا بحاجة إلى أن يتربوا على الجدية، وأن يدركوا أن لكل شيء حدًّا وقدرًا، وأن من الأمور ما لا ينبغي أن يكون ميدانًا للمساومة والأخذ والردّ.

ولذا نلمس لدى من فقدوا الحزم ترددًا في القرار، وتقلبًا في الرأي مع أتباعهم من أهلهم أو طلابهم، وضعفًا في مواقف تقتضي العزيمة والجد.

ومن أسوأ ما في الأخلاق الضعيفة أن تلبس لباس حُسْن الخُلُق؛



فالضعيف العاجز عن اتِّخاذ موقف حازم يقتضيه المقام ربما برر موقفه بأن هذا مقتضى الحلم والرفق واللين، أو برر له غيره ذلك.

وفي مقابل هذا هناك مَن تغلب عليه القسوة، ويتَّصف ببعض الفظاظة في خُلُقه وتعامله؛ فيفسِّر ذلك بأنه قوة في الحق، وأنه حزم على مَن يستحق ذلك.

إننا بحاجة لأن نرقب ردود الأفعال، وأن نحذر مِن أن نعالج الخطأ بخطأ يقابله؛ ففي بعض المجتمعات التي يسود فيها قَدْر من القسوة في التعامل مع الزوجة أو الأولاد، وتتحول العقوبة إلى أصل في التعليم وتقويم السلوك، في هذه المجتمعات يعلو الصوت الذي يدعو للرفق واللين، ويقف الموقف الرافض للعقوبة بأشكالها، ولا شك أن الرفق واللين أصل في التربية، ومنهج نبوي، وخُلُق ربانيّ، لكن مَن وُصف باللين ﷺ وهو أرفق الناس وأرقهم كان يحزم حين يقتضي الموقف ذلك.

وحين زادت حالات العلاقات المحرمة بين الجنسين، بالغ بعض المتحدثين في الشأن الأسري في دور ما يسمونه: الإشباع العاطفي، سواء ما يتصل بالزوجة، أو ما يتصل بالبنات، وانتقوا من مواقف الهدي النبوي ما يؤيد ما يدعون إليه.

وأصل الأمر صحيح؛ فالزوجة والبنت تحتاج إلى الصلة العاطفية، وإلى الاحتواء والرحمة، وكثير من البيئات يضعف فيها ذلك، إلا أن الخلل هو في تضخيم هذا الأمر من جهة دوره في تفسير حالات الخيانة

والعلاقة المحرمة، ومن جهة الدعوة إلى تغليبه على حساب التربية المتوازنة، والحزم فيما يقتضي ذلك.

ومما ينبغي العناية به فيما يتصل بخُلق الحزم أنه خُلُق حميد حين يُوضَع في موضعه، يهدف إلى تهذيب النفوس، وأخذها بالحق، وربما أَطْرها على ما يصلحها، ومنعها مما يفسدها؛ لذا فهو لا يعني القسوة والغلظة، فضلاً عن سلاطة اللسان والألفاظ النابية؛ فالحازم هو من يقول (لا) حين يتطلب الأمر ذلك، ويُصِرّ على ما يطلبه، أو يطلب الالتزام بأمر لا بد منه، لكن ليس بالضرورة أن يكون قاسيًا عنيفًا في ذلك.

الوالد الحازم يوقظ ولده للصلاة، ويكون صارمًا في الأمر؛ فيدرك الولد ألا مناص من الاستجابة، ويضطر للاستيقاظ رغم داعي النفس للاستسلام للنوم، لكن هذا الحزم ليس بالضرورة مقرونًا برفع الصوت، فضلاً عن الألفاظ التي لا تليق.

وقد نهى ﷺ عائشة رضي الله عنها عن الفحش مع أشد الناس عداوة للمؤمنين، عن عروة بن الزبير، أن عائشة، رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله» فقلت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «قد قلت: وعليكم» (أخرجه البخاري ٦٠٢٤، ومسلم ٢١٦٥).



كما أن الحزم لا يعني سرعة الغضب، والانفعال لأتفه الأمور؛ فالغاضب يتصرف غالبًا استجابة لغضبه، وانسياقًا وراء انفعاله، وليس اقتناعًا بأن الموقف يتطلب ذلك.

ولا يسلم الإنسان من الغضب فيما يقتضي ذلك أو لا يقتضي؛ فهو بشر مجبول على النقص، لكنه حين يسود فهو أمارة على استيلاء الغضب وفَقْد الحلم، وليس على الحزم الممدوح.

ومن أسوأ حيل الدفاع النفسي التي يمارسها الإنسان أن يسوِّغ صفاته السلبية، ويضع قصوره الخُلقي في قالب مقبول فيسمِّي الغضب والقسوة حزمًا، والضعف رفقًا، والتهور شجاعة، والجبن حكمة.

والحزم كغيره من الأخلاق البشرية إنما يُطلب في موضعه؛ فكما أن من الأحوال ما لا يَليق بها إلا الحزم، فثمة أحوال عدة تقتضي المرونة، واصطناع الحزم فيها تصلّب في غير موضعه.

ويكثر ذلك لدى بعض الرجال مع زوجاتهم؛ فيرون أن تنازلهم عما طلبوه، أو موافقتهم للزوجة فيه خدش للرجولة، ونقص في الكرامة، وفيه دعوة لها مستقبلاً للإصرار على مطالبها، وربما مارس الأب ذلك مع أولاده، والزوجة مع زوجها.

والعاقل المتحلي بمحاسن الأخلاق يتنازل حين يتضح له أن المقام يقتضي المرونة والتنازل، ويرجع عن رأيه حين لا يرى التمسك به فضيلة.



» لم يكذب إبراهيم

» إنه كان صادق الوعد

» وما أريد أن أخالفكم

لم يكذب إبراهيم

عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام، قط إلا ثلاث كذبات؛ ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (الصافات:٨٩)، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ (الأنبياء:٦٣)، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام؛ فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، أتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها فأُتِيَ بها فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يُطلق يدي ولا أضرّك، ففعلت، فعاد، فقُبِضَت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد، فقُبِضَت أشد من القبضتين الأوليين، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي، فلك الله أن لا أضرك، ففعلت، وأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي، وأعطها هاجر. قال: فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف، فقال لها: مهيم؟ قالت: خيرًا، كفَّ الله يد الفاجر، وأخدم خادمًا» قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء. (أخرجه مسلم ٢٣٧١، والبخاري

٣٣٥٧ مختصرًا، ورواه قريبًا من هذا السياق موقوفًا على أبي هريرة ٣٣٥٨).

إن هذا الحديث النبوي ينطق بالشهادة بالصدق المطلق لخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، أما هذه الثلاث الواردة في الحديث فاثنتان في ذات الله عز وجل، والثالثة لاستنقاذ عرض زوجته الكريمة -عليها السلام-.

وأسهب الحافظ ابن حجر في توجيه تلك الكذبات فقال: «وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة؛ فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذبًا، لكنه إذا حقَّق لم يكن كذبًا؛ لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين، فليس بكذب محض، فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، يحتمل أن يكون أراد إني سقيم أي سأسقم، واسم الفاعل يُستعمل بمعنى المستقبل كثيرًا، ويحتمل أنه أراد أني سقيم بما قدر عليَّ من الموت، أو سقيم الحجة على الخروج معكم، وحكى النووي عن بعضهم أنه كان تأخذه الحمى في ذلك الوقت، وهو بعيد لأنه لو كان كذلك لم يكن كذبًا لا تصريحًا ولا تعريضًا. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ قال القرطبي: هذا قاله تمهيدًا للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة، وقطعًا لقومه في قولهم إنها تضر وتنفع، وهذا الاستدلال يتجوز فيه في الشرط المتصل، ولهذا أردف قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾، قال ابن قتيبة: معناه: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا، فالحاصل أنه مشترط بقوله: إن كانوا ينطقون، أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب، وعن الكسائي: أنه كان يقف عند قوله: بل فعله، أي فعله من فعله كائنًا من كان، ثم يبتدئ

كبيرهم هذا، وهذا خبر مستقل، ثم يقول: فاسألوهم إلى آخره، ولا يخفى تكلُّفه. وقوله: هذه أختي: يعتذر عنه بأنَّ مراده أنها أخته في الإسلام» (فتح الباري ٦/ ٣٩١-٣٩٢).

ومع أن هذه الكذبات في ذات الله، ولحماية عرض زوجه الشريفة إلا أنه عليه السلام يعتذر يوم القيامة عن الشفاعة لأجلها؛ ففي حديث الشفاعة المشهور يقول عليه السلام: «إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات...» (أخرجه البخاري ٤٧١٢، ومسلم ١٩٤).

حمَلة الرسالة ودعاة الإصلاح بشر لا ترفعهم النبوة عن البشرية، وإن كانوا في أعلى مقاماتها، ومهما بلغ البشر من التسامي الخلقي فلن يصلوا إلى درجة الكمال، ولن يسلموا من قصور في أخلاقهم.

إلا إن الكذب من حَمَلة الدعوة والرسالة أمرٌ لا يمكن قبوله واحتماله، وفي حديث مرسل عن صفوان بن سليم أنه قال قيل لرسول الله ﷺ:أيكون المؤمن جبانًا؟ فقال: «نعم»، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: «نعم» فقيل له: أيكون المؤمن كذابًا؟ فقال: «لا». قال ابن عبدالبر: «لا أحفظ هذا الحديث مسندًا من وجه ثابت، وهو حديث حسن مرسل» (الاستذكار ٨/ ٥٧٥).

ويشرح ابن عبدالبر المراد بالحديث بقوله: «ومعناه: أن المؤمن لا يكون كذابًا، والكذاب في لسان العرب مَن غلب عليه الكذب، ومَن شأنه

الكذب فيما أبيح له وفيما لم يبح، وهو أكثر من الكاذب؛ لأن الكاذب يكون لمرة واحدة، والكذَّاب لا يكون إلا للمبالغة والتكرار، وليست هذه صفة المؤمن، وأما قوله: إن المؤمن قد يكون بخيلاً، وقد يكون جبانًا: فهذا معلوم بالمشاهدة، معروف بالأخبار والمعاينة، ولكن ليس البخل ولا الجبن من صفات الأنبياء، ولا الجلة من الفضلاء؛ لأن الكرم والسخاء من رفيع الخصال، وكذلك النجدة والشجاعة وقوة النفس على المدافعة إذا كان ذلك في الحق، ألا ترى إلى قول النبي ﷺ يوم حنين: ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جبانًا» (الاستذكار ٨/ ٥٧٥-٥٧٦).

وربما يكون في نفس الداعي إلى الخير، أو العالم وطالب العلم شيء من الحرص على المال، فيمسك بعض ما لا يسوغ من مثله إمساكه، أو يحجم عما لا ينبغي لمثله أن يحجم عنه، أما الكذب فلا يمكن احتماله؛ فحين يكذب المتصدِّي للتعليم أو الدعوة والإصلاح يفقد مصداقيته ومشروعيته لدى الناس.

قال ابن حجر: «قال ابن عقيل: دلالة العقل تَصْرِف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم؛ وذلك أن العقل قطَع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقًا به؛ ليعلم صدق ما جاء به عن الله، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه؟ وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع» (فتح الباري ٦/ ٣٩٢).

ولئن كان الكذب الصريح -الذي يتضمن تعمُّد الإخبار بغير الواقع- أمر يندر وجوده من الدعاة والمتصدين لتعليم الناس وتوجيههم، إلا أن



هناك صورًا من القصور في الصدق تقدح في مصداقية الداعية وطالب العلم، وربما تقود إلى اتهامه بالكذب.

والحَرِيّ بالقدوات أن يكونوا نماذج تُحْتَذَى في الصِّدق وتحرِّيه؛ فلا يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقًا.

ومِن تحرِّي الصِّدق تمحيص ما يتحدَّث فيه الداعية وطالب العلم من الأخبار والحوادث وبالأخص المعاصر منها؛ فبعض الأخبار تستهوي المتحدث والواعظ لما يرى فيها من عبرة وعظة؛ فيبادر بنشرها والاستشهاد بها، وقد حذَّر ﷺ من التساهل في التحديث بكل ما يسمعه الشخص، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذبًا أن يُحدِّثَ بكلِّ ما سمع» (أخرجه مسلم ٥)، وأخرجه موقوفًا عن عمر بن الخطاب ﵁ بلفظ: «بِحَسْبِ المرء من الكذب أن يُحَدِّث بكل ما سمع».

قال النووي: «وأما معنى الحديث والآثار التي في الباب: ففيها الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان؛ فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدَّث بكل ما سمع فقد كذَب؛ لإخباره بما لم يكن، وقد تقدَّم أن مذهب أهل الحق أن الكذبَ الإخبارُ عن الشيء بخلاف ما هو، ولا يُشترط فيه التعمد، لكنَّ التعمد شرط في كونه إثمًا، والله أعلم» (شرح صحيح مسلم ١/ ٧٥).

وحين يسمع الناس الحديث عن هذه الأخبار ونحوها، فكثير منهم يتهم المتحدث بتعمُّد الكذب لتسويق مقاله، أو البحث عن الشهرة.

ومن حكمة الداعية وتحرِّي الصدق أن يتجنَّب الغرائب التي قد يُنكرها الناس؛ فتأثيرها قد لا يوازي ردة فعل سماع الناس لها، قال علي رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس، بما يعرفون أتحبُّون أن يُكذَّب الله ورسوله» (أخرجه البخاري ١٢٧).

ومن تحرِّي الصدق: اعتناء الداعية بالصدق في الوعود التي يعطيها الناس؛ فقد تقوده العاطفة والرغبة في كسب الناس إلى التسامح في الوعد بما لا يملك من شفاعة أو قضاء حاجة؛ فلا يستطيع الوفاء بذلك؛ فقد يُتَّهَم حينها بالكذب، وإخلاف الوعد.

ومن تحرِّي الصدق: الشجاعة في الاعتراف بالتقصير وتحمُّل تَبِعَة الخطأ عند حدوثه، وبخاصة حين يكون صاحب سلطة ومسؤولية.

ومما لا يليق بالمنتسب للعلم والدعوة أن يتكلف تبرير مواقفه التي لم يُوَفَّق فيها، وأشد من ذلك تحويل النقد الموجَّه له إلى اعتبارات شخصية، واتهام مَن ينتقده بسوء النية.

كل ذلك إنما يتحقَّق من خلال الصدق الداخلي؛ صِدْق القلب، والاجتهاد في تحرِّي الحقيقة والحديث عنها، والتخلُّص من حظوظ النفس.





إنه كان صادق الوعد

قال تعالى عن نبيه وعبده إسماعيل عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ (مريم: ٥٤).

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذِكْره لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد في الكتاب إسماعيل بن إبراهيم، فاقصص خبره إنه كان لا يكذب وعده، ولا يخلف، ولكنه كان إذا وعد ربه، أو عبدًا من عباده وعدًا وفَّى به». (تفسير الطبري ١٨/ ٢١١).

وفسَّر بعض المفسرين ذلك بأنه فيما بينه وبين ربه، روى ابن جرير بإسناده عن ابن جريج أنه قال: «لم يَعِد ربَّه عِدَة إلا أنجزها» (تفسير الطبري ١٨/ ٢١١).

وفسَّر ابن كثير عبارة ابن جريج بقوله: «ما التزم قط عبادة بنذر إلا قام بها، ووفاها حقها» (تفسير ابن كثير ٥/ ٢٣٨).

وقال بعضهم: إنه عام فيما بينه وبين الله، وما بينه وبين الناس، قال ابن الجوزي: «هذا عامّ فيما بينه وبين الله، وفيما بينه وبين الناس» (زاد المسير ٣/ ١٣٥).

أما وجه تخصيص إسماعيل عليه السلام بهذه الصفة، فقال الزمخشري: «ذكر إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد وإن كان ذلك موجودًا في غيره من

الأنبياء، تشريفًا له وإكرامًا، كالتلقيب بنحو: الحليم، والأوَّاه، والصدِّيق، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله» (الكشاف ٣/ ٢٣).

وقال ابن الجوزي: «فإن قيل: كيف خُصَّ بصدق الوعد إِسماعيل، وليس في الأنبياء من ليس كذلك؟ فالجواب: أن إِسماعيل عانَى في الوفاء بالوعد ما لم يُعانه غيره من الأنبياء، فأُثني عليه بذلك». (زاد المسير ٣/ ١٣٥).

قال ابن كثير: «ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبُّس بضدِّها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضًا، لا يَعِد أحدًا شيئًا إلا وفَّى له به، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: "حدَّثني فصدقني، ووعَدني فوفَّى لي" (أخرجه البخاري ٣١١٠ ومسلم ٢٤٤٩). ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق: مَن كان له عند رسول الله ﷺ عِدَة أو دَيْن فليأتني أنجز له، فجاءه جابر بن عبد الله، فقال: إن رسول الله ﷺ كان قال: "لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا"، يعني: ملء كفيه، فلما جاء مال البحرين أمر الصِّدِّيق جابرًا، فغرف بيديه من المال، ثم أمره بعدّه، فإذا هو خمسمائة درهم، فأعطاه مثليها معها (أخرجه البخاري ٤٣٨٣، ومسلم ٢٣١٤)» (تفسير ابن كثير ٥/ ٢٣٩).

قال إياس بن معاوية: «لأن يكون في فِعَال الرجل فَضْلٌ عن قوله أجمل من أن يكون في قوله فَضلٌ عن فِعَاله» (مكارم الأخلاق للخرائطي ٢٠٣).



صدق الوعد من أهم الأخلاق التي ينبغي أن يتحلَّى بها مَن يتصدَّى لتعليم الناس ودعوتهم، أو يقود مشروعات الإصلاح في المجتمعات.

طالب العلم والداعية يقصده كثيرٌ من الناس طالبين المساعدة وقضاء الحاجة، أو الشفاعة لهم لدى أهل اليسار والجِدَة، ومن تمام الخُلق ألا ينهر الإنسان السائل، أو يصرفه دون أن يلبِّي حاجته، فقد نهى الله -تبارك وتعالى- نبيه ﷺ بقوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾(الضحى:١٠).

والخجل من الاعتذار قد يقود صاحبه إلى أن يَعِد صاحب الحاجة، أو أن يقول له ما يشعره بالالتزام والوعد، وهو يعلم أنه لن يستطيع.

إن الوضوح مع الناس مطلب مهم، وهو جزء من صدق الرجل، والوضوح لا يعني اللغة الجافَّة، أو انتهار السائل، أو إشعاره بالانشغال بما هو أهمّ، أو وجود مصارف أولى، ونحو ذلك.

إن من صدق الوعد أن نُحْسِن استقبال السائل، أو طالب المساعدة والشفاعة، وأن نُشْعِره باهتمامنا بأمره، لكن مع ذلك أن نؤكِّد له أننا نعمل في حدود طاقتنا، وأن إمكاناتنا محدودة، بحيث يعذرنا حين لا نستطيع تلبية طلبه.

ومن أهم من يحتاج صدق الوعد من الدعاة والمصلحين من يشتغلون بالشأن العام، ويشاركون في الأعمال والمجالس العامة.

ترتبط بعض النشاطات العامة بإعطاء الوعود، وعرض برامج العمل لتسويق الفرد أو التكتل والاتجاه.



وقد تدعو حدة السباق أصحابها إلى الإفراط في الوعود، وإلى عرض برامج حالمة، ومشروعات فوق الطاقة، وحين يصل المرشح إلى الموقع لا يستطيع الوفاء بكثير مما وعَد.

وتتكرر الظاهرة في النقابات والاتحادات ونحوها مما يحتاج فيه الشخص إلى التسويق لنفسه.

إن الدعاة إلى الله ﷻ والمصلحين بحاجة إلى استحضار هذا المعنى والتحلي بصدق الوعد، وإلا فإنهم سيدفعون مقابل بعض المكاسب العاجلة ثمنًا باهظًا من سُمْعتهم، ونظرة الناس لدعوتهم ومقاصدهم.

ومما يحتاج فيه الداعية إلى استحضار الصدق في الوعد ما يتعلَّق بالمشاريع الخيرية والدعوية؛ فكثير من هذه المشروعات والبرامج تحتاج إلى دعم مادي، والداعم في الأغلب ينظر إلى العائد المتوقع من هذه البرامج ليختار بين ما يرى أنه أولى وأفضل في مصارف الصدقة أو الزكاة.

ويميل كثير من الدعاة وأهل الفضل إلى الحديث عن مشروعاتهم بإيجابية عالية لا تخلو من مبالغة في تصوُّر النتائج المتوقعة، ويوظفون ذلك في التسويق لدى المانحين، وحين يتحول المشروع من فكرة إلى واقع تبدو الفجوة واسعة وكبيرة بين الوعود وما تحقق على أرض الواقع.

إن الناس يُصْدِرُون أحكامًا قاسية على طالب العلم والداعية حين لا يرون منه صدق الوعد، حتى في حالات عديدة قد يكون الأمر خارج إرادته.

والأمر لا يقف عند وصف الداعية بخلق سيئ فحسب، بل إنه يمتد إلى الطعن في دعوته، وفي صدق تدينه، فيتَّهمونه باتخاذ الدعوة والتدين ستارًا لمقاصد خاصة، وأنه يبحث عن الدنيا والشهرة والسمعة، بل إن الأمر كثيرًا ما يتجاوز الشخص نفسه، إلى جعله نموذجًا للدعاة والصالحين؛ فتتسع دائرة الاتهام والتشكيك في النوايا، والطعن في المقاصد.

ومِن صُوَر صدق الوعد: أن يصدق الرجل الصالح في عَرْض صورته أمام الآخرين، ويحذر من أن يأخذ الناس منه -بلسان الحال أو المقال- وعودًا لا تتحقق، فربما تقدم بعض الصالحين لخطبة زوجة أخرى، فأعطاها أو أعطى أهلها وعودًا يعلم من نفسه أنه لا يقدر على الوفاء بها، ثم وضعهم أمام الأمر الواقع بعد ذلك معتذرًا بعدم قدرته، تاركًا لهم الخيار بين البقاء والفراق، وليس هذا عدلاً وإنصافًا؛ فحال المرأة بعد الطلاق ليست كحالها قبله.

طال حواري مع أحدهم دون جدوى، حتى قلت له: لو تقدم أحد لابنتك وهو على ما ذكرت عن نفسك فهل ترضى؟ فقال بغضب: لا، فقلت له: كيف تستبيح لنفسك ما لا ترضاه لبناتك من الغش والخداع؟

وفي ميدان العمل التجاري وما يتصل به، قد يعطي الرجل الصالح -بلسان حاله أو مقاله- وعودًا هو أعلم الناس أنه غير قادر على الوفاء بها.

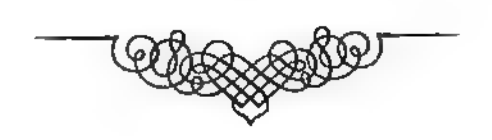
وربما يندرج تحت ذلك ما يقوله بعض الوُعَّاظ والدعاة في سياق الحثّ على التوبة والاستقامة؛ إذ يعدون التائب بتغير حياته كلها، وبأن

التوبة ستُنْهِي معاناته ومشكلاته، فتحلّ مشكلاته الأسرية، ويتحسَّن تحصيله الدراسي، وتزول أزماته النفسية.. إلخ.

يصوِّر بعضهم حياة الاستقامة بصورة وردية حالمة، يبنيها على منطق صارم لا يتناسب مع طبيعة الحياة الاجتماعية وتعقيداتها؛ فالرجل الصالح يتقي الله في أموره كلها، ويحفظ وقته، ويقدر المسؤولية، ويتصف بمحاسن الأخلاق، ويرعى الأمانة؛ فيجتهد في الدراسة، ويحسن لأهله، ويصدق في عمله... إلخ.

لكن الواقع ناطق بخلاف ذلك في حال فئة غير قليلة من الصالحين والمنتسبين للعلم والدعوة، فضلاً عن حديثي العهد بالاستقامة.

ينبغي أن يتَّسم خطاب الدعاة وطلبة العلم بالوضوح، والواقعية مع الناس، وأن الاستقامة مطلب شرعي لا خِيَار للإنسان في الاستجابة له أو تركه، وأنه يستقيم لأن الله يريد منه ذلك، لا لأجل أن تصلح حالته الشخصيَّة والأسريَّة، وأن على الإنسان أن يتحمل مسؤوليته عن حياته الشخصية، وحياته الاجتماعية، وأن التدين لا يُغْنِي الإنسان عن بذل الجهد في تغيير عاداته السيئة، واكتساب الخبرات والمهارات التي تُعِينه على النجاح في حياته.



وما أريد أن أخالفكم

يحدِّث شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه عن التزامه بما يقوله لهم، وأن فعله لا يخالف قوله، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨).

قال ابن جرير: «وما أريد أن أنهاكم عن أمر ثم أفعلُ خلافه، بل لا أفعل إلا ما آمركم به، ولا أنتهي إلا عما أنهاكم عنه» (تفسير ابن جرير ١٥/ ٤٥٣).

لقد عاب الله -تبارك وتعالى- على بني إسرائيل مخالفة فعلهم لمقالهم، فقال -سبحانه-: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ (البقرة: ٤٤).

قال ابن جرير رحمه الله -بعد أن سرد طائفة من الأقوال في معنى الآية: «وجميع الذي قال في تأويل هذه الآية من ذكرنا قوله متقارب المعنى؛ لأنهم وإن اختلفوا في صفة «البر» الذي كان القوم يأمرون به غيرهم، الذين وصفهم الله بما وصفهم به، فهم متفقون في أنهم كانوا يأمرون الناس بما لله فيه رضا من القول أو العمل، ويخالفون ما أمروهم به من ذلك إلى غيره بأفعالهم، فالتأويل الذي يدل على صحته ظاهر التلاوة إذا: أتأمرون الناس بطاعة الله وتتركون أنفسكم تعصيه؟ فهلا تأمرونها بما تأمرون به

الناس من طاعة ربكم؟ معيّرهم بذلك، ومقبّحا إليهم ما أتوا به» (تفسير ابن جرير ١/ ٩).

ونهى ﷻ المؤمنين عن التشبه بأهل الكتاب في مخالفة الفعل القول، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ (الصف:٢-٣).

وكان سيِّد ولد آدم ﷺ أكثر الناس التزامًا وتحليًا بما يدعو إليه، فحين خطب ﷺ الناس في الموسم قال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب...» (أخرجه مسلم ١٢١٨).

وحين تكلم الناس في شأن المخزومية التي سرقت مثَّل ﷺ بعُضْو شريف من امرأة شريفة جليلة من بيته الطاهر، فقال: «وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (أخرجه البخاري ٣٤٧٥، ومسلم ١٦٨٨).

وحين حثّهم ﷺ على حُسْن التعامل مع أهلهم بيَّن لهم أنه أولى الناس بتمثُّل ذلك، فقال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» (أخرجه الترمذي ٣٨٩٥).

إن أول أمارات صِدْق الداعي إلى الله ﷻ، وأول دلائل إيمانه الحقيقي

بما يدعو إليه: أن يتمثَّل ذلك في نفسه، وأن يتحلَّى بما يدعو إليه غيره؛ فالقول البليغ أمارة الفصاحة لا الصدق، وبإمكان الفصيح أن يتحدث أو يكتب ما يهزُّ المشاعر، ويحرك النفوس، ويسرق ألباب مَن يسمع ويقرأ، لكنَّ الداعية الصادق هو مَن يوافق فعلُه قولَه، وحالُه مقالَه.

ومن أعظم ما يصدُّ الناس عن قبول ما يدعوهم إليه الداعي، أو يفتيهم فيه الفقيه، أن يروا من عمله أو حاله ما يخالف قوله، وحال هؤلاء كما وصفهم ابن القيِّم: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أول المستجيبين له؛ فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قُطَّاع الطرق» (الفوائد ص٦١).

ونظر الناس لا يقف عند شخص الفقيه أو الداعية، بل هو يمتد إلى أهل بيته؛ إذ هم يرونهم أولى الناس بالاقتداء والتأسي به، وأن مِن صدقه في دعوته أن يبدأ بهم.

ولهذا سعت تلك التي سألت عبدالله بن مسعود ﷺ لمعرفة حال أهله؛ لترى مدى تمثُّله ما يقوله، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: « لَعَنَ اللهُ الواشماتِ والمستوشماتِ، والنامصاتِ والمتنمصاتِ، والمتفلجاتِ للحسنِ المغيِّراتِ خلقَ اللهِ. قال: فبلغ ذلك امرأةً من بني أسدٍ، يقال لها: أم يعقوبَ، وكانت تقرأُ القرآنَ، فأتتْه فقالت: ما حديثٌ بلغني عنك؛ أنك

لعنتَ الواشماتِ والمستوشماتِ والمتنمصاتِ والمتفلجاتِ للحُسْنِ المغيِّراتِ خلقَ اللهِ. فقال عبدُالله: وما لي لا ألعنُ مَن لعن رسولُ اللهِ ﷺ؟ وهو في كتابِ اللهِ. فقالت المرأةُ: لقد قرأتُ ما بين لوحي المصحفِ فما وجدتُه فقال: لئن كنتِ قرأتيهِ لقد وجدتيهِ، قال اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر:٧). فقالت المرأةُ: فإني أرى شيئًا من هذا على امرأتكَ الآنَ. قال: اذهبي فانظري. قال فدخلت على امرأةِ عبدِالله فلم ترَ شيئًا. فجاءت إليه فقالت: ما رأيتُ شيئًا. فقال: أما لو كان ذلك، لم نُجامعها. (أخرجه البخاري ٤٨٨٦).

وكان عمر ﷺ يبدأ بأهله في دعوتهم للالتزام بما يدعو الناس إليه، فعن سالم ﷺ قال: كان عمر إذا نهى الناس عن شيء جمع أهل بيته فقال: «إني نهيت الناس كذا وكذا، أو إن الناس لينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وايم الله، لا أجد أحدًا منكم فعله إلا أضعفت له العقوبة ضعفين» (أخرجه ابن أبي شيبة ٣٠٦٤٣).

وحذّر ﷺ أمته من مخالفة الفعل القول، فعن أبي وائل، قال: قيل لأسامة ﷺ لو أتيت فلانًا فكلمته، قال: إنكم لترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم، إني أكلمه في السر دون أن أفتح بابًا لا أكون أول مَن فتحه، ولا أقول لرجل أن كان عليَّ أميرًا: إنه خير الناس، بعد شيء سمعته من رسول الله ﷺ، قالوا: وما سمعته يقول: قال: سمعته يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيُلْقَى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار

برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه» (أخرجه البخاري ٣٢٦٧، ومسلم ٢٩٨٩).

وحَرِيّ بمن يتصدَّى لتعليم الناس، ودعوتهم، وبيان الحلال والحرام، ومحاسن الأخلاق والآداب، أن يبدأ بنفسه، ويبذل جهده في إصلاحها، وتهذيبها، والبعد عما يشينها.

قال ابن جريج في تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة:٤٤): «أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، ويَدَعُونَ العمل بما يأمرون به الناس، فعيَّرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة». (تفسير ابن جرير ١/ ٨).

وحَرِيّ به دوام محاسبة نفسه ولومها، والتأمل في واقعه؛ فذلك أحرى لأن يوافقَ فعلُه قولَه، قال أبو الدرداء ﷺ: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يَمْقُت الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا». (تفسير ابن جرير ١/ ٨).

وكل ما ازداد التفات الداعية لنفسه، ومحاسبته إياها، ظهر أثر ذلك في صلاح حاله، واستقامة أمره، وأدرك حاجته لمزيد من تزكية نفسه وإصلاحها، فحزم مع نفسه في البعد عن محارم الله ﷻ، والاجتهاد في التقرب إليه.

والأمر يحتاج لجوءً إلى الله -سبحانه-، واستعانة به وحده، والإيمان

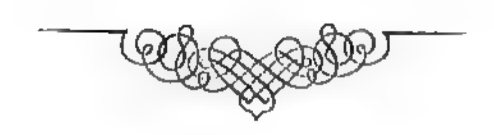
بأن العبد لا يستغني عن معونته، وتوفيقه وتسديده. قال السعدي عن مقولة شعيب عليه السلام: «ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس، دفع هذا بقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير، والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي» (تفسير السعدي ص ٣٨٧).

ومع أهمية اعتناء الداعية بالعمل بما يدعو إليه، والتحلّي بما يأمر الناس به، فليحذر من مداخل الشيطان؛ إذ قد يزين له التخلي عن دعوة الناس وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لئلا يقع في مغبَّة مخالفة القول والفعل.

وقد تناول هذه الحيلة النفسية ابن كثير؛ فقال في تفسيره لآية البقرة: «والغرض أن الله -تعالى- ذمَّهم على هذا الصنيع ونبَّههم على خطئهم في حق أنفسهم؛ حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمّهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب، عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود:٨٨). فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف، وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة



لهم فيها. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه، قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير يقول له: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. وقال مالك-وصدق-: من ذا الذي ليس فيه شيء؟ قلت: ولكنه -والحالة هذه- مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس مَن يعلم كمن لا يعلم؛ ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك. (تفسير ابن كثير ١/ ٢٤٧).





- لأَوَّاهٌ حليـم
- أو ليأتيني بسلطان مبين
- فتحسسوا من يوسف

لأواه حليم

وصف الله ﷻ خليله ونبيه إبراهيم عليه السلام بالحلم في موضعين في كتابه:

الموضع الأول: في قصته عليه السلام مع الملائكة حين أخبروه بعذاب قوم لوط، فصار يجادلهم في ذلك، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ (هود: ٧٤ - ٧٥).

جاءت الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام في صورة ضيوف، فأكرمهم، وأحسن وفادتهم، وحين لم يأكلوا من طعامه تسلَّل له الخوف؛ ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾(هود:٧٠). وبشَّروا زوجته بإسحاق ويعقوب، وزال عن خليل الرحمن الرَّوع والخيفة، فعاد ليجادل رسل الله في شأن قوم لوط، غلبه حلمه وشفقته.

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره: إن إبراهيم لبطيء الغضب متذلل لربه خاشع له، منقاد لأمره، منيب رجاع إلى طاعته». (تفسير ابن جرير ١٢/ ٤٩٣).

الموضع الثاني: في قصته مع أبيه، حين وعده بالاستغفار له، ثم تبرأ

منه بعد تبين عداوته، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٤).

يقفز الذهن حين يأتي الحديث عن خُلُق الحلم إلى الصبر على ما يلقاه الإنسان من إيذاء الآخرين له، سواء أكان الإيذاء بدنيًا أم نفسيًا، وهذا باب من أبواب الحلم أثنى الله على أهله ووعدهم الأجر العظيم، فقال -سبحانه-: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣-١٣٤).

لكن حلم خليل الرحمن كان من نوع آخر، إنه حلم الداعية الحريص على هداية الناس، فلا يستطيل الطريق، ولا يدركه اليأس، ويتحلَّى بالأمل والتفاؤل بصلاح الحال وتغير المدعوين، ويبقى ذلك الأمل حاديًا له، ودافعًا له لبذل مزيد من الجهد.

الحلم خُلُق الأنبياء:

على خطى خليل الرحمن كان سيد ولد آدم ﷺ، فقد آذاه أهل مكة، وردوا دعوته، وعذَّبوا أتباعه، وبذلوا جهدهم في صدّ الناس عنه.

حينها خرج ﷺ ليبحث عن ميدان آخر، ولعله يجد مَن يقبل دعوته وينصره، خرج ﷺ ماشيًا إلى الطائف، فكان من أمرهم ما حدَّث به ﷺ زوجته عائشة رضي الله عنها وهي تسأله عن أشد ما لقي من قومه.

فعن عروة، أن عائشة رضي الله عنها؛ زوج النبي ﷺ، حدَّثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُد، قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا» (أخرجه البخاري ٣٢٣١، ومسلم ١٧٩٥).

ووصف الله عز وجل بعض أنبيائه بالحلم، فوصف بذلك إسماعيل عليه السلام، وقرن هذه الصفة بالبشارة به، فقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠١).

وأخبر -تعالى- عن قوم شعيب أنهم وصفوا نبيهم بذلك، فقال -سبحانه-: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ (هود:٨٧).

وأما ما جاء في القرآن في بيان اتِّصاف الأنبياء بخُلُق الحلم من جهة المعنى لا اللفظ فعديدٌ، ومن ذلك إخباره تعالى بأنَّ الأقوام السابقين قد

توافقوا على الإساءة للأنبياء وإيذائهم حتى كأنهم قد تواصوا وتآمروا بذلك، قال -سبحانه-: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ (٥٤) وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٢-٥٥).

وبيَّن الله ﷻ لنبيه ﷺ أن طريقه هو طريق الأنبياء من قبل، قال ﷻ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ (فصلت:٤٣).

وقد تمثَّل ﷺ هذا المعنى، وتذكَّر حال إخوانه الأنبياء وهو يتحلَّى بالحلم والصبر، فقال: «رحم الله موسى قد أُوذي بأكثر من هذا فصبر» (أخرجه البخاري ٣١٥٠، ومسلم ١٠٦٢).

حلم الأنبياء مرتبة سامية:

هذا الحلم من الأنبياء ليس خُلُق الخلاص من التَّبِعَة، والتنصُّل من المسؤولية، إنه حِلْمٌ يصحبه جهد في الدعوة، وتضحية وبذل، وهكذا فغيرة الأنبياء على محارم الله ﷻ يقترن بها الحرص على هداية الناس، والخوف عليهم من عقوبة الله ﷻ، حتى جادل إبراهيم عليه السلام ملائكة الرحمن في ذلك.

إن حِلْم أنبياء الله -صلوات الله وسلامه عليهم-، مرتبة أعلى، فمن يحلم على إساءة الناس لذاته وشخصه يحتاج إلى دافع الحِلْم والصبر عن الانتقام، أما حلم الداعية فهو يتطلَّب أمرين:

أولهما: الانتصار على داعي النفس بالبحث عن حظّها وحقها، والتشفي ممن أساء حين دُعي إلى الله.

والثاني: ضبط الغيرة بميزان الحلم والصبر، فقليل هم الذين ينتصرون على أنفسهم في مثل هذه الحال؛ إذ دافع الغيرة قد يقود صاحبه إلى الإغلاظ على صاحب الخطيئة والقسوة في ردة الفعل، وربما صحب ذلك الدعاء عليه، وسؤال الله إهلاكه، والإشكال في ذلك اختلاط هذه الغيرة بجوانب ضعف النفس، وعدم القدرة على الاحتمال.

ولو كان مَن يقع في ذلك مدركًا لقصوره، وضعفه البشري لهان الأمر، لكنه ينظر إليه على أنه قوة في الدين، وعزم في الحق، ومن ثَمَّ ينظر إلى من خالفه على أنه متساهل، ومتهاون في شأن الدين، ضعيف الحمِيَّة، متبلِّد الإحساس.

ومن هنا تأتي الحاجة إلى الوعي بأخلاق الأنبياء، والتعمُّق في فقه منهجهم.

دعاة اليوم أحوج إلى الحلم:

من المهم أن يَعِي المصلحون والمنتسبون للدعوة الفارق الكبير بين حال المدعوين اليوم، وحال المدعوين من أقوام الأنبياء السابقين.

إن الدعاة والمصلحين اليوم ليسوا أمام أمة ضالة منحرفة بكل الاعتبارات، وليس ميدان اختلافهم مع الناس ميدانَ حق ناصع يقابل بباطل ظاهر واضح، إنه واقع يختلط فيه الحق بالباطل، وتتسع فيه المنطقة

الرمادية، ويختلف مع الدعاة والمصلحين طائفة لا تنقصهم الديانة والتعبد، بل ربما كان بعضهم أكثر تنسكًا وتعبّدًا من كثير من الدعاة.

ولا يقف الأمر عند الاختلاف بين الدعاة وعامة المسلمين، بل في الوسط الدعوي ساحة واسعة من التهارج والاختلاف، تتجاوز الاختلاف في الرأي والاجتهاد إلى التشكيك في النوايا، والطعن في المقاصد.

في هذه الساحة الملتهبة اليوم ليس كلّ مَن يعادِي فلانًا مَن الناس هو بالضرورة مُعَادٍ للدعوة والدعاة، ولا من يستهدفه هو مستهدف للدعوة.

وإذا كان حلم قدواتنا- الذين هداهم الله وزكاهم وأمرنا بالاقتداء بهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ (الأنعام:٩٠)- قد وسع المشركين الضالين المعادين لدعوة التوحيد الناصعة، فحَرِيّ بمن يتأسّى بهم أن يسع حلمه من هو دون أولئك بكثير.

أما الحلم على الجهلة ومن يسيئون الخُلُق فقد كان له ﷺ القدح المعلّى والنصيب الأوفر في ذلك، يَفِد إليه الصغير والكبير، والخاصة والعامة، المؤمن التقي والذين لما يدخل الإيمان في قلوبهم.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبَذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثَّرت بها حاشية البرد من شدة جبْذَته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي مِن مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمَرَ له بعطاء. (أخرجه البخاري ٥٨٠٩، ومسلم ١٠٥٧).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه، فأغلظ فهمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه؛ فإن لصاحب الحق مقالاً»، ثم قال: «أعطوه سنًّا مثل سِنّه»، قالوا: يا رسول الله، إلا أمثَل مِن سِنّه، فقال: «أعطوه؛ فإن مِن خيركم أحسنكم قضاءً» (أخرجه البخاري ٢٣٠٦، ومسلم ١٦٠١).

وممن وسعهم حِلْم النبي ﷺ أولئك الذين أوتوا حرصًا على الديانة ولم يؤتوا فقهًا وعلمًا، لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ أناسًا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب فآثرهم يومئذ في القسمة، قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أُرِيدَ بها وجه الله، فقلت: والله لأخبرن النبي ﷺ، فأتيته، فأخبرته، فقال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى قد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبَر» (أخرجه البخاري ٣١٥٠، ومسلم ١٠٦٢).

ولم يكن حلمه ﷺ قاصرًا على المؤمنين من أمته، بل وسِع أشد الناس عداوة للمؤمنين، فعن عائشة رضي الله عنها: أن اليهود أتوا النبي ﷺ، فقالوا: السام عليك، قال: «وعليكم» فقالت عائشة: السام عليكم، ولعنكم الله وغضب عليكم، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف، أو الفحش». قالت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: «أولم تسمعي ما قلت، رددت عليهم، فيُستجاب لي فيهم، ولا يُستجاب لهم فيَّ» (أخرجه البخاري ٣٤٠١، ومسلم ٢١٦٥).

ومع حلمه ﷺ وتمثُّله لهذا الخلق العظيم فقد كان يأمر أصحابه بالحلم،



ويحثهم عليه، فعن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسِفُّهُمُ المَلَّ ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمتَ على ذلك» (أخرجه مسلم ٢٥٥٨).

ويثني ﷺ على مَن اتصف بالحلم، ويخبر عن محبة الله ﷻ لهذه الصفة، فقال للأشج أشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله؛ الحلم، والأناة» (أخرجه مسلم ١٧).

يتسلل الشيطان كثيرًا إلى الشباب السالكين في طريق الدعوة، فيضخِّم لديهم ما يلقونه من جفاء من الآخرين، أو إساءة مقصودة وغير مقصودة، ويمتد الأمر إلى رَسْم صورة عالية لأنفسهم، يتوقعون أن يتعامل الناس معه على أساسها، وربما تكلَّفوا قدرًا من الوقار والهيبة، وقد يصل الأمر إلى عتاب ولوم على ما يراه هؤلاء تقصيرًا في حُسن الاستقبال والتعامل اللائق بمثلهم.

الداعية السائر على منهج الأنبياء بحاجة إلى نكران الذات، والتحلي بالحلم والصبر والتواضع.

وحتى نكون واقعيين لا بدَّ أن نستحضر أن كمال الخُلُق لدى الناس أمر متعذّر؛ فالأخلاق رُتَبٌ ومنازل، ولا يمكن أن يصل آحاد الناس إلى مقام الأنبياء والقدوات الأعلام، وما يتوقع من طلبة العلم ليس كما



يتوقع من العلماء، لكن لا يليق بهم خُلُق العامة، وهكذا فالناس مراتب في الخُلُق، كما أنهم مراتب في التعبُّد والديانة.

وفرق بين أن نعذر الناس، ونكون واقعيين فيما نتوقعه منهم، وبين أن نسوِّغ واقعهم ونبرِّره.

قال محمد الغزالي: تتفاوت درجات الناس في الثبات أمام المثيرات، فمنهم من تستخفه التوافه فيستحمق على عجل، ومنهم مَن تستفزه الشدائد فيبقى على وقعها الأليم محتفظًا برجاحة فكرة وسجاحة خلقه[1].

ومع أن للطباع الأصيلة في النفس دخلاً كبيرًا في أنصبة الناس من الحدة والهدوء، والعجلة والأناة، والكدر والنقاء، إلا أن هناك ارتباطًا مؤكدًا بين ثقة المرء بنفسه وبين أناته مع الآخرين، وتجاوزه عن خطئهم، فالرجل العظيم حقًّا كلما حلَّق في آفاق الكمال اتسع صدره، وامتد حلمه، وعذر الناس من أنفسهم، والتمس المبررات لأغلاطهم! فإذا عدا عليه غرٌّ يريد تجريحه، نظر إليه من قمته كما نظر الفيلسوف إلى صبيان يعبثون في الطريق وقد يرمونه بالأحجار. وقد رأينا الغضب يشتط بأصحابه إلى حدّ الجنون، عندما تقتحم عليهم نفوسهم، ويرون أنهم حُقِّروا تحقيرًا لا يعالجه إلا سفك الدم. أفلو كان الشخص يعيش وراء أسوار عالية من فضائله يحسّ بوخز الألم على هذا النحو الشديد؟ كلا» (خُلق المسلم ص٩٩).

---

(١) سجاحة الخلق: لينه وحسنه.



وقال: «ومِن الناس مَن لا يسكت عنه الغضب، فهو في ثورة دائمة، وتغيُّظ يطبع على وجهه العُبُوس، إذا مسَّه أحد ارتعش كالمحموم، وأنشأ يُرغي ويزبد، ويلعن ويطعن، والإسلام بريء من هذه الخلال الكَدِرَة. قال رسول الله ﷺ: "ليس المؤمن بطعَّان ولا لعَّان ولا فاحش ولا بذيء". واللعن من خصال السفلة، والذين يستنزلون اللعنات على غيرهم لأتفه الأسباب يتعرضون لبلاء جسيم، بل إن المرء يجب أن يتنزه عن لعن غيره، ولو أصابه منه الأذى الشديد. وكلما ربا الإيمان في القلب رَبَتْ معه السماحة وازداد الحلم، ونفر المرء من طلب الهلاك والغضب للمخطئين في حقه» (خلق المسلم ١٠٣).

الحلم انتصار على الذات:

اكتساب الحلم لا يتحقق بمجرد الإيمان بأهميته، ولا بسماع المواعظ عن فضائله، وغاية المعرفة المتصلة بالحلم أن تُنَمِّي إدراك الشخص لأهميته، وتعزِّز لديه فضيلته، أما تمثله فيحتاج إلى جهد وترويض للنفس.

الحلم صراع مع دافع الغضب، وقدرة على الانتصار عليه، لذا أثنى ﷺ على مَن يملك نفسه حين يشتد غضبه، عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» (أخرجه البخاري ٦١١٤، ومسلم ٢٦٠٩).

والحليم ليس هو من لا يجد دافع الغضب، بل من ينتصر عليه، سأل

ﷺ أصحابه: «ما الصرعة؟» قالوا: الصريع، قال: فقال رسول الله ﷺ: «الصرعة كل الصرعة، الصرعة كل الصرعة، الرجل يغضب فيشتد غضبه، ويحمر وجهه، ويقشعر شعره، فيصرع غضبه» (أخرجه أحمد ٢٣١١٥).

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ مرَّ بقوم يصطرعون فقال: ما هذا؟ قالوا: يا رسول الله، هذا فلان الصريع ما يصارع أحدًا إلا صرعه، فقال رسول الله ﷺ: ألا أدلكم على من هو أشد منه: رجل ظلمه رجل فكظم غيظه فغلبه، وغلب شيطانه، وغلب شيطان صاحبه» (أخرجه البزار ١٣/ ٤٧٥).

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله ﷻ من جرعة غيظ، يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى» (أخرجه أحمد٦١١٤).

ومعالجة النفس وتكلُّف الحلم في البداية يكسبها صفته، ويحوله إلى سجية بعد أن كان تكلُّفًا، عن أبي الدرداء ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، من يتحرى الخير يعطه، ومَن يتق الشر يوقه» (أخرجه الطبراني في الأوسط ٢٦٦٣).

كان الأحنف إذا عجبوا من حلمه قال: إني لأجد ما تجدون ولكني صبور.

وقال ابن حبّان: «والحلم سجية أو تجربة أو هما» (روضة العقلاء ص٢٠٩).

وقال: «العاقل يلزم الحلم عن الناس كافَّة، فإن صعب ذلك عليه

فليتحالم؛ لأنه يرتقي به إلى درجة الحلم، وأول الحلم المعرفة، ثم التثبُّت، ثم العزم، ثم التصبُّر، ثم الصبر، ثم الرضا، ثم الصمت والإغضاء، وما الفضل إلا للمحسن إلى المسيء، فأما من أحسن إلى المحسن وحلم عمن لم يؤذه فليس ذلك بحلم ولا إحسان » (روضة العقلاء ص ٢١٠).

إن الأخلاق ليست كائنًا منفصلاً عن الإنسان، الخُلق الحسن يترك أثره في تزكية النفس وإصلاحها، ويقوِّم كثيرًا من جوانب اعوجاجها.

الحلم لا ينتهي عند مجرد الكفّ عن إبداء مشاعر الغضب، ولا العفو عن المسيء وكظم الغيظ.

الحلم يعني نكران الذات والانتصار على النفس؛ إذ به يتخلَّى صاحبه عن كثير من حظوظ نفسه، ويترفَّع عن كثير مما يتشبث به غيره؛ فتنقاد النفس بدلاً من كونها قائدة لصاحبها.

وفي الحلم تعويد للنفس على التواضع؛ فالنفس لا تخلو من قَدْرٍ من الكبر وحب التعالي، والدار الآخرة إنما هي لمن أعرضوا عن السعي للعلو في الأرض، قال -سبحانه-: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص:٨٣).

وفي الحلم إزاحةٌ لكثير من مشاعر التفكير السلبي الذي ينشغل به من يستجيبون لانفعالاتهم، فالحليم يطوي الصفحة، ويتناسى أو ينسى ما يقال عنه، وما يُفْعَل تجاهه، فتمر عليه المواقف مرور الماء على الصخرة الملساء المتماسكة.



موقف واحد متشابه يتعرَّض له اثنان؛ فالأول ينشغل ذهنه، ويتكدر خاطره، وينسيه ذلك كثيرًا من مصالحه.

والآخر يمر عليه الأمر مرور الكرام، فيتجاوز الموقف إلى التفكير فيما عليه أن يعمل ثم ينساه وينصرف عنه.

المشكلة الواحدة والموقف الواحد يتفاوت أثره على الناس بتفاوت نظرتهم له، وأسلوب تفاعلهم معهم، وكلما تحلَّى المرء بالحلم زاد استيعابه لكثير من الصدمات، فأورثه ذلك اطمئنان النفس وراحة البال، وقاده للانشغال بما يفيده في أمور دينه ودنياه بدلاً من التحسر والتألم على ما أصابه.





أو ليأتيني بسلطان مبين

حين تفقَّد سليمان عليه السلام جنوده، لم يجد الهدهد؛ فسأل عنه، ثم توعَّده بالعقوبة، واستثنى من ذلك، قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل:٢٠-٢١).

فقَد سليمان عليه السلام الهدهد فاستحقَّ بذلك العقوبة القاسية، إلا أن سليمان عليه السلام تأنَّى في الأمر، وأبقى مجالاً للعذر ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ «فالسلطان المبين هو العذر البيِّن الواضح المقبول، وهذا الاستدراك من سليمان عليه السلام يدل على حزمه وضبطه وعدله وتثبُّته، فقد أعطى المتهم فرصة لبيان حجته والدفاع عن نفسه؛ لأن المتهم بريء حتى تَثبت إدانته، أما إذا قدَّم عذرًا أو حجة فلا بد أن يُقبَل منه». (القصص القرآني للخالدي ٣/ ٥٢٧).

جاء الهدهد، فحكى لسليمان عليه السلام أنه أدرك أمرًا خفي على نبي الله عليه السلام، وأخبره بما رآه في أرض سبأ ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل:٢٢)، وحكى لسليمان عليه السلام ما رآه من حالهم على الشرك، والسجود للشمس، فتأنَّى سليمان عليه السلام في الأمر ولم يستعجل، ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (النمل:٢٧).

وقد كانت الأناة خلقًا لنبي الله يوسف عليه السلام، فحين جاءه الرسول ليخرج من السجن لم يستعجل، وإنما تأنَّى لتظهر براءته؛ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (يوسف: ٥٠-٥١).

وقد أثنى ﷺ على مقام نبي الله يوسف عليه السلام وتأنيه في الأمر؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف، ثم أتاني الداعي لأجبته» (أخرجه البخاري ٣٣٨٧، ومسلم ١٥١).

قال النووي: «فهو ثناء على يوسف عليه السلام، وبيان لصبره وتأنيه، والمراد بالداعي رسول الملك الذي أخبر الله تعالى أنه قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ ؛ فلم يخرج يوسف ﷺ مبادرًا إلى الراحة ومفارقة السجن الطويل، بل تثبَّت وتوقّر، وراسل الملك في كشف أمره الذي سُجِنَ بسببه، ولتظهر براءته عند الملك وغيره، ويلقاه مع اعتقاده براءته مما نُسِبَ إليه، ولا خجل من يوسف ولا غيره، فبيَّن نبينا ﷺ فضيلة يوسف في هذا، وقوة نفسه في الخير، وكمال صبره وحسن نظره، وقال النبي ﷺ عن نفسه ما قاله تواضعًا وإيثارًا للإبلاغ في بيان كمال فضيلة يوسف ﷺ، والله أعلم» (شرح صحيح مسلم ٢/ ١٨٥).



وقد عدَّ ﷺ التؤدة من أخلاق النبوة، فعن عبد الله بن سرجس المزني ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «السمت الحسن، والتُّؤَدَة والاقتصاد جزءٌ من أربعة وعشرين جزءًا من النبوة» (أخرجه الترمذي ٢٠١٠).

وأثنى ﷺ على مَن تحلَّى بهذه الصفة من أصحابه، وأخبر أن الله ﷻ يحبها، فقال للأشج أشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله؛ الحلم، والأناة» (أخرجه مسلم ١٧).

وروى أبو داود في سننه (٥٢٢٥) سبب مقولة النبي ﷺ للأشج ﷺ، فعن أم أبان بنت الوازع بن زارع، عن جدها، زارع وكان في وفد عبد القيس قال: لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا، فنُقَبِّل يد النبي ﷺ ورِجْله، قال: وانتظر المنذر الأشج حتى أتى عَيْبَته فلبس ثوبيه، ثم أتى النبي ﷺ فقال له: «إن فيك خَلَّتَيْنِ يحبهما الله؛ الحلم والأناة» قال: يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبَلَنِي عليهما؟ قال: «بل الله جبَلَك عليهما» قال: الحمد لله الذي جبلني على خَلَّتَيْنِ يحبهما الله ورسوله.

يحتاج المسلم للتحلِّي بالأناة في خاصة نفسه وحياته، وتعامله مع أهل بيته وسائر الناس؛ فالعجلة تقوده لاستنتاج غير صحيح، أو تدفعه لتصرف غير مناسب، أو ردة فعل تحت ضغط الحدث والتأثر به.

ومن أحوج الناس للتحلِّي بالأناة مَن تصدَّى لعِلْمٍ أو دعوةٍ؛ فالأناة مدعاة إصابة الحق والتوفيق له، «كتب عمرو بن العاص إلى معاوية ﷺ في الأناة، فكتب إليه معاوية: «أما بعد، فإن التفهُّم في الخير زيادة ورشد،



وإن الرشيد من رشد عن العجلة، وإن الخائب مَن خاب عن الأناة، وإن المتثبِّت مصيبٌ، أو كاد أن يكون مصيبًا، وإن المعجل مخطئ، أو كاد أن يكون مخطئًا، وإنه مَن لا ينفعه الرفق يضرُّه الخرق، ومَن لا تنفعه التجارب لا يدرك المعالي، ولن يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حِلْمه جهله وشهوته» (أخرجه معمر بن راشد في جامعه ٢٠٢١٤).

ويتأكد التحلي بالأناة في تقرير الفتوى والموقف الشرعي، فعن ابن وهب، قال: سمعت مالكًا، يقول: «العجلة في الفتوى نوع من الجهل والخرق، وكان يقال: التأني من الله والعجلة من الشيطان، وما عجل امرؤ فأصاب واتأد آخر فأخطأ إلا كان الذي اتأد أصوب رأيًا، ولا عجل امرؤ فأخطأ واتأد آخر فأخطأ إلا كان الذي اتأد أيسر خطأً» (المدخل إلى السنن الكبرى ٨١٧).

وكانوا يوصون بالأناة مَن ولي قضاءً أو ولاية، فعن يزيد بن ميسرة، أنه أوصى يزيد بن حصين حين وَلِيَ حمص، وقال له يزيد بن حصين: كيف ترى يا أبا يوسف فيما ابتُلِينَا به؟ فقال: «عليك بتقوى الله، والتأني في أمرك، وإياك والعجلة، وفي السجن راحة، هل تدري ما يقال لصاحب السلطان؟ أيها المسلط لا ينفعك رفع السلطان، فإنما ورثت مكان من كان قبلك، وآخر يوارث مكانك غدًا» (الدولابي في الكنى والأسماء ٢٠٣٦).

ويرون أن الأناة تَجْبُر ما نقص من علم الرجل، قال يحيى بن أكثم: أراد هارون الرشيد أن يولي رجلاً القضاء، فقال له: إني لا أحسن القضاء

ولا أنا فقيه، فقال له الرشيد: فيك ثلاث خلال: لك شرف، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة، ولك حلم، والحلم يمنع صاحبه من العجلة، ومن لم يعجل قل خطؤه، وأنت رجل تشاور في أمورك، ومن شاور كثر صوابه، وأما الفقه؛ فنضم إليك مَن تتفقه به. قال يحيى: فولي؛ فما وجدنا فيه مطعنًا. (المجالسة وجواهر العلم ٨٦٩).

وقال الأوزاعي: كان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلاً، حبسه ثلاثًا، ثم عاقبه، كراهية أن يعجل في أول غضبه. (سير أعلام النبلاء ٥/ ١٣٣).

وليس خُلق الأناة قاصرًا على ما يتَّصل بالفتوى والقضاء ونحوها، بل هو في كل شؤون المسلمين؛ قال الشافعي -رحمه الله-: «ولا ينبغي أن يولي الإمام الغزو إلا ثقة في دينه، شجاعًا ببدنه، حسن الأناة، عاقلاً للحرب بصيرًا بها، غير عَجِل ولا نَزِق، ويتقدم إليه أن لا يحمل المسلمين على مهلكة بحال» (السنن الكبرى ٩/ ٧٠).

وكما أن الأناة مطلب في كل رأي يتصل بأمر الدين أو الدنيا، فالعجلة آفة سرعان ما يرى صاحبها وبالها، قال ابن شبيب: «سئل بعض الخلفاء أي شيء يؤيد العقل؟ وأي شيء أشد به إضرارًا؟ قال: أما أشده تأييدًا: فمشاورة العلماء، وتجربة الأمور، وحسن التثبت. وأشد به إضرارًا: فالاستبداد، والتهاون، والعجلة» (شعب الإيمان ٤٣٥٧).

وقال يوسف بن الحسين: سمعت ذا النون، يقول: «أربع خلال لها



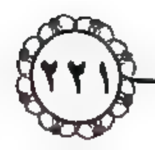
ثمرة: العجلة، والعجب، واللجاجة، والشَّرَه، فثمرة العجلة الندامة، وثمرة العُجْب البغض، وثمرة اللجاجة الحيرة، وثمرة الشَّرَه الفاقة» (شعب الإيمان ٧٨٦٥).

والمتعجل من أكثر الناس ندمًا، لكن بعد فوات الأوان، وانقضاء فرصة الاستدراك، قال بعض الحكماء: «إياكَ والعجلة فإنَّ العرب كانت تُكَنِّيها أمّ الندامة؛ لأنّ صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يَفهم، ويعزم قبل أن يُفكِّر، ويَقطع قبل أن يقدِّر، ويحمد قبل أن يجرّب، ويذمّ قبل أن يخبر، ولن يصحب هذه الصفة أحد إلّا صحب الندامة، واعتزل السلامة» (زهر الآداب وثمر الألباب ٤/ ٩٤٢).

قال أبو حاتم -رحمه الله-: «الرافق لا يكاد يسبق، كما أن العَجِل لا يكاد يلحق، وكما أن مَن سكت لا يكاد يندم، كذلك مَن نطق لا يكاد يَسلم، والعَجِل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يجرب، ويذم بعد ما يحمد، يعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم، والعَجِل تصحبه الندامة، وتعتزله السلامة، وكانت العرب تُكَنِّي العجلة: أم الندامات» (روضة العقلاء ص ٢١٦).

وقال ابن الجوزي: «وأشد الناس تفريطًا مَن عمل مبادرةً في واقعة، من غير تثبُّت ولا استشارة، خصوصًا فيما يوجبه الغضب، فإنه طلب الهلاك أو الندم العظيم». (صيد الخاطر ٣٨٥).

إن محاسن الأخلاق بينها ارتباط وتلازم، يأخذ بعضها برقاب بعض،



فالأناة تتصل بخُلُق الصبر، قال ابن القيم: «وإن كان -الصبر- عن إجابة داعي العجلة سُمِّي وقارًا وثباتًا، وضده طيشًا وخفة» (عدة الصابرين ١٩).

كما أنها تتصل بالحكمة؛ فالحكيم يقلب الأمر، ويمنح نفسه وقتًا للتأمل والتفكير، قال ابن القيم: «ولها -الحكمة- ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة. وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة. فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول، والله أعلم». (مدارج السالكين ٢/٤٤٩-٤٥٠).

والأناة كسائر الأخلاق إنما تحمد في مقامها؛ فهي تقتضي الثبت، ونضج الرأي، والاقتناع قبل الإقدام، فإذا استبان الأمر، واستقر الرأي تعيَّنت المبادرة، وتحول التأجيل إلى تسويف.

وفي الحديث: «التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة» (أخرجه أبو داود ٤٨١٠).

وقال عمران بن موسى المؤدب: قال بعض الحكماء: «العجلة في الأمر خَرَق، وأخرق من ذلك التفريط في الأمر بعد القدرة عليه» (مكارم الأخلاق للخرائطي ٧٠٢).

وقال حاتم: «كان يقال العجلة من الشيطان إلا في خمس: إطعام الطعام إذا حضر الضيف، وتجهيز الميت إذا مات، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب، والتوبة من الذنب إذا أذنب» (حلية الأولياء ٨/ ٧٨).



وحين تعجَّل موسى عليه السلام لقاء ربه تبارك وتعالى قال الله له: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ (طه:٨٣)، فبيَّن عليه السلام أن دافع ذلك ابتغاء مرضاة مولاه، ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ (طه:٨٤).

قال ابن القيم: «وظاهر الآية: أن الحامل لموسى على العجلة: هو طلب رضا ربه، وأن رضاه في المبادرة إلى أوامره، والعجلة إليها. ولهذا احتج السلف بهذه الآية على أن الصلاة في أول الوقت أفضل. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك. قال: إن رضا الرب في العجلة إلى أوامره» (مدارج السالكين ٣/ ٦٠).

ولما كان حُسْن الخُلُق وسطًا بين رذيلتين فإنك ترى في مقابل من يتعجل هناك من يتوانى ويفرِّط، ويلبس تصرفاته ومواقفه لبوس التأني، والحق أن فعله إنما هو كسل وتوان وضعف، لا تأن وتروٍّ.



فتحسسوا من يوسف

حين عاد إخوة يوسف إلى أبيهم يبكون، وادَّعَوْا أنَّ يوسف أكله الذئب، لم يصدقهم في مقولتهم تلك؛ قال -سبحانه-: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف:١٦-١٨).

حكم يعقوب عليه السلام على أبنائه أنهم يخفون الحقيقة، وأن الأمر بخلاف ما قالوه، وبقي عليه السلام مؤمّلاً بلقاء ابنه يوسف، وأنه على قيد الحياة.

وحين فقَد أخاه، وأخذه العزيز تجدَّدت أحزانه، وتذكَّر يوسف: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف:٨٤). قال ابن إسحاق: «أعرض عنهم، وتتامَّ حزنه، وبلغ مجهودَه، حين لحق بيوسف أخوه، وهيَّج عليه حزنه على يوسف، فقال: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (تفسير ابن جرير ١٦/ ٢١٥).

وحين لامه أبناؤه على ذلك قائلين: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ

حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴾ (يوسف:٨٥). أحال الأمر إلى ربه ﷻ، فلا زال يؤمِّل بالله ﷻ، ويعلم منه ﷻ ما لا يعلم أولاده ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٨٦).

ثم أوصاهم بعد ذلك بالتحسُّس من يوسف عليه السلام؛ ﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (يوسف:٨٧).

إن الأمر لا يحتمل إلا احتمالين لا ثالث لهما: إما أنهم صادقون في ادعائهم أكل الذئب ليوسف، حينها لا معنى للتحسُّس عن يوسف أو البحث عنه.

أو أنهم غير صادقين؛ فيوسف ربما لا يزال على قيد الحياة، ولا معنى لطلب التحسُّس عن يوسف والبحث عنه ممن تعمَّد الوقيعة به.

يعتقد يعقوب عليه السلام أن إخوة يوسف دبَّروا له مكيدة، وسوَّلت لهم أنفسهم السوء، فتآمروا على يوسف عليه السلام، ومع ذلك يأمرهم بالبحث عنه، وتحسُّس أخباره.

هَبْ أنَّ إخوة يوسف عليه السلام أحسُّوا بخطيئتهم، وندموا على ما صنعوه بشأن يوسف عليه السلام، فقد لايرون مفاتحة والدهم بالأمر، ولا الاعتراف بخطيئتهم؛ فهم لا يدرون ما حال يوسف الآن.

مع كل ما بدَر من إخوة يوسف، ومع ما كان يراه يعقوب عليه السلام من



حالهم لم ييأس عليه السلام، ولم يقطع الرجاء فيهم.

لقد أرسل معهم أخاه إلى العزيز بعد أن أخذ عليهم موثقهم، وأمرهم الآن بأن يذهبوا، وأن يتحسسوا من يوسف، من يوسف الذي أضاعوه، وزعموا أن الذئب قد أكله، وخاطبهم بوصف البنوة قائلاً: يا بني «وفي خطابهم بوصف البنوة منه ترقيق لهم وتلطف ليكون أبعث على الامتثال» (التحرير والتنوير ١٣/ ٤٦).

تسامى يعقوب عليه السلام وتحامل على نفسه، وبقي يتعامل مع أبنائه بقدر من حسن الظن رغم ما بدَر منهم، بل أوصاهم بالبحث عن مَن كادوه وتآمروا عليه.

وحين بلغته عليه السلام البشرى، ورد الله عليه بصره، وأدخل عليه السرور بقرب لقيا يوسف عليه السلام عفا عنهم وصفح وتجاوز، ووعدهم بأن يستغفر الله عز وجل لهم؛ ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (يوسف:٩٨).

قد يبتلى الإنسان بأن يرى بعض أولاده على حال لا تَسُرُّه؛ فيجد منهم خللاً في الديانة، أو تقصيرًا في بِرّه والإحسان إليه، أو إهمالاً في حياتهم، ومعيشتهم عالة على غيرهم، فله في ذلك كله أسوة حَسَنة بأخلاق يعقوب عليه السلام.

تعامل معهم يعقوب عليه السلام على ما هم عليه رغم ما صدر منهم، أوصاهم بالتحسُّس من يوسف عليه السلام رغم أنهم السبب في غيابه.

إن هذا الخُلق من يعقوب عليه السلام في تعامله مع بنيه يشعرهم أنه لا زال يرى فيهم أملاً، ولم يقطع الرجاء منهم.

وبعد هذا العهد الطويل، والحزن الذي سبَّبُوه لأبيهم، عفا عنهم عليه السلام، ونسي أحزانه وما تسببوا فيه، ووعدهم بأن يستغفر لهم.

بعض الصالحين لا يستوعب المسافة بينه وبين أولاده، فتسوء أخلاقه معهم حين يرى منهم تقصيرًا في الديانة، أو في صلتهم بأسرتهم وقيامهم بواجباتهم؛ فيقسو عليهم، ويظهر منه دومًا سوء الظن بهم، وفقدان الثقة فيهم؛ فتنشأ حلقة مفرغة تزداد اتساعًا مع الزمن؛ فيرمي كل منهم المشكلة على الآخر؛ فيشكو هو تقصيرهم في حق الله تعالى، وتقصيرهم في حق أسرتهم، ويشكون هم جفوته وقسوته وسوء خُلقه، وأنه لا يأتمنهم، ويقدم دومًا سوء الظن في حقهم.

ومما يمارسه بعض هؤلاء دوام التذكير بالخطأ، والحديث أمامهم عن كل نموذج ناجح بصورة الإعجاب والتأنيب المباشر لهم أو غير المباشر.

وحُسْن الخُلُق مع مَن يقصِّر في الديانة -وبخاصة من الأولاد والأقارب- لا يعني إقراره على ما هو عليه، فيبقى التذكير والنصح، لكنه يحاط بسياج الحكمة، ومراعاة أن بعض أساليبه قد تُفقده أثره، بل تؤدِّي إلى نتيجة معاكسة.

وحين يقع الأولاد في التقصير والخطيئة فهم بحاجة إلى أن يُعانُوا على أنفسهم، وعلى الشيطان؛ فإن الناصح ربما أراد خيرًا فعمل عملاً ينفِّر من الخير.

لقد أغلظ بعض أصحاب النبي ﷺ على من شرب الخمر، ودعوا عليه بالخزي؛ فنهاهم ﷺ عن ذلك، وعدَّ ﷺ عملهم من إعانة الشيطان عليه، فعن أبي هريرة ﷺ قال: أتي النبي ﷺ برجل قد شرب، قال: «اضربوه» قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه، فلما انصرف، قال بعض القوم: أخزاك الله، قال ﷺ: «لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان» (أخرجه البخاري ٦٧٧٧).

وإعانة الشيطان قد تكون بقَوْلٍ في غير مكانه، أو قسوة جاوزت قدر الحكمة، أو تعامل لا يليق.

وحسن النية، وإرادة النصيحة لا يلزم منها صواب العمل، وقد عدَّ ﷺ بعض ما عمله طائفة من أصحابه تنفيرًا مع أنهم لم يريدوا إلا خيرًا.

عن أبي مسعود ﷺ أن رجلاً، قال: والله يا رسول الله! إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا، فما رأيت رسول الله ﷺ في موعظة أشد غضبًا منه يومئذ، ثم قال: «إن منكم منفِّرين، فأيكم ما صلَّى بالناس فليتجوَّز، فإنَّ فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة» (أخرجه البخاري ٧٠٢، ومسلم ٤٦٦).





الحياء والتعفف

» كان رجلاً حييًا ستيرًا
» معاذ الله إنه ربي
» كان يأكل من عمل يده
» وما أسألكم عليه من أجر



كان رجلاً حييًا ستيرًا

عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ موسى كانَ رجلًا حييًّا سِتِّيرًا، لَا يُرى مِنْ جِلْدِهِ شيءٌ، استحياءً منه، فآذاه مَنْ آذاهُ مِنْ بني إسرائيلَ، فقالوا: ما استَتَرَ هذا التَّسَتُّرَ إلَّا مِنْ عيبٍ بجلدِهِ؛ إمَّا برصٌ، وإمَّا أُدْرَةٌ، وإمَّا آفَةٌ، وإنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- أرادَ أنْ يُبَرِّأَهُ مِمَّا قالوا، فخلَا يومًا وحدَهُ، فوضَعَ ثيابَهُ علَى الحجَرِ، ثُمَّ اغتسلَ، فلمَّا فَرَغَ أقبلَ إلَى ثيابِهِ ليأخُذَهَا، وإنَّ الحجرَ عدَا بثوبِهِ، فأخذَ موسى عصاه، وطلبَ الحجرَ، فجعلَ يقولُ: ثوبي حجرٌ، ثوبي حجرٌ ! حتى انتهى إلى ملأٍ مِنْ بني إسرائيلَ، فرأوهُ عريانًا، أحسنَ ما خلقَ اللهُ، وبرَّأَهُ مِمَّا يقولُونَ، وقام الحجَرُ فأخذَ ثوبَهُ فلَبِسَهُ، وطفِقَ بالحجَرِ ضربًا بعصاهُ، فواللهِ إنَّ بالحجَرِ لَنُدَبًا مِنْ أَثَرِ ضرْبِه، ثلاثًا، أوْ أربعًا، أوْ خمسًا، فذلكَ قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ (الأحزاب:٦٩)» (أخرجه البخاري ٣٤٠٤، ومسلم ٣٣٩).

كان من عادة بني إسرائيل عدم الاستتار عند الاغتسال، وذهب بعض أهل العلم إلى جواز ذلك في شريعتهم، قال ابن حجر: «قوله: «لا يرى من جلده شيء استحياء منه» هذا يشعر بأن اغتسال بني إسرائيل عراة بمحضر منهم كان جائزًا في شرعهم، وإنما اغتسل موسى وحده استحياءً» (فتح الباري ٦/ ٤٣٧).



وأيًّا كان الأرجح في تفسير حال بني إسرائيل، فقد كان موسى عليه السلام متصفًا بالحياء والستر، بعيدًا عما لا يليق بمثله.

وليس موقف انصراف الحجر بثوب موسى عليه السلام هو وحده المعبِّر عن حيائه عليه السلام، فيكفي في ذلك الوصف البليغ منه ﷺ له «حيي ستّير».

الحياء من سنن المرسلين:

لم يكن موسى عليه السلام هو وحده من أُثِرَ عنه الحياء من المرسلين، وقد رُوِيَ في الحديث «أربعٌ من سُنَن المرسلين: الحياء، والتعطر، والسواك، والنكاح» (أخرجه أحمد ٢٣٥٨١ والترمذي ١٠٨٠)، والحديث وإن كان فيه مقال إلا أن المعنى ثابت بنصوص عِدَّة.

وأول مَن كان متَّصفًا بالحياء أبونا آدم وأمُّنا حواء -عليهما السلام-، قال -سبحانه-: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف:٢٢)، فقد بادرا إلى ورق الجنة يستران به ما انكشف من سوءاتهما.

روى ابن جرير (١٢/ ٣٥٤) في تفسير هذه الآية عن أبي بن كعب موقوفًا: «فناداه ربه: يا آدم، أمنِّي تَفِرّ؟ قال: ربِّ! إني استحييتك».

ويصف النبي ﷺ أباه آدم، وأولي العزم من الرسل بالحياء من الله ﷻ؛ فعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس،

خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم، ويذكر ذنبه فيستحي، ائتوا نوحًا، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هناكم، ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحي، فيقول: ائتوا خليل الرحمن، فيأتونه فيقول: لست هناكم، ائتوا موسى، عبدًا كلمه الله وأعطاه التوراة، فيأتونه فيقول: لست هناكم، ويذكر قتل النفس بغير نفس، فيستحي من ربه. (أخرجه البخاري ٤٤٧٦ ومسلم ١٩٣) وجاء في لفظ مسلم: «فيستحيي ربه منها» لكل منهم.

وربط ﷺ الحياء بكلام النبوة الأولى، فعن أبي مسعود ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت» (أخرجه البخاري ٦١٢٠).

قال الخطابي: «قال الشيخ: معنى قوله «النبوة الأولى» أن الحياء لم يزل أمره ثابتًا، واستعماله واجبًا منذ زمان النبوة الأولى، وأنه ما من نبي إلّا وقد ندب إلى الحياء، وبعث عليه، وأنه لم ينسخ فيما نسخ من شرائعهم، ولم يبدل فيما بدل منها؛ وذلك أنه أمر قد عُلِم صوابه، وبان فضله، واتفقت العقول على حُسْنه، وما كان هذا صفته لم يجز عليه النسخ والتبديل» (معالم السنن ٤/ ١٠٩-١١٠).

حياء سيد ولد آدم

أما سيد ولد آدم ﷺ فكان إمامًا في الحياء، وصفه بذلك أصحابه



-رضوان الله عليهم-، وضربوا له مثلاً بليغًا، فعن أبي سعيد ﷺ، قال: «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها» (أخرجه البخاري ٦١١٩).

وكان ﷺ كأبيه آدم عليه السلام وسائر إخوانه المرسلين، يستحي من ربه ﷻ؛ ففي حديث الإسراء حين طلب منه موسى عليه السلام مراجعة ربه في التخفيف من الصلاة قال موسى: «إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال ﷺ: «سألت ربي حتى استحييت، ولكني أرضى وأُسلِّم» (أخرجه البخاري ٣٨٨٧، ومسلم ١٦٢).

ويستحي ﷺ من ضيفه، وقد وصفه بذلك خالقه ومولاه ﷻ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ (الأحزاب:٥٣).

وجاء في سبب نزول هذه الآية ما رواه أنس ﷺ، قال: بُنِيَ على النبيِّ ﷺ بزينبَ بنتِ جحشٍ بخبْزٍ ولحم، فَأُرْسِلْتُ على الطعامِ داعيًا، فيجيءُ قومٌ فيأكلونَ ويخرجونَ، ثمَّ يجيءُ قومٌ فيأكلونَ ويخرجونَ، فدَعوْتُ حتى ما أجدُ أحدًا أدعُوا، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ ما أجِدُ أحدًا أدعُوهُ، قالَ: (ارْفَعُوا طعامَكم) وبَقِيَ ثلاثةُ رهْطٍ يتحدثُونَ في البيتِ، فخرج النبيُّ ﷺ فانْطَلَقَ إلى حُجْرَةِ عائشةَ، فقالَ: (السلامُ عليكمْ أهلَ البيتِ ورحمةُ اللهِ).

فقالتْ: وعليكَ السلامُ ورحمةُ اللهِ، كيفَ وجدْتَ أهلَكَ، بارَكَ اللهُ لَكَ. فَتَقَرَّى حُجَرَ نسائِهِ كلِّهِنَّ، يقولُ لهنَّ كما يقولُ لعائشَةَ، ويقلنَ لهُ كمَا قالتْ عائشةُ، ثم رَجَعَ النبيُّ ﷺ، فإذَا ثلاثَةٌ من رَهْطٍ في البيتِ يتحدثونَ، وكانَ النبيُّ ﷺ شديدَ الحياءِ، فخرجَ منْطَلِقًا نحوَ حجرةِ عائشةَ، فمَا أدْري: آخْبَرَته أو أُخْبِرَ أنَّ القومَ خرجوا، فرجَعَ، حتى إذا وضَعَ رجلَهُ في أُسْفكة الباب داخلة وأخرى خارجة، أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب. (أخرجه البخاري ٤٧٩٣، ومسلم ١٤٢٨).

ويتَّصف ﷺ بالحياء وهو يعلِّم قومه، فعن عائشة ﵂، أن امرأة من الأنصار قالت للنبي ﷺ: كيف أغتسل من المحيض؟ قال: «خذي فرصة ممسكة، فتوضئي ثلاثًا» ثم إن النبي ﷺ استحيا، فأعرض بوجهه، أو قال: «توضئي بها» فأخذتها فجذبتها، فأخبرتها بما يريد النبي ﷺ (أخرجه البخاري ٣١٥، ومسلم ٣٣٢).

ويستحي ﷺ ممن يغلب عليه الحياء من أصحابه -رضوان الله عليهم-، فعن عائشة ﵂، قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي، كاشفًا عن فخذيه، أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال، فتحدَّث، ثم استأذن عمر، فأذن له، وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ، وسوَّى ثيابه - قال محمد: ولا أقول ذلك في يوم واحد - فدخل فتحدَّث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم



دخل عثمان فجلست وسوَّيت ثيابك فقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟» (أخرجه مسلم ٢٤٠١).

الحياء من الإيمان:

إن الحياء ليس مجرد فضيلة خُلقية، أو أمرًا مكملاً، بل هو مرتبط بالإيمان، متصل به، وهو أحد شُعبِه، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان» (أخرجه البخاري ٩، ومسلم ٣٥).

وعن سالم بن عبد الله، عن أبيه ﷺ، أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجل من الأنصار، وهو يَعِظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه؛ فإن الحياء من الإيمان» (أخرجه البخاري ٢٤، ومسلم ٣٦).

وكما اتصل الحياء بالإيمان وارتبط به، فإن نقيضه وهو البذاء متَّصل بالنفاق؛ فعن أبي أمامة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق» (أخرجه الترمذي ٢٠٢٧).

قال الترمذي: «والعي قلة الكلام، والبذاء: هو الفحش في الكلام، والبيان: هو كثرة الكلام، مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيوسِّعون في الكلام ويتفصّحون فيه من مدح الناس فيما لا يرضي الله» (سنن الترمذي ٤/ ٣٧٥).

ولأن الحياء من الإيمان، وأحد شُعَبه فهو يقود إلى الجنة منزل المؤمنين؛ إذ هو يحجز صاحبه عن الفسوق والعصيان، ويدعوه لملازمة





الطاعة، والحياء من مولاه، ومن يفقده يسهل عليه ركوب العصيان، والسير بسلوك أهل الفسوق؛ فيقوده إلى النار؛ فعن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار» (أخرجه أحمد ١٠٥١٢ والترمذي ٢٠٠٩، كما أخرجه ابن ماجه ٤١٨٤ والبخاري في الأدب المفرد ١٣١٤ من حديث أبي بكرة ﵁).

منزلة خُلق الحياء في الإسلام:

الأخلاق حَسَنها وسيِّئها ليست جزرًا منفصلة، بل هي متداخلة، يأخذ بعضها برقاب بعض، ويقود بعضها إلى بعض.

والحياء يقود صاحبه إلى جملة من محاسن الأخلاق، ويحجزه عن جملة من مساوئها، لذا عدّه النبي ﷺ خُلُق الإسلام، فعن أنس ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل دين خُلُقًا، وخُلُق الإسلام الحياء» (أخرجه ابن ماجه ٤١٨١). وأخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٠٥) عن يزيد بن طلحة بن ركانة، يرفعه إلى النبي ﷺ.

ويفسِّر هذا المعنى ويجلِّيه الإمام ابن القيِّم -رحمه الله-، فيقول: «ثم تأمل هذا الخُلُق الذي خُصَّ به الإنسان دون جميع الحيوان، وهو خُلُق الحياء الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلّها وأعظمها قدرًا، وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانيّة؛ فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهم الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء، ولولا هذا الخُلُق لم يُقْرَ الضيف، ولم يُوَفَّ بالوعد، ولم يُؤَدَّ أمانة، ولم يُقْضَ



لأحد حاجة، ولا تحرَّى الرجل الجميل فآثره، والقبيح فتجنَّبه، ولا سَتَر له عورة، ولا امتنع من فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يُؤَدِّ شيئًا من الأمور المفترضة عليه، ولم يَرْعَ لمخلوق حقًّا، ولم يَصِل له رحمًا، ولا برَّ له والدًا؛ فإن الباعث على هذه الأفعال إما دينيٌّ، وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دُنيوي علويّ، وهو حياء فاعلها من الخلق، قد تبيَّن أنه لولا الحياء إما من الخالق، أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها» (مفتاح دار السعادة ١/ ٢٧٧-٢٧٨).

لذا كان الحياء زينة لصاحبه، كما أن الفحش أمرًا مشينًا، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه، ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه» (أخرجه أحمد ١٢٦٨٩، والترمذي ١٩٧٤، وابن ماجه ٤١٨٥).

وخُلق الحياء -كغيره من محاسن الأخلاق- مُحَرِّك للإنسان، قائد له، ومُوجِّه لسلوكه، لذا فهو يقود صاحبه إلى الخير والفلاح، فعن عمران بن حصين ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»؛ فقال بشير بن كعب: " مكتوب في الحكمة: إنَّ من الحياء وقارًا، وإن من الحياء سكينة"؛ فقال له عمران: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن صحيفتك؟ (أخرجه البخاري ٦١١٧، ومسلم ٣٧).

ورأس الحياء وأساسه وعموده حياء العبد من الله ﷻ، وهو شأن المرسلين والصالحين، كما سبق في الحديث عن أبينا آدم ﷺ، وسيِّد



ولده ﷺ، وسائر الأنبياء والمرسلين.

لذا يأمر ﷺ بالحياء من الله ﷻ، فحين استوصاه أحد أصحابه -رضوان الله عليهم-، أوصاه بالحياء من الله؛ فعن سعيد بن زيد ﷺ، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «أوصيك بتقوى الله، وأن تستحي من الله كما تستحي رجلاً صالحًا من قومك» (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٧٣٤٣).

ويفسِّر ﷺ معنى الحياء من الله ﷻ، مبيِّنًا أثره على استقامة صاحبه؛ فعن عبدالله بن مسعود ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء». قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال: «ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبِلَى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» (أخرجه أحمد ٣٦٧١، والترمذي ٢٤٥٨).

ويوصي خير الأمة وأبرّها بعد نبيّها ﷺ الناس بالحياء من الله ﷻ، ويضرب لنفسه مثلاً على ذلك، قال أبو بكر الصديق يومًا وهو يخطب: «أيها الناس، استحيوا من الله؛ فوالله ما خرجت لحاجة منذ بايعت رسول الله ﷺ أريد الغائط إلا وأنا مقنع رأسي حياء من الله» (روضة العقلاء ص٥٧).

قال أبو حاتم: «والحياء حياءان؛ أحدهما استحياء العبد من الله -جل وعلا- عند الاهتمام بمباشرة ما خطَر عليه، والثاني استحياء من المخلوقين عند الدخول فيما يكرهون من القول والفعل معًا، والحياءان

جميعًا محمودان إلا أن أحدهما فرض والآخر فضل؛ فلزوم الحياء عند مجانبة ما نهى الله عنه فرض، ولزوم الحياء عند مقارفة ما كره الناس فضل» (روضة العقلاء ص٥٧).

وحياء العبد من الله ﷻ يورث له صلاح الحال واستقامتها، قال ابن القيِّم: «وعلمه بسمعه -تعالى- وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلُّق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه؛ فيثمر له ذلك الحياء باطنًا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح» (مفتاح دار السعادة ٢/ ٩٠).

ومن أعظم آثار الحياء على صاحبه أنه يُورث العفة، ويقي من الرذيلة؛ فعن الشعبي قال: مَرَّ عمر بن الخطاب ؓ في بعض طرق المدينة، فسمع امرأة تقول:

دعتني النفس بعد خروج عمرو	إلى اللذات فاطلع التلاعا
فقلت لها عجلت فلن تطاعي	ولو طالت إقامته رباعا
أحاذر إن أطيعك سبّ نفسي	ومخزاة تجللني قناعا

فقال عمر، وأُتِيَ بالمرأة: «أيّ شيء منعك؟» قالت: الحياء وإكرام عرضي. فقال عمر ؓ: «إن الحياء ليدل على هنات ذات ألوان، من استحيا استخفى، ومن استخفى اتقى، ومن اتقى وقي»، وكتب عمر إلى صاحب زوجها فأقفله إليها (مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص ٤٠).



وقال أحدهم:

وَرُبَّ قبيحة مَا حال بيني ... وبين ركوبها إلا الحياء

فكان هو الدواء لها ولكن ... إذا ذهب الحياء فلا دواء

ومن الحياء حياء المرء من نفسه، ويفسِّره ابن القيِّم بقوله: «وأما حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون. فيجد نفسه مستحيا من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحيي بإحداهما من الأخرى. وهذا أكمل ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحيى من نفسه. فهو بأن يستحيي من غيره أجدر» (مدارج السالكين ٢/ ٢٥٢).

الحياء والحضارة المعاصرة:

كان الحياء خُلقًا من أخلاق العرب في جاهليتهم؛ ففي حديث هرقل -حين لقيه أبو سفيان قبل أن يُسْلِم- قال أبو سفيان: «فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه» (أخرجه البخاري ٧) وأخرجه مسلم (١٧٧٣) بلفظ: «وايم الله، لولا مخافة أن يؤثر علي الكذب لكذبت».

وقال أبو دهبل الجمحي:

نَزْرُ الكَلامِ مِن الحَياءِ تَخالُهُ ... ضَمِنًا، ولَيْس بِجِسْمِهِ سُقْمُ

عُقِمَ النِساءُ فَما يَلِدنَ شَبيهَه ... إِنَّ النِساءَ بِمِثلِهِ عُقمُ

(عيون الأخبار ١/ ٣٩٢).

وجاء الإسلام فعزَّز هذا الخُلُق وهذَّبه، وربطه بالإيمان بالله ﷻ، وأعلى مكانته ومنزلته، فجاء هذا الخُلُق -كغيره من أخلاق الإسلام- منسجمًا مع الإيمان والاعتقاد، والشريعة والسلوك.

وبقي خُلُق الحياء راسخًا في الأمة، وعلامة على استقامة سيرة صاحبه، قال الغزالي متحدثًا عن رعاية الصبي: «ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء؛ فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال، فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحًا ومخالفًا للبعض؛ فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله -تعالى- إليه، وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشِّر بكمال العقل عند البلوغ؛ فالصبي المستحيي لا ينبغي أن يُهْمَل، بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه» (إحياء علوم الدين ٣/ ٧٢).

ومع اتساع دائرة المدنية، واتجاه كثير من أقطار الإسلام إلى التحضُّر والتمدن، تغيرت كثير من أنماط الحياة والعلاقات الاجتماعية، وزاد انفتاح الناس؛ فاهتزت كثير من القِيَم المحافظة.

وأسهم الإعلام -وبخاصة المرئي منه- في إعادة تشكيل كثير من المفاهيم، وإحداث تغيير قِيَمِيّ هائل.

ومع مرحلة العولمة، والانفتاح الثقافي على العالم الآخر اتسع الخرق



على الراقع، وزادت مرجعية ومعيارية القِيَم الغربية لدى فئات عديدة من المسلمين والمسلمات.

ومن أعظم ما اهتزَّ مع هذه العوامل الثلاثة: قيمة الحياء؛ فلا إعلامنا اليوم، ولا الإعلام الغربي الوافد يؤمن بهذه القيمة، بل يُنظر إليها على أنها سمة القرويين وأهل البوادي، وتحوَّل الحياء من خُلُق إيماني، وقيمة نبيلة، إلى ضعف وخور وقصور.

وهذا وسَّع دائرة التحدِّي أمام الدعاة والمصلحين والمربين، فلم يَعُدْ الجهد قاصرًا على تعزيز القيمة، وتنمية التخلُّق بها فحسب، بل امتد إلى المفاهيم والتصوُّرات، مما يتطلب جهدًا كبيرًا على كل من المستوى الفكري والمعرفي، ومستوى السلوك والممارسة.



معاذ الله إنه ربي

حين دَخَل يوسف عليه السلام بيت العزيز وشَبَّ كَلِفَتْ به امرأة العزيز، وتعلَّقَت به، فدعته لنفسها، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (يوسف: ٢٣).

قصة يوسف لها خاصية مختلفة؛ فقد ذكرت حياته منذ طفولته، واستغرقت القصة السورة بأكملها، ولم يرد فيها قصة سواه.

وقد افتتحت السورة بوصف قَصَص القرآن بأنها أحسن القصص، وهذه القصة تدخل فيها دخولاً أوليًّا، ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ (يوسف: ٣).

وخُتِمت السورة بالأمر بالاعتبار بهذه القصص، فقال -سبحانه-: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١).

وحين سئل ﷺ عن أكرم الناس سمَّى نبي الله يوسف عليه السلام؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: قيل يا رسول الله: مَن أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم» فقالوا: ليس

عن هذا نسألك، قال: «فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا» (أخرجه البخاري ٣٣٥٣، ومسلم ٢٣٧٨).

لقد كان البلاء الذي تعرَّض له نبي الله يوسف عليه السلام بلاء عظيمًا، فتعفَّف عليه السلام، وحماه الله وثبَّته، وقد أطال ابن القيِّم -رحمه الله- في ذِكْر عِظَم فتنة يوسف عليه السلام وقوة دواعي المعصية في حقّه، وذكَر وجوهًا مُلَخَّصها فيما يلي: الميل الطبيعي من الرجل للمرأة، وكونه شابًّا وشهوة الشباب أقوى، وكونه عزبًا، وفي بلاد غربة، وأن المرأة ذات منصب وجمال، غير ممتنعة، وهي التي طلبته فكفَتْه مؤنة الطلب، وهو في دارها، ولا يخشى أن تنُمّ عليه، وقد أغلقت الأبواب، واستعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، وتهددته بالسجن، وأن زوجها لم يُظهِر الغيرة والحمية بل قال ليوسف: ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾، وقال للمرأة: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾.

ثم قال: «ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبُّه لله على أن اختار السجن على الزنى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ (سورة يوسف: ٣٣). وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه -تعالى- إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن؛ صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه، وفي هذه القصة

من العِبَر والفوائد والحِكَم ما يزيد على الألف فائدة، لعلنا إن وفَّق الله أن نُفردها في مصنف مستقل. (الجواب الكافي. ص ٢١٠).

وقد أطال بعض المفسرين في تفسير معنى هَمّ يوسف عليه السلام بامرأة العزيز، وذكروا أخبارًا معظمها عن بني إسرائيل، ولا يصحُّ منها شيء عن المعصوم ﷺ، ولا يجوز أن يُنْسَب لنبي الله يوسف ما يخدش في مقام نبُوّته ومصدره أخبار لا زمام لها ولا خطام.

قال أبو حيان: «طوّل المفسرون في تفسير هذين الهَمَّيْنِ، ونَسَبَ بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق».. ثم قال: «وقد طهَّرنا كتابنا هذا عن نقل ما في كتب التفسير مما لا يليق ذِكْره، واقتصرنا على ما دلَّ عليه لسان العرب، ومساق الآيات التي في هذه السورة مما يدل على العصمة، وبراءة يوسف عليه السلام من كل ما يشين» (البحر المحيط ٦/ ٢٥٨).

وقال شيخ الإسلام: «والمقصود أن يوسف لم يفعل ذنبًا ذكَره الله عنه، وهو -سبحانه- لا يذكر عن أحد من الأنبياء ذنبًا إلا ذكَر استغفاره منه، ولم يذكر عن يوسف استغفارًا من هذه الكلمة. كما لم يذكر عنه استغفارًا من مقدمات الفاحشة؛ فعُلِم أنه لم يفعل ذنبًا في هذا ولا هذا؛ بل همَّ همًّا تركه لله؛ فأثيب عليه حسنة كما قد بسط هذا في موضعه» (مجموع الفتاوى ١٥/ ١١٧).

ووفَّق الله عز وجل عبده يوسف عليه السلام، وأراه برهان ربه كما جاء في الآية:

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

وقد أطال بعض المفسرين في تحديد المقصود ببرهان ربه، قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله -جل ثناؤه- أخبر عن همِّ يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأى يوسف برهان ربه، وذلك آيةٌ من الله، زجرته عن ركوب ما همَّ به يوسف من الفاحشة، وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنا، ولا حجة للعذر قاطعة بأيِّ ذلك (كان) من أيٍّ. والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله -تبارك وتعالى-، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالمه» (تفسير الطبري ١٣/ ١٠٠).

والعجب ممن ينشغل بالبحث عن هذه التفاصيل التي لا أثر لمعرفتها، ولو كنا بحاجة لها لبيَّنها الله ﷻ في كتابه بأتمّ بيان، ناهيك عن أن القطع بشيء من ذلك لا سبيل له.

والواجب الانشغال بالمقصود الأهمّ والأكبر، وهو الاتِّعاظ وأخذ العبرة، والوقوف عند المعاني التي لا تتأثر بهذه التفاصيل؛ فتحديد المراد به لا دليل قطعي عليه، ولا يترتب عليه كبير فائدة، فأيًّا كان المراد بالبرهان فقد وفَّقه الله ﷻ، وحماه من الفاحشة، وأراه البرهان الذي صرَفه عن الوقوع فيها.

لقد ابتلى الله ﷻ نبيَّه يوسف عليه السلام بفتنة عظيمة، ألا وهي فتنة النساء، ويكفي في عِظَم فتنة النساء أنه ﷺ عدَّها أعظم فتنة على الرجال، فقال: «ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء» (أخرجه البخاري ٥٠٩٦، ومسلم ٢٧٤٠).

وحين ابتلي يوسف عليه السلام بهذه الفتنة لجأ إلى الله ﷻ، وقال معاذ الله، ودعا ربه -سبحانه- أن يصرف عنه السوء والفحشاء، ولم يركن إلى نفسه وذاته.

ووفَّق الله -عز جل- يوسف عليه السلام، وحماه من السوء، وكان من أسباب ذلك ما يلي:

الأول: الخوف من اللّه ﷻ، وخوف اللّه ﷻ هو الذي يحول بين العبد وركوب المعصية، لذا جاء في السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله» (أخرجه البخاري ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١).

وخشية الله في الغيب من أعظم ما يُصلح النفس ويزكِّيها، وقد وعَد الله -تبارك وتعالى- من يخشونه بالغيب بالمغفرة وعِظَم الأجر، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ (الملك:١٢).

الثاني: فراره من أسباب المعصية، فقد خاف من ربه، وفرَّ وسابقها إلى الباب، حتى تشبَّثت به وقدَّت قميصه من دُبُر؛ ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾، ونظيره قصة قاتل المائة، الذي أمره مَن استفتاه

أن يخرج من قريته ولا يعود إليها، ففارَق قريته حتى أدركه الموت في الطريق.

وفرار العبد من دواعي المعصية وبواعثها فيه الخلاص من الركون للنفس، وفيه الاعتراف بالحاجة إلى الله ﷻ، ولذا فقد أوصى النبي ﷺ أصحابه بألا يجلسوا في الطريق حتى لا يتعرَّضوا للنظر الحرام، فقال: «إياكم والجلوس على الطرقات»، فقالوا: ما لنا بُدٌّ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: «فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها»، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غضّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر» (أخرجه البخاري ٢٤٦٥، ومسلم ٢١٢١).

ولذا كان النبي ﷺ يقول في دعائه لربه: «اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت». (أخرجه أحمد ٢٠٤٣٠، وأبو داود ٥٠٩٠).

الثالث: الدعاء، فقد دعا يوسف عليه السلام ربه فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣).

وأخبر ﷻ أنه يجيب المضطر إذا دعاه، قال -سبحانه-: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل:٦٢). ولا ضرورة أعظم ممن اضطر إلى مولاه لحفظ دينه وعِفته.

الرابع: صلاحه وطاعته وتقواه، وكان ذلك من أسباب توفيق الله له، قال -سبحانه-: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ (يوسف:٢٤).

الخامس: اختياره الأذى على فعل الفاحشة، فقد اختار السجن على ما تدعوه إليه النسوة، قال -سبحانه-: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (يوسف:٣٣).

مرَّ يوسف عليه السلام بأنواع من الابتلاء فصبر عليها، إلا أن هذا الصبر من أعظم ما صبره يوسف عليه السلام، قال ابن القيِّم: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها؛ أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجُبّ وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه؛ فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية؛ فصبر اختيار ورضى، ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة» (مدارج السالكين ٢/ ١٥٦).

إن فتنة النساء فتنة عظيمة بذاتها، فكيف في هذا العصر الذي سادت فيه قِيَم المادة، وراجت ثقافة الغرب في البحث عن اللذة والغريزة، وطُبِّعَ فيه الفساد.

وُظِّفَتْ الصورة الثابتة والمتحركة، والفن والمسرح، والغناء والرقص لإثارة الغريزة، وتطبيع المنكر، وصارت الفتن تُلاحق الشاب والفتاة،



وتقتحم عليهم خصوصياتهم، وتزاحمهم في غرفهم، تبحث عنهم قبل أن يبحثوا عنها.

والإعلام المعاصر اليوم يرتكب جريمة مركَّبَة؛ فهو ينشر ما يثير الغرائز، ويستدعي الشهوات، وفي المقابل لا يبرز قيمة العفَّة ومنزلتها: فهل رأيتم مسلسلاً أو عملا فنيًا يبرز المتعفّف قدوة؟ أو يحدِّث الجيل عن قيمة الانتصار على النفس؟

إن هذا السيل الجارف يتطلَّب من المصلحين العناية بتعزيز العفة، والاجتهاد في التربية على الفضيلة.

ولا يسوغ أن يكون المصلحون والمربون في موقف الدفاع فحسب؛ فيقتصر حديثهم ونصحهم على التحذير من الرذيلة ومساوئها، وبيان عقوباتها في الدنيا والآخرة، بل ينبغي أن يعنوا ببناء الجيل، وتربيته على الإيمان والتقوى، والخوف من الله ﷻ وخشيته في الغيب والشهادة، وتعزيز الإرادة والممانعة، وتنمية قدرة الجيل على إدارة ذواتهم، ومغالبة شهواتهم.

ومما ينبغي العناية به: تعزيز قيمة العفة، وإبراز قيمة الانتصار على النفس، وأن المتعفِّفين انتصروا على أنفسهم، وقاوموا رغباتهم، وأن لذة الإيمان والانتصار على النفس لا توازيها لذة اتباع الشهوة.



كان يأكل من عمل يده

عن المقدام ﷺ، عن رسول الله ﷺ، قال: «ما أكل أحد طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيّ الله داود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده» (أخرجه البخاري ٢٠٧٢).

وفي حديث أبي هريرة ورد ذلك على سبيل الحصر؛ فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: « خُفِّفَ على داودَ القرآنَ، فكانَ يَأمرُ بِدَوابِّهِ فُتَسْرَجُ؛ فيَقرأُ القرآنَ من قَبلِ أنْ تُسْرَجَ دَوابُّه، ولا يأكلُ إلَّا من عَمَلِ يدِه» (أخرجه البخاري ٣٤١٧).

وكان عليه السلام يصنع الدروع كما جاء في القرآن الكريم؛ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٨٠)

وأخبر تعالى أنه ألان له الحديد، فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سبأ: ١٠-١١).

وأخرج ابن جرير (٢٠/ ٣٥٩) بإسناده عن قتادة في قوله -سبحانه-: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أنه قال: «كان يسويها بيده ولا يدخلها نارًا ولا يضربها بحديدة».

وحكى ابن كثير (٦/ ٤٩٧) عن ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن شوذب قال: كان داود، عليه السلام، يرفع في كل يوم درعًا فيبيعها بستة آلاف درهم: ألفين

له ولأهله، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحواري.

وأخبر ﷺ عن زكريا بأنه كان نجَّارًا، فعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «كان زكرياء نجارًا» (أخرجه مسلم ٢٣٧٩).

كما أخبر ﷺ أن الأنبياء جميعًا رعوا الغنم، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة» (أخرجه البخاري ٢٢٦٢).

وجاء النص في حديث عبدة بن حزن على أنَّ داود عليه السلام قد رعى الغنم ولفظه: تفاخر أهل الإبل وأصحاب الشاء، فقال النبي ﷺ: «بُعِثَ موسى وهو راعي غنم، وبُعِثَ داود وهو راعٍ، وبُعِثْتُ أنا وأنا أرعى غنمًا لأهلي بالأجياد» (أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٧٧، والنسائي في الكبرى ١١٢٦٢).

كان الكسب من عمل اليد هديًا للأنبياء -عليهم السلام-، أما وجه تخصيص داود عليه السلام بذلك فقال ابن حجر: «والحكمة في تخصيص داود بالذكر أن اقتصاره في أكله على ما يعمله بيده لم يكن من الحاجة؛ لأنه كان خليفة في الأرض كما قال الله -تعالى-، وإنما ابتغى الأكل من طريق الأفضل، ولهذا أورد النبي ﷺ قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد» (فتح الباري ٤/ ٣٠٦).

وهل المعنى مقتصر على ما يباشره الإنسان بيده من عمل، أم المقصود التكسب بعمل الإنسان مطلقًا؟ وأن التعبير باليد لكونها الأغلب؟

قال ابن علان: «وذكر اليدين، إما لأنه أفضل مما ليس فيه عملهما،

ويؤيده أنه قيل له: أيّ الكسب أفضل؟ فقال: عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور. أو لأن أغلب الأعمال بهما، وإلا فالمراد مطلقه كالحاصل من كسب النظر كأن يستأجر لحفظ متاع، والسمع كأن يستأجر لسماع طلب درس علم، أو النظر كأن يستأجر لقراءة قرآن... ثم المراد كما تدل عليه القواعد الشرعية كسب حلال خالص من الغشّ بسائر وجوهه» (دليل الفالحين ٤/ ٥٢٦).

وليس المقام مقام بحث هذه المسألة وتقريرها، وسواء أقلنا بأن العمل باليد مقصود في هذا الحديث، وأنه أفضل مما يتكسب فيه الإنسان دون مباشرة اليد، أو قلنا بأن المقصود هو المعنى؛ فإن هذا وغيره مما ورد عن أنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- فيه تأسيس لخُلُق التعفف في المال، والاستغناء عن الحاجة للناس.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أهل تكسُّب وعمل باليد؛ فعائشة رضي الله عنها قالت: كان أصحاب رسول الله ﷺ عُمَّال أنفسهم، وكان يكون لهم أرواح، فقيل لهم: «لو اغتسلتم» (أخرجه البخاري ٢٠٧١).

وعنها رضي الله عنها، قالت: لما استخلف أبو بكر الصديق، قال: «لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن مئونة أهلي، وشغلت بأمر المسلمين، فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال، ويحترف للمسلمين فيه» (أخرجه البخاري ٢٠٧٠).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «يقولون: إن أبا هريرة قد أكثر، والله



الموعد، ويقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يتحدثون مثل أحاديثه؟ وسأخبركم عن ذلك: إن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أرضيهم، وإن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا....» (أخرجه مسلم ٢٤٩٣).

وفي قصة عمر مع أبي موسى رضي الله عنهما في حديث الاستئذان قال عمر رضي الله عنه: «خفي عليَّ هذا من أمر رسول الله ﷺ، ألهاني عنه الصفق بالأسواق» (أخرجه مسلم٢١٥٣).

وقال ابن حجر: «روى ابن سعد بإسناد مرسل رجاله ثقات، قال: لما استخلف أبو بكر أصبح غاديًا إلى السوق على رأسه أثواب يتَّجر بها، فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقال: كيف تصنع هذا وقد وُلِّيت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أُطْعِمُ عيالي؟ قالوا: نفرض لك؛ ففرضوا له كل يوم شطر شاة» (فتح الباري ٤/ ٣٠٥).

وحثَّ ﷺ أصحابه على التكسُّب والعمل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً، فيسأله أعطاه أو منعه» (أخرجه البخاري ١٤٧٠، ومسلم ١٠٤٢).

بل إنه بايع ﷺ بعض أصحابه على عدم السؤال، فعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، تسعة أو ثمانية أو

سبعة، فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟» وكنا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وتطيعوا -وأَسَرَّ كلمة خفية - ولا تسألوا الناس شيئًا»؛ فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدًا يناوله إياه. (أخرجه مسلم ١٠٤٣).

وحذّر ﷺ أصحابه من الحرص على الدنيا، وبيَّن لهم أن طالب الدنيا لا يشبع، فعن حكيم بن حزام ﷺ، قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورِكَ له فيه، ومَن أخذه بإشراف نفس لم يُبَارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى»، قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر ﷺ، يدعو حكيمًا إلى العطاء، فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر ﷺ دعاه ليعطيه فيأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى تُوُفِّيَ. (أخرجه البخاري ١٤٧٢).

التعفُّف في التعامل مع المال ليس مجرد تقلُّل من الدنيا، إنه ارتقاء

للنفس، وسُمُوّ بها، وانشغال بالسعي للآخرة؛ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٤).

الأمر لا يتَّصل بقدر ما يملكه الإنسان من الدنيا، ولا بحجم المعاناة مِن فَقْدها؛ إنه يتَّصل بحال القلب، فرُبَّ فقيرٍ مُعْدَم، رَكِبَتْه الديون والهموم، وقلبه متعلِّق بالدنيا غافل عن آخرته، ورُبَّ غَنِيّ مُوسِر، قلبه متعلِّق بالآخرة، والدنيا إنما هي في يده لا قلبه، ومصداق ذلك ما رواه أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له» (أخرجه الترمذي ٢٤٦٥).

وفقد التعفُّف عن الدنيا، وتعلُّق القلب بها؛ ربما أفسد دين المرء، وخُلُقه، وقاده لمساوئ الأخلاق، ولهذا كان أنصح الخلق ﷺ، وأعلمهم بما يصلح القلوب ويزكِّي النفوس، كان ﷺ يخشى على أصحابه من الدنيا، ويحذِّرهم من أثرها على فساد النفوس فيقول: «أبشِروا، وأمِّلوا ما يسرُّكُم، فواللهِ ما الفَقرَ أخشى عليكُم، ولَكِنِّي أخشَى عليكُم أن تُبسَطَ الدُّنيا عليكُم، كما بُسِطَت علَى مَن كانَ قبلَكُم، فتَنافسوها كما تَنافسوها، فتُهلِكَكم كما أَهْلَكَتهُم» (أخرجه البخاري ٤٠١٥، ومسلم ٢٩٦١).

وحين تضعف عفة الإنسان عن الدنيا، يتوسع في التأول لنفسه فيما لا



يحل من المكاسب، ويسوء خُلُقه مع الناس؛ فيزداد شَرَهُه، وتمسُّكه بكل ما يرى أنه من حقّه، وتضعف سماحته؛ فلا يكاد يُنْظِر معسرًا، أو يحطّ عن محتاج، أو يضحِّي بقَدْرٍ من مكاسبه لمصلحة ذي حاجة متعفِّف.

وحين يدخل الداعية والمنتسب للعلم والصلاح غمار السباق على الدنيا؛ فينافس الآخرين في دنياهم، يهون عليهم؛ فلا يقبلون كثيرًا من مقاله، ولا يتأسون بما يرونه من صالح حاله، وربما فسَّروا دوافع انشغاله بالدعوة والتعليم بالرغبة في المكانة لدى الناس، وتوظيف نظرتهم له في ترويج تجارته، وتسويق بضاعته.

وفي مقابل هذه الصورة من صُوَر التعفُّف عن الدنيا صورة مقابلة؛ ففي بعض بلاد المسلمين يعيش بعض الدعاة حالة من الفاقة والحاجة، وتكون الدعوة مصدرَ كسبهم ودخلهم، مما يخدش تعفُّفهم؛ فيتطلعون لما عند الناس، وتختلط الدعوة بالأجر والمال؛ فيجدر بهؤلاء، وبمن يرعاهم من المؤسسات الخيرية والدعوية، إشاعة الاكتساب الحلال، والاجتهاد في مصادر كسب تُغنيهم وتعفهم، والأمر لا يكفي فيه مجرد التذكير والتوجيه، بل مِن شأن مَن يقوم على الدعوة ويرعى الدعاة، أن يُعْنَى بذلك، وأن يتم تأهيل هؤلاء لمصادر كسب تغنيهم وتعفهم؛ فهذا أصدق في دعوتهم، وأصفى لنفوسهم من التعلق بالدنيا.

وقد كان أهل العلم فيما مضى يوصون طالب العلم بالاستغناء عن الحاجة للناس، قال ابن مفلح: «وقد كان للعلماء قديمًا حظّ من بيت

المال يُغنيهم، وكان فيهم من يعيش في ظل سلطان كأبي عبيد مع ابن طاهر، والزجاج مع ابن وهب، ثم كان للعلماء من يراعيهم من الإخوان حتى قال ابن المبارك: لولا فلان وفلان ما اتَّجرت، وكان يبعث بالمال إلى الفضيل وغيرهم، ثم قلَّ ذلك المعنى فصار أقوام من التجار يتفقدون العلماء بالزكاة فيندفع الزمان، وقد وصلنا إلى زمان تقطعت فيه هذه الأسباب حتى لو احتاج العالم فطلب لم يُعْطَ، فأولى الناس بحفظ المال وتنمية اليسير منه والقناعة بقليله؛ توفيرًا لحفظ الدين والجاه، والسلامة من مِنَن العوام الأراذل؛ العالِمُ الذي فيه دين وله أَنَفَة من الذُّلّ، وقد قال منصور بن المعتمر: إن الرجل ليسقيني شربة من ماء فكأنه دَقَّ ضلعًا من أضلاعي» (الآداب الشرعية ١/ ٢١٩).

وقال: «فالأولى لمثل هذا (العالم) في هذا الزمان المظلم أن يجتهد في كسب إن قدر عليه، وإن أمكنه نسخ بأجرة، ويدبر ما يحصل له، ويدَّخر الشيء لحاجة تعرض لئلا يحتاج إلى نذل» (الآداب الشرعية ١/ ٢١٩).

وقال ابن الجوزي: «فعليك -يا طالب العلم- بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس؛ فإنه يجمع لك دينك! فما رأينا في الأغلب منافقًا في التدين والتزهد والتخشع ولا آفة طرأت على عالم، إلا بحب الدنيا، وغالب ذلك الفقر. فإن كان من له مال يكفيه، ثم يطلب بتلك المخالطة الزيادة، فذلك معدود في أهل الشَّرَه، خارج عن حَيِّز العلماء، نعوذ بالله من تلك الأحوال». (صيد الخاطر ص ١٧٦).



وعن علي بن الفضيل، قال: سمعت أبي يقول لابن المبارك: إنك تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، كيف ذا وأنت تأمرنا بخلاف ذا؟ فقال ابن المبارك: «يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون وجهي، وأكرم بها عرضي، وأستعين بها على طاعة ربي، لا أرى لله حقًّا إلا سارعت إليه حتى أقوم به»، فقال له الفضيل: يا ابن المبارك، ما أحسن ذا إن تم ذا. (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١٢٠٨).



وما أسألكم عليه من أجر

حكى الله ﷻ في سورة الشعراء عن نبيّه نوح عليه السلام، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب أن كلاً منهم قال لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٠٩).

وفي سورة يونس حكى عن نوح عليه السلام قوله ذلك لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس:٧٢).

وأمر خاتم الأنبياء ﷺ أن يقول ذلك لقومه، فقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ (الفرقان:٥٦-٥٧).

وجاء ذلك أيضًا في سورة سبأ فقال -سبحانه-: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سبأ:٤٧). وفي سورة ص: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص:٨٦).

وفي حادثة الهجرة امتنع ﷺ أن يأخذ ما عرَضه عليه سُرَاقة رغم حاجته ﷺ لذلك، جاء في إحدى روايات مسلم (٢٠٠٩) لقصة الهجرة: فلما دنا دعا عليه رسول الله ﷺ، فساخ فرسه في الأرض إلى بطنه، ووثب عنه، وقال: يا محمد قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن يخلِّصني مما

أنا فيه، ولك عليَّ لأُعَمِّيَنَّ على مَن ورائي، وهذه كنانتي، فخذ سهمًا منها، فإنك ستمر على إبلي وغلماني بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك، قال: «لا حاجة لي في إبلك».

إن طمع الداعية فيما لدى الناس، واحتياجه لمالهم يشكِّكهم في صدق دعوته وتجرُّده، لذا فقد هيَّأ الله ﷻ لأنبيائه -صلوات الله وسلامه عليهم- أسباب الرزق والتكسب التي أغنتهم عن الاحتياج للناس؛ فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة» (أخرجه البخاري ٢٢٦٢).

والسائرون على منهج الأنبياء هم أحوج الناس إلى التجرُّد والتخلُّص من التعلُّق بما لدى الآخرين، وتجريد الدعوة من التكسُّب والارتزاق.

من حقّ الداعية وطالب العلم أن يكتسب كما يكتسب غيره، وأن يأخذ نصيبه من الدنيا، لكن المنتظَر منه وهو موضع الاقتداء ألا يتعلق بالدنيا ويلهث وراءها، وألا يوظف دعوته وعلمه للتكسب والتكثر.

وتمام ذلك يتحقَّق بالفصل بين مصادر التكسُّب ونشاطه في الدعوة والتعليم، سوى ما تعارف الناس على تقبُّله كالتعليم في المدارس والجامعات، أو الوظائف الشرعية من قضاء وخطابة، ونحو ذلك.

ومن صور التكسب من الدعوة والتعليم: التكسب المعنوي، والبحث عن الجاه والشهرة والمكانة لدى الآخرين، أو توقُّع الإجلال والتقدير

الذي يراه لائقًا به، وربما سخط أحدهم من تعامل الآخرين معه خلافًا لما ينتظره ويتوقعه.

ومما لا يليق بالداعية أن يُكَلِّف الناس شططًا -بلسان الحال أو المقال- في معايير الركوب والاستضافة والسكن، أو نحو ذلك مما هو من متاع الدنيا وحظوظ النفس.

وإياك وتزيين الشيطان بأن الداعية وطالب العلم أوْلى بالتقدير من أهل الفن والرياضة ونحوهم.

لقد أنكر ﷺ على من أخذ أجرًا ممن علمه القرآن، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُشْغَل، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن، فدفع إليَّ رسول الله ﷺ رجلاً وكان معي في البيت أُعَشِّيه عشاء أهل البيت، فكنت أقرئه القرآن فانصرف انصرافة إلى أهله فرأى أن عليه حقًّا فأهدى إليَّ قوسًا، لم أر أجود منها عودًا ولا أحسن منها عطفًا، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: ما ترى يا رسول الله فيها؟ قال: «جمرة بين كتفيك تقلدتها أو تعلقتها» (أخرجه أحمد ٢٢٢٦٠، وأبو داود ٣٤١٦).

وحذَّر أهل العلم الفقيه وطالب العلم من التكسُّب بعلمه، ذكر ابن جماعة من آداب العالم ما يلي: «الرابع: أن ينزه علمه عن جعله سُلَّمًا يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية من جاه أو مال أو سمعة، أو شهرة أو خدمة، أو تقدم على أقرانه» (تذكرة السامع والمتكلم ص١٢).

وقال -رحمه الله-: «قال الإمام الشافعي ﷺ: «وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إليَّ حرف منه»، وكذلك ينزّهه عن الطمع في رفق من طلبته بمال أو خدمة أو غيرهما بسبب اشتغالهم عليه وتردُّدهم إليه، فقد كان منصور لا يستعين بأحد يختلف إليه في حاجةٍ.

وقال سفيان بن عيينة: «كنت قد أُوتيت فهم القرآن فلما قَبِلْتُ الصُّرَّة من أبي جعفر سُلِبْتُهُ، فنسأل الله -تعالى- المسامحة» (تذكرة السامع والمتكلم ص١٢).

وقال الفضيل بن عياض: «سئل ابن المبارك: من الناس؟ قال: العلماء. قال: من الملوك؟ قال: الزهاد. قال: فمن السفلة؟ قال: الذي يأكل بدينه». (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٦٥٣٤).

ومما يتأكد على الدعاة وأهل العلم البعد عنه عطايا السلطان؛ فثمنها باهظ، وقد كان كثير من أئمة السلف لا يقبلون عطاء الخلفاء والأمراء، قال الأصمعي: دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك وهو جالس على السرير، وحوله الأشراف، وذلك بمكة، في وقت حجّه في خلافته، فلما بَصُرَ به عبد الملك، قام إليه، فسلم عليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال: يا أبا محمد، حاجتك؟

قال: يا أمير المؤمنين! اتق الله في حَرَم الله، وحرم رسوله، فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور، فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور



المسلمين، فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك، فلا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك.

فقال له: أفعل.

ثم نهض، وقام، فقبض عليه عبد الملك، وقال: يا أبا محمد! إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟

قال: ما لي إلى مخلوق حاجة. ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا - وأبيك - الشرف، هذا - وأبيك - السؤدد. (سير أعلام النبلاء ٥/ ٨٤-٨٥).

وحين دخل الأوزاعي على أبي جعفر نصحه نصيحة أطال فيها ثم قال: «وهذه نصيحتي، والسلام عليك. ثم نهضت فقال: إلى أين؟ فقلت: إلى البلد والوطن بإذن الله وإذن أمير المؤمنين إن شاء الله، قال: قد أذنت لك، وشكرت لك نصيحتك، وقبلتها بقبولها، والله هو الموفِّق للخير والمُعين عليه، وبه أستعين، وعليه أتوكل، وهو حسبي ونعم الوكيل، فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثلها، فإنك المقبول القول، غير المتَّهم في النصيحة، قلت: أفعل إن شاء الله، فأمر له بمال يستعين به على خروجه، فلم يَقبله، وقال: أنا في غنًى عنه، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض من أعراض الدنيا كلها» (مختصر تاريخ دمشق ١٤/ ٣٣٨).





القوة والأمانة

» إن خير من استأجرت القوي الأمين

» وأنا لكم ناصح أمين



إن خير من استأجرت القوي الأمين

قال الله -تعالى- في قصة موسى عليه السلام في سورة القصص: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٥-٢٦).

سألت الفتاة والدها أن يستأجر موسى عليه السلام، وعلَّلت ذلك باتِّصافه بالقوة والأمانة، قال ابن جرير: «تقول: إن خير مَن تستأجره للرعي القويُّ على حِفْظ ماشيتك والقيام عليها في إصلاحها وصلاحها، الأمينُ الذي لا تخاف خيانته، فيما تأمنه عليه. وقيل: إنها لما قالت ذلك لأبيها، استنكَر أبوها ذلك من وصفها إياه فقال لها: وما علمك بذلك؟ فقالت: أما قُوَّته فما رأيت من علاجه ما عالج عند السقي على البئر، وأما الأمانة فما رأيت من غضِّ البصر عني. وبنحو ذلك جاءت الأخبار عن أهل التأويل». (تفسير ابن جرير ١٩/ ٥٦٢).

عن عبد الله، قال: «أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرَّس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: أكرمي مثواه، وصاحبة موسى حين قالت: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين». (تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦٦).

وقد تضمَّنت هذه الأمانة أمرين مهمين جمعهما حَبْر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «أمين فيما وَلِيَ، أمين على ما استُودع» (تفسير ابن جرير ١٩/ ٥٦٢).

وقال الزمخشري: «وقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ كلام حكيم جامع لا يزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان، أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتَمَّ مرادك» (تفسير الزمخشري ٣/ ٤٠٣).

ووصف الله عز وجل جبريل عليه السلام بالقوة والأمانة؛ فقال ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير:١٩-٢١). ووصفه بالقوة في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ (النجم:٤-٦). وبالأمانة في قوله ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ (الشعراء:١٩٣).

قال ابن عثيمين: «فاجتمع في حق جبريل -عليه الصلاة والسلام- القوة والأمانة، فبأمانته نَعلم أنه لا زيادة ولا نقص في القرآن الذي أوحاه الله إليه ليلقيه على قلب النبي -عليه الصلاة والسلام-، وبالقوة نعلم أنه لا أحد تسلَّط على القرآن حين نزول جبريل به، أو غلبه عليه، أو توانَى جبريل في تنزيله؛ لأنه قوي» (شرح السفارينية ١/ ٢٠٦).

وأثنى ﷺ على الخازن الأمين؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «الخازن الأمين، الذي يؤدِّي ما أُمِرَ به طَيِّبَة نفسه، أحدُ



المتصدِّقين» (أخرجه البخاري ٢٢٦٠، ومسلم ١٠٢٣).

وحين حضرت عمرَ بن الخطاب ﷺ الوفاةُ قال له ابن عباس ﷺ: «أبشر بالجنة، صاحبتَ رسول الله ﷺ، فأطلتَ صحبته، وَوُلِّيتَ أمر المؤمنين فقويت وأدَّيت الأمانة» (أخرجه أحمد ٣٢٢).

قال السعدي: «وهذان الوصفان، ينبغي اعتبارهما في كلِّ مَن يتولى للإنسان عملاً بإجارة أو غيرها؛ فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل» (تفسير السعدي ص ٦١٤).

إن القوة كما قرَّر أهل العلم في كل مجال بحسبه، وهي تعني تمَكُّن الشخص من الخبرات والمهارات التي يحتاجها لأداء مهمة معينة، أو تولِّي مسؤولية محدَّدة.

قال ابن تيمية: «وينبغي أن يُعرَف الأصلح في كلِّ منصب، فإن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)» (السياسة الشرعية ص١٢).

وقال ابن تيمية: «والقوة في كل ولاية بحسبها؛ فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، وإلى الخبرة بالحروب، والمخادعة فيها، فإن الحرب خدعة، وإلى القدرة على أنواع القتال؛ من رمي وطعن، وضرب وركوب، وكرّ وفرّ، ونحو ذلك؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾



(الأنفال:٦٠). وقال النبي ﷺ: «ارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إليَّ من أن تركبوا، ومن تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا»، وفي رواية: «فهي نعمةٌ جحدها» (رواه مسلم).

والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام. والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمنًا قليلاً، وترك خشية الناس؛ وهذه الخصال الثلاث التي أخذها الله على كلِّ مَن حكم على الناس، في قوله -تعالى-: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤)» (السياسة الشرعية ص ١٣).

القدوات وخُلُق القوة:

لئن كانت القوة موهبة ربانية، أو ملكة تنشأ لدى الإنسان في صِغَرِه أيًا كان مصدرها الوراثة أم الاكتساب والتعلم، فإن المرء حين يَشُبّ ويكتمل عوده لا يملك أن يكون قويًا أو لا يكون، فما صلتها بالتخلق؟

نعم يظهر ذلك في القوة البدنية والجسمية، إلا أنها لم تَعُدْ اليوم ذات أثر بالغ؛ فيومًا بعد آخر يتضاءل دورها لصالح الخبرة والمهارة.

ومن هنا يبدو دور القدوات في التخلُّق بخُلُق القوة، إنه يظهر هنا في العناية باكتساب مصادر القوة والمتمثلة في عدد من المجالات، منها:

- التمكُّن من التخصُّص والتعمُّق فيه، وهذا يظهر أثره واضحًا في

جودة الأداء وفاعليته، ويتأكد ذلك حين يتعامل المختص مع غير المختصين في مجاله، ويكثر ذلك في المؤسَّسات الخيرية والدعوية، فأولئك لا يستطيعون تقويم جودة عمله، ولا تمكنه من تخصُّصه؛ فمعظم ما يقوله هو جديد بالنسبة لهم.

- التمكُّن من بعض القدرات والمهارات العامَّة التي تُمَثِّل قدرًا مشتركًا في كثير من المهام، وعنصرًا رئيسًا من عناصر النجاح؛ كالتواصل والإقناع، والعلاقات مع الآخرين، والمهارات الإدارية الرئيسة.
- التمكُّن من القوة النفسيَّة والعقليَّة - إن صح التعبير-؛ فتمكُّن الشخص من تخصُّص أو مجال معيَّن لا يكفي لنجاحه؛ فكثير من البارعين المتميزين علميًّا في مجالات معينة لا يحقِّقُون النجاح؛ لضعفهم في بعض السمات النفسية كالإرادة والثقة بالنفس وإدارة الذات...، أو في بعض العادات والمهارات العقلية كالمثابرة العقلية، والمرونة، والانفتاح ونحو ذلك، وكثير من هذه الجوانب النفسية والعقلية يمكن تطويرها والارتقاء بها، ولها أثر بالغ في نجاح صاحبها، أو قصور أدائه.

ومن الجوانب المهمة المتصلة بالتخلُّق -فيما يتعلق بالقوة- ألا يتصدى الإنسان لما يعلم أنه ليس قويًّا فيه.

يعتقد بعض الدعاة وطلبة العلم أن علمه الشرعي، أو خبرته الدعوية

كافية لتأهله لبعض الأدوار القيادية مدفوعًا بثقة الأتباع والمريدين؛ فيغفل عن فقده للقوة المطلوبة في هذا المجال.

ليس كل عالم أو طالب علم متميز هو بالضرورة قادر على قيادة مؤسَّسة علمية، أو إدارة مركز بحثي وعلمي، وليس كل داعية ناجح في دعوته مؤهَّل لقيادة عمل دعوي.

إنَّ مِن الصدق مع النفس والآخرين أن نعرف حدود قوتنا، وأن نتجرأ على الاعتذار عما لا نملك فيه القوة الكافية، فهذا يزيدنا ولا ينقصنا.

القدوات وخُلق الأمانة:

إذا كان في القوة ما لا يمكن اكتسابه، وما يمكن اكتسابه؛ فالأمانة بخلاف ذلك؛ فهي مرتبطة بإيمان صاحبها وتقواه وإرادته.

وأصل الأمانة موجود لدى مَن يتصدَّى للعلم والدعوة في الغالب الأعم، لكن المطلوب منها ما هو فوق ذلك.

إن معايير الناس وتوقعاتهم فيما ينتظرونه من القدوات عالية وحساسة جدًّا، وقد يقبل الناس من القدوات بعض التقصير، أو يتفهَّمون جهله ببعض المسائل، أما الأمانة فلا.

والخلل في أمانة القدوات لا يضعه كثير من الناس في إطاره البشري باعتبار أن الخطأ قد يصدر من البشر أيًّا كانوا، بل إنهم يعدُّونه طعنًا في المقاصد، وأمارة على عدم الصدق في الدعوة، وأنها تُتَّخَذ مطيَّة للمقاصد الخاصَّة، بِغَضِّ النظر عن صِحَّة ذلك.

ولهذا كان الأنبياء والمرسلون -صلوات الله وسلامه عليهم- يردِّدون على أقوامهم ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء:١٠٧)، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء:١٠٩)، وأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يقول ذلك لقومه، قال -سبحانه-: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سبأ:٤٧)، وقال ﷻ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص:٨٦).

ومن هنا فعلى القدوات الاجتهاد في التحلِّي بخُلُق الأمانة، والبعد عن كلِّ ما يخدش فيها، والحذر من المداخل التي تكون مجلبة لسوء ظنّ الناس بهم، وألا يعتمدوا على مطالبة الآخرين بحسن الظن بهم.

وهذا يتطلب اجتهاد القدوات في التخلُّق بخُلُق القوة، إذا كان ضعفها سيؤدي لإثارة التساؤلات حول أمانتهم، فضلاً عن البُعْد عن الشبهات، والحذر منها، وبخاصة ما يتحصله من خلال الدعوة وعمل الخير.

حين رأى رجلان من الصحابة رسول الله ﷺ واقفًا مع زوجته صفيَّة أخبرهما أنها صفية، وأصَّل ﷺ القاعدة العظيمة في تجنُّب النفس مواطن التُّهَم بقوله: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يُلْقِي في أنفسكما شيئًا» (أخرجه البخاري ٢٠٣٨، ومسلم ٢١٧٥).



وأنا لكم ناصح أمين

الأمانة شأنها عظيم، عرضها الله على السماوات والأرض فلم يحملنها، قال ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب:٧٢).

ومن عظم شأن الأمانة أنها يوم القيامة تكون على جنبة الصراط؛ كما في حديث حذيفة الطويل وفيه «وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً» (أخرجه مسلم ١٩٥).

ولهذا كان أنبياء الله -صلوات الله وسلامه عليهم- أئمة وقدوة في الأمانة، فجاء في كتاب الله ﷻ على لسان طائفة منهم قوله لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٠٧). جاء ذلك في سورة الشعراء على لسان كلٍّ من نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وفي نهاية السورة وصف الله ﷻ جبريل عليه السلام بالأمانة فقال -سبحانه-: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ (الشعراء:١٩٣).

ووصف -تبارك وتعالى- نبيه موسى عليه السلام بالأمانة فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الدخان: ١٧-١٨).

وفي سورة الأعراف قال هود عليه السلام لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف:٦٨).



وفي حديث هرقل أن الأمانة من صفات الأنبياء -عليهم السلام-؛ فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: أخبرني أبو سفيان، أن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت: «أنه أمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة»، قال: وهذه صفة نبي. (أخرجه البخاري ٢٦٨١).

ولقد بلغ من أمانة خاتم الأنبياء محمد ﷺ أن صارت الأمانة لقبًا له، قبل بعثته ورسالته، فكيف بما بعدها؟

حين أعادت قريش بناء البيت، واختلفوا فيمن يضع الحجر في مكانه، قال أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان عامئذ أسنّ قريش كلها، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم -فيما تختلفون فيه- أول مَن يدخل من باب هذا المسجد يَقضي بينكم فيه ففعلوا، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رَضينا، هذا محمد. (سيرة ابن هشام ١/ ١٨٢).

وكانت أمانة النبي ﷺ مما دفعت بخديجة رضي الله عنها إلى استئجاره للمتاجرة، ثم الزواج به: «قال ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إيَّاه، بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها: من صدق حديثه، وعِظَم أمانته، وكرم أخلاقه، بَعَثَت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما

كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له: ميسرة، فقَبِلَه رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة، حتى قدم الشام» (سيرة ابن هشام ١/ ١٧١-١٧٢).

ووصف أنبياء الله بالأمانة جاء في سياقين، هذا السياق وهو المتصل بالرسالة؛ فهم أمناء على الوحي والرسالة وتبليغها، والسياق المتصل بالاتصاف بالأمانة عمومًا؛ فقد وصف الله ﷻ نبيه موسى على لسان فتاة مدين بأنه قوي أمين ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص:٢٦)، وجاء على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٥٥)، وحين لقي الملك قال له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (يوسف:٥٤). وسبق الحديث عن هذا السياق في المبحث السابق.

ويتجلَّى خُلُق الأمانة لدى أنبياء الله -صلوات الله وسلامه عليهم- في إبلاغهم ما أنزل الله ﷻ إليه كما جاء من عند الله بلا زيادة أو نقص، والخلل في هذه الأمانة يتناقض مع أصل الرسالة؛ فأتباع الرسل إنما يصدقونهم ليقينهم بأمانتهم وصدقهم، وأنهم لا يفترون على الله كذبًا.

وتقرير هذا الخُلُق لدى أنبياء الله -عز وجل، وعلى رأسهم خاتمهم، وإمامهم محمد ﷺ- له أهميته لترسيخ اليقين لدى الجيل بصدق النبوة، ومرجعية الوحي.

قال ﷻ مبيِّنًا أمانة نبيِّه ﷺ وصدقه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾

لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٧).

ومن أمانة سيِّد الخلق وصدقه ﷺ في تبليغ رسالته أنه بلَّغ أُمته بما أنزله الله في شأنه في كتابه، قال -سبحانه-: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب:٣٧).

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: لو كتم رسول الله ﷺ شيئًا مما أُوحي إليه من كتاب الله لكتم ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾. (تفسير ابن جرير ٢٠/ ٢٧٣).

وسورة عبس التي فيها عتاب الله ﷻ له ﷺ على توليه عن ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وغير ذلك مما جاء في القرآن الكريم.

وبيَّن ﷺ أن إضاعة الأمانة من علامات الساعة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدِّث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: «أين - أراه - السائل عن الساعة؟» قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «فإذا ضُيِّعَتْ الأمانة فانتظر الساعة»، قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» (أخرجه البخاري ٥٩).

وفي حديث حذيفة ﷺ بيان لكيفية نزع الأمانة، فعنه ﷺ، قال: حدَّثَنا رسولُ اللهِ ﷺ حديثَينِ، رأيتُ أحدَهما وأنا أنتظِرُ الآخَرَ: حدَّثَنا: (أنَّ الأمانةَ نزَلَتْ في جَذرِ قلوبِ الرجالِ، ثم علِموا منَ القرآنِ، ثم علِموا منَ السُّنَّة). وحدَّثَنا عن رفعِها قال: (ينامُ الرجلُ النومةَ فتُقبَضُ الأمانةُ من قلبه، فيظَلُّ أثرُها مثلَ أثرِ الوَكتِ، ثم ينامُ النومةَ فتُقبَضُ فيَبقى فيها أثرُها مثلَ أثرِ المَجْلِ، كجمرٍ دحرَجتَه على رِجلِك فنفِط، فتَراه مُنتَبِرًا[1] وليس فيه شيءٌ، ويُصبِحُ الناسُ يتَبايَعونَ، فلا يَكادُ أحدٌ يؤدِّي الأمانةَ، فيُقالُ: إنَّ في بني فلانٍ رجلًا أمينًا، ويُقالُ للرجلِ: ما أعقَلَه وما أظرَفَه وما أجلَدَه، وما في قلبِه مثقالُ حبةِ خَردَلٍ من إيمانٍ). ولقد أتى عليَّ زمانٌ، ولا أُبالي أيُّكم بايَعتُ، لئن كان مسلمًا ردَّه عليَّ الإسلامُ، وإن كان نصرانيًّا ردَّه عليَّ ساعيه، وأما اليومَ: فما كنتُ أُبايعُ إلا فلانًا وفلانًا. (أخرجه البخاري ٦٤٩٧ ومسلم ١٤٣).

وخُلُق الأمانة متَّصل بكافة جوانب الحياة، قال ابن جرير حول آية الأحزاب: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قاله الذين قالوا: إنه عُنِيَ بالأمانة في هذا الموضع: جميع معاني الأمانات في الدين وأمانات الناس، وذلك أن الله لم يخصَّ بقوله: ﴿عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ بعض معاني الأمانات؛ لما وصفنا» (تفسير ابن جرير ٢٠/ ٣٤٢).

---

(١) الوكت: الأثر اليسير، وقيل: سواد يسير، وقيل: لون يحدث مخالف للون الذي كان قبله. والمجل: التنفط الذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها، ويصير كالقبة فيه ماء قليل. ومنتبرًا: مرتفعًا، وأصل هذه اللفظة الارتفاع ومنه المنبر لارتفاعه. (شرح صحيح مسلم للنووي ٢/ ١٦٨-١٦٩).

وقال القرطبي: «والأمانة تعمُّ جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور» (تفسير القرطبي ١٤/ ٢٥٣).

ويبين ﷺ أن الأمانة تشمل ما بين الزوجين؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة، الرجل يُفْضِي إلى امرأته، وتُفْضِي إليه، ثم ينشر سرّها» (أخرجه مسلم ١٤٣٧).

من صور الأمانة: بيان الحق والعلم، فكلّ مَن آتاه الله ﷻ علمًا، وعلّمه من الحقّ عليه أمانة التبليغ والبيان، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ (آل عمران:١٨٧).

ورعاية الأمانة في ذلك تتطلَّب أن يقول الإنسان ما يعتقد أنه الحق، متجرِّدًا عن الهوى وحظوظ النفس، محتملاً ما قد يصيبه من جراء ذلك، كما قال -سبحانه-: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (لقمان:١٧).

ومن ذلك التعفُّف عن أموال الناس، ويتأكد ذلك في حق أهل الصلاح والمنتسبين للعلم والدعوة، فما يتوقعه الناس منهم يختلف عما يتوقعونه من غيرهم، وعين النقد تجاه أعمالهم وتصرفاتهم تستوعب حتى الشبهات وما قاربها، وحين يرى الناس من أحدهم تقصيرًا، أو ميلاً نحو مطلب ماديّ فكثيرًا ما يلقون عليه التهمة، ويشكِّكون في نية تصدِّيه للدعوة والتعليم، وأنها مجرد غطاء لمصالحه الشخصية.

ومن أهم مواطن التحلِّي بالأمانة الوظائف الشرعية من قضاء، وتعليم، وخطابة وإمامة، ونحو ذلك، بالعناية بوقت العمل، والاجتهاد في صرفه فيما استؤمن عليه، فضلاً عن مراقبة الله، والعناية بحسن أداء العمل ورعايته.

وهكذا الأموال العامة، والأموال الخيرية؛ فهي تحتاج إلى مزيد من الورع، والاحتياط، والاجتهاد في رعايتها وحفظها.

وهكذا الأمانة العلمية، وبالأخص مع ارتباط الجانب المادِّي بالتأليف والكتابة، ومن أهم صورها الأمانة في الحكم على المخالفين، وحكاية أقوالهم ومواقفهم.

إنها حمل ثقيل، أشفقت منه السماوات والأرض، وحملناها معشر بني آدم، وتَبِعَتُها عظيمة؛ فقد جاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود ﷺ: «القتلُ في سبيلِ الله يُكفِّرُ الذُّنوبَ كلَّها إلَّا الأمانةَ قال: يُؤتَى العبدُ يومَ القيامةِ، وإن قُتِل في سبيلِ الله، فيُقالُ: أدِّ أمانتَك، فيقولُ: أيْ ربِّ كيف، وقد ذهبت الدُّنيا، فيُقالُ: انطلِقوا به إلى الهاويةِ، فيُنطلَقُ به إلى الهاويةِ، وتمثُلُ له أمانتُه كهيئتِها يومَ دُفِعت إليه، فيراها فيعرِفُها، فيهوي في أثرِها حتَّى يُدرِكَها، فيحمِلُها على منكِبَيْه حتَّى إذا ظنَّ أنَّه خارجٌ قلَّت عن منكِبَيْه، فهو يهوي في أثرِها أبدَ الآبدين، ثمَّ قال: الصَّلاةُ أمانةٌ، والوضوءُ أمانةٌ، والوزنُ أمانةٌ، والكيْلُ أمانةٌ، وأشياءُ عدَّدها، وأشدُّ ذلك الودائعُ. قال – يعني زاذانَ: فأتيْتُ البراءَ بنَ عازبَ فقلتُ: ألا ترَى إلى ما قال ابنُ

مسعودٍ؟ قال: كذا، قال: صدق؛ أما سمِعتَ اللهَ يقولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ (النساء:٥٨)» (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤٨٨٥).

رحماك يا الله، فلا تكلنا لأنفسنا، وأَعِنّا على حمل الأمانة والوفاء بحقها.







- ولم يجعلني جبارًا
- هل أتبعك؟
- هو أفصح مني لسانًا
- ففهمناها سليمان
- وعلمتني من تأويل الأحاديث
- ولا أقول للذين تزدري أعينكم
- ولا أقول إني ملك
- فعلتها إذا وأنا من الضالين
- فتبسم ضاحكًا من قولها

ولم يجعلني جبارا

وصَف الله ﷻ عبده يحيى بقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (مريم: ١٤).

وحين أنطق الله ﷻ عيسى وهو في المهد قال عن نفسه: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (مريم:٣٢).

ونفى عن نبيه ﷺ هذه الصفة، فقال ﷻ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾(ق:٤٥).

وفي قصة موسى عليه السلام مع القبطي والرجل الذي من شيعته استنكر الرجل على موسى عليه السلام أن يتصف بصفة الجبابرة، ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (القصص:١٩) . قال ابن عاشور: «والمعنى: إنك تحاول أن تكون متصرفًا بالانتقام وبالشدة، ولا تحاول أن تكون من المصلحين بين الخصمين بأن تسعى في التراضي بينهما» (التحرير والتنوير ٢٠/ ٩٤).

قال ابن فارس: «الجيم والباء والراء أصل واحد، وهو جنس من العظمة والعلو والاستقامة» (مقاييس اللغة ١/ ٥٠٢).

وذكر ابن منظور معاني عدة للجبار؛ فذكر منها:

- الجبَّار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقًّا.

- و الجبَّار من الملوك: العاتي، وقيل: كل عاتٍ جبار وجبير.
- وقلب جبَّار: لا تدخله الرحمة.
- وقلب جبَّار: ذو كبر لا يقبل موعظة.
- ورجل جبَّار: مسلّط قاهِر. قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٍ﴾؛ أي بمسلط فتقهرهم على الإسلام.
- والجبَّار: الذي يقتل على الغضب.

والجبار: القَتَّال في غير حق. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾(الشعراء: ١٣٠)؛ وكذلك قول الرجل لموسى في التنزيل العزيز: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: قتَّالاً في غير الحق، وكله راجع إلى معنى التكبر» (لسان العرب ٤/ ١١٣-١١٤).

وفسَّر عددٌ من أهل التفسير المراد بنفي هذه الصفة عن يحيى عليه السلام بقريب من ذلك.

قال القرطبي: «و(جبَّارًا) متكبرًا، وهذا وصف ليحيى عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح» (تفسير القرطبي ١١/ ٨٨).

وقال ابن عاشور: «والجبَّار: المستخفّ بحقوق الناس، كأنه مشتقّ من الجبر، وهو القَسْر والغصب» (التحرير والتنوير ١٦/ ٧٧).

وقال السعدي: «لم يكن متجبِّرًا متكبِّرًا عن عبادة الله، ولا مترفِّعًا على عباد الله، ولا على والديه، بل كان متواضعًا، متذللاً مطيعًا، أوَّابًا لله على

الدوام، فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله، في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها» (ص ٤٩٠).

وارتبطت هذه الصفة بالسلاطين والملوك ونحوهم في لغة العرب، وفي القرآن الكريم، وفي سُنَّة النبي ﷺ وشواهد ذلك عديدة.

قال هود عليه السلام منكرًا على قومه: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٠).

وبيَّن الله عز وجل في عاقبة قوم هود أنهم اتَّبعوا الجبارين، فقال -سبحانه-: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (هود:٥٩)؛ فاتباع الجبارين سبيل مناقض لاتباع الأنبياء.

وفي سنة النبي ﷺ جاء وصف الملوك المتسلِّطين بالتجبُّر؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «هاجر إبراهيم بسارة، دخل بها قرية فيها ملك من الملوك، أو جبَّار من الجبابرة، فأرسل إليه: أن أرسل إليَّ بها، فأرسل بها، فقام إليها، فقامت توضأ وتصلي، فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك، فلا تسلط عليَّ الكافر، فغطَّ حتى ركض برجله» (أخرجه البخاري ٦٩٥٠، ومسلم ٢٣٧١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج... وكانت امرأة ترضع ابنًا لها من بني إسرائيل، فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني

مثله، ثم أقبل على ثديها يمصّه، - قال: أبو هريرة كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمصّ إصبعه - ثم مرَّت بأَمَة، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت: لِمَ ذاك؟ فقال: الراكب جبَّار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون: سرقتِ، زنيتِ، ولم تفعلْ» (أخرجه البخاري ٣٤٣٦).

ووصف أنس بن مالك ﷺ بذلك الملوك الذين راسلهم ﷺ، فعن أنس ﷺ: أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله -تعالى-، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ. (أخرجه مسلم ١٧٤٤).

وهكذا نفى الله ﷻ عن أنبيائه ورسله صفة التجبُّر، ووُصِفَ بها أعداء الأنبياء، وسلاطين الجور.

إن في النفس البشرية ميلاً إلى العلو والتسلُّط، فحين يبلغ الإنسان مكانة ما، أو يحظى بسلطة؛ فقد تعجبه نفسه، ويستلط ويتجبر على عباد الله ﷻ، كما قال -سبحانه-: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق:٦-٧).

إن لدى الأنبياء -عليهم السلام- من العلم ما ليس لدى الناس، وهم من خير بيوت الناس نسبًا ومكانة، كما جاء في حديث هرقل: «وكذلك الرسل تبعث في نَسَب من قومها» (أخرجه مسلم ١٧٧٣).

وكذلك طالب العلم والداعية كثيرًا ما يفوق من حوله علمًا، وتدينًا،

وربما مكانة اجتماعية، ويجتمع عليه الناس، ويصدرون عن قوله، ويسألونه عن الصغير والكبير، ويتناقلون مقولته، ويثقون بمشورته، وكثيرًا ما يكون محل احتفاء الناس وعنايتهم، وإكرامهم.

وذلك قد يكون مدعاة لأن يُعْجَب بنفسه، ويزهو في نظرته إليها؛ فينتظر من الناس أن ينظروا إليه كما ينظر هو لنفسه، ومن لم يكن كذلك فهو لا يُقدِّر أهل الفضل والخير والدعوة!

إن أهل الفضل والمكانة هم أحوج الناس للتواضع؛ لأن مكانتهم قد تُغريهم بالنظرة العالية لأنفسهم، وقد يداخلهم شيء من الزهو والاستعلاء.

والتجبر مبدأه من القلب، من نظرة الإنسان العالية لنفسه، وحين تعلو نفسه في قلبه، يظهر التجبر على سلوكه وتعامله مع الناس؛ فيتسم بالزهو والتعالي، ويظهر على لغته وخطابه؛ فيتسم حديثه بذلك، وربما امتد إلى نصحه ووعظه.

ومن صور الزهو والتعالي مطالبته الآخرين بالتعامل الذي يراه لائقًا به؛ فثمة من يغضب حين لا يُستقبَل بما يراه لائقًا بمثله، أو لا يُصدَّر في المجلس، أو لا يُخاطَب كما يُخاطَب الكبار.

إن للشيطان مداخل في تزيين الخلق السيئ للعبد كما يزين له الشهوات؛ فالتهور شجاعة، والضعف والخور حِلم، والغضب والحمية والأنفة عِزَّة نفس، والقسوة على الناس قوَّة في الحق وصرامة.. وهكذا يزين الشيطان،

والنفس الأمارة بالسوء الخلق السيئ للعبد، ويُسمى بغير اسمه.

يرى بعض المنتسبين للعلم والدعوة أنه لا بد من حفظ مكانتهم لدى الناس، وأنه من تقدير العلم وحملته أن يقدر أهله، وأنه لا يريد شيئًا لنفسه إنما لتكون الدعوة شامخة والعلم عزيزًا، وأن علو مكانتهم لدى الناس يمنحهم مزيدًا من القبول وسماع الكلمة؛ فيلجأ بعضهم لقَدْرٍ من التعالي في التعامل مع الناس، أو الظهور بمظاهر الكبار، وربما الترفع في التعامل مع عامة الناس؛ ارتقاء بالدعوة والدعاة والعلم والعلماء.

وربما اعترض بعضهم بأن الدعاة وأهل العلم أولى بالاحتفاء والعناية من أهل الفن والرياضة ونحوهم، بينما الحق أنهم أوْلى بالتواضع والبُعد عن خُلُق الجبابرة.

إن الناس يُجِلُّون مَن التزم التواضع ولين الجانب، ويحتقرون مَن يلمسون منه التجبُّر والتعالي، ولو كان في التعالي مزيد رفعة وسماع للكلمة لما نزَّه الله ﷻ عنه أنبياءه ورسله -صلوات الله وسلامه عليهم-.

ولو كان أهل العلم والدعوة بحاجة لمثل هذه الهالة التي يريدها بعضهم لنفسه لكان أولى الناس بذلك الأنبياء والمرسلون، ومَن تأمَّل حالهم -وعلى رأسهم محمد ﷺ- وجدهم بخلاف ذلك؛ فهم سادة التواضع والبعد عن التجبُّر.

بل إنَّ التواضع يرفع من مكانة صاحبه؛ فعن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ، قال: «ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍّ إلا

عزًّا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعَه الله» (أخرجه مسلم ٢٥٨٨).

ومن أعظم ما يُعاقَب به الجبار أن يَطبع الله على قلبه ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر:٣٤-٣٥)؛ لذا نجد قلب الجبار لا يلين ولا يرحم، وتتوالى عليه النُّذُر فلا يستجيب لطريق الهداية.

ومآل الجبارين إلى الخيبة والخسارة، قال -سبحانه-: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (إبراهيم:١٥)، أما يوم القيامة فوعيدهم النار ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (إبراهيم:١٦-١٧).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرجُ عنقٌ من النَّارِ يومَ القيامةِ له عينان يُبصِرُ بهما، وأُذنان تسمعان، ولسانٌ ينطِقُ يقولُ: إنِّي وُكِّلتُ بثلاثةٍ؛ بمن جعل مع الله إلهًا آخرَ، وبكلِّ جبَّارٍ عنيدٍ، وبالمُصوِّرين» (أخرجه أحمد ٨٤٣٠، والترمذي ٢٥٧٤).

ويبيِّن ﷺ مآل المتكبرين يوم القيامة، كما في حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «يُحشَرُ المُتكبِّرُونَ يومَ القيامةِ

أَمْثَالَ الذَّرِّ في صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ من كلِّ مَكَانٍ، يُساقُونَ إلى سِجْنٍ في جهنمَ يُسَمَّى: بُولَسَ، تَعْلوهُمْ نارُ الأَنْيارِ، يُسْقَوْنَ من عُصارَةِ أهلِ النارِ» (أخرجه أحمد ٦٦٧٧، والترمذي ٢٤٩٢)، وهذه الحالة المخزية تناسب ما كانوا فيه في الدنيا من تعاظم وغرور بأنفسهم؛ لأنهم كانوا في الدنيا يتصوّرون أنفسهم أعظم وأجلّ المخلوقات؛ فجعلهم الله في دار الجزاء أحقر المخلوقات وأصغرها. والتجبُّر من آثاره التكبُّر.

وحَرِيٌّ بالمتتسب للعلم والدعوة والصلاح أن يجاهد نفسه في البعد عن أسباب العُجْب والتعالي، وقد كان للسلف عنايةٌ بالغةٌ بذلك، في خاصَّة أنفسهم، ويتواصون به. فعن حبيب بن أبي ثابت، قال: رأى ابنَ مسعود ﷺ ناسٌ فجعلوا يمشون خلفه، فقال: «ألكم حاجة؟» قالوا: لا، قال: «ارجعوا فإنها ذِلَّة للتابع فِتْنَة للمتبوع» (أخرجه ابن أبي شيبة ٢٦٣١٤).

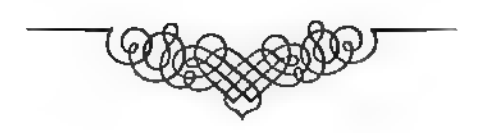
وكان محمد بن سيرين، إذا مشى معه الرجل، قام، فقال: ألك حاجة؟ فإن كانت له حاجة، قضاها، وإن عاد يمشي معه، قام فقال: ألك حاجة؟ (أخرجه الدارمي ٥٤٢).

بل ربما ترك أحدهم بعض الوعظ والتعليم حين تعلو نظرته لنفسه، قال عبيد الله بن أبي جعفر: «إذا كان المرء يحدِّث في المجلس فأعجبه الحديث فليسكت، وإن كان ساكتًا فأعجبه السكوت فليحدِّث» (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٣٣٨).

قال ابن محيريز: صحبت فضالة بن عبيد صاحب رسول الله ﷺ،



فقلت: أوصني رحمك الله، قال: «احفظ عني ثلاث خلال ينفعك الله بهن؛ إن استطعت أن تَعرف ولا تُعرف فافعل، وإن استطعت أن تَسمع ولا تكلم فافعل، وإن استطعت أن تَجلس ولا يُجلس إليك فافعل» (أخرجه الطبراني في الكبير ٧٦٨).



هل أتبعك؟

خطب موسى عليه السلام في بني إسرائيل، فسألوه عن أعلم أهل الأرض، ولم يكن عليه السلام يعلم من هو أعلم منه، فأجاب عن نفسه بأنه أعلم الأرض، فكان من شأن ذلك قصة لقائه بالخضر.

عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: إن نوفًا البكالي يزعم أن موسى ليس بموسى بني إسرائيل، إنما هو موسى آخر؟ فقال: كذَب عدوّ الله حدثنا أبي بن كعب عن النبي ﷺ: قامَ مُوسَى خطيبًا في بنِي إسرائيلَ، فسُئِلَ، أيُّ الناسِ أعلَمُ؟ فقال: أنَا. فعَتِبَ اللهُ عليه إذْ لمْ يَرُدَّ العِلمَ إليه، وأوْحَى اللهُ إليه: إنَّ لِي عبدًا بِمَجْمَعِ البحرَيْنِ، هوَ أعلمُ مِنْكَ، قال: يا ربِّ! وكيفَ لِي به؟ فقِيلَ: احمِلْ حُوتًا في مِكْتَلٍ، فإذا فقَدْتَهُ فهوَ ثَمَّ، فانْطَلَقَ، وانطلَقَ مَعهُ فتاهُ يُوشَعُ بنُ نُونٍ، وحَمَلا حُوتًا في مِكْتَلٍ، حتى كانَا عند الصخرةِ، فوَضَعَا رُؤُوسَهُما فنَامَا، فانْسَلَّ الحوتُ من المِكْتَلِ، فاتَّخَذَ سَبيلَهُ في البحرِ سَرَبا، وكانَ لِمُوسَى وفَتاهُ عَجَبًا، فانْطلَقَا بَقِيَّةَ يومِهِما ولَيلَتَهُما، فلَمَّا أصْبَحا، قال مُوسَى لِفتاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا من سَفَرِنَا هذا نَصَبًا ولمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا من النَّصَبِ حتى جاوَزَ المكانَ الذي أمرَهُ اللهُ به، فقال لهُ فتاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ (الكهف:٦٣)، قال موسى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ

ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (الكهف:٦٤) فلَمَّا انْتهَيَا إلى الصخرةِ إذا رَجلٌ مُسَجًّى بثوبٍ، فسَلَّمَ مُوسى، فقال الخَضِرُ: أنَّى بأرْضِكَ السلامُ؟ قال: أنا مُوسَى، قال: مُوسَى بنِي إسرائِيلَ؟ قال: نَعمْ، قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف:٦٦) قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، إنِّي على عِلمٍ من عِلمِ اللهِ -تعالى- عَلَّمَنِيهِ، لا تَعلَمُهُ أنْتَ، وأنتَ على عِلمٍ من علمِ اللهِ -تعالى- عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أعلَمُهُ،.... وفي آخر الحديث: قال النبي ﷺ: «يَرحمُ اللهُ مُوسَى لوَدِدْنا لوْ صَبَرَ حتى يَقُصَّ علَيْنا من أمْرِهِما» (أخرجه البخاري ١٢٢ ومسلم ٢٣٨٠).

تواضع رفيع:

إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذو مكانة عالية، ومنزلة رفيعة، ومكانة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليست ادِّعاء وتشبعًا بغرور النفس، ولا مظنونة تحتمل الصواب والخطأ، ولا استنتاجًا يصدق أو لا يصدق، بل هي مقطوع بها بوحي ربانيّ صادق.

لقد زكَّاه ربه -تبارك وتعالى- ويكفي بذلك تزكية، وأين تأتي تزكية البشر أمام تزكية الله عَزَّوَجَلَّ؟

إن اختصاص الله -تبارك وتعالى- له بالنبوة كافٍ في تزكيته ظاهرًا وباطنًا؛ فالله هو خالِق البشر وهو أعلم بهم عَزَّوَجَلَّ، والنبوة تقتضي القطع لصاحبها بالإخلاص وصِدق التدين، والعلم والعقل، والتجرُّد لله تَعَالَى، ناهيك عن الصفات البشرية؛ فالله عَزَّوَجَلَّ إنما يختار لرسالته أكمل الناس طبيعة وسجية.

وخاطبه -تبارك وتعالى- وتقدس ممتنًا عليه بالاصطفاء، قائلاً له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٤٤).

ومع ذلك كله يتواضع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الخضر؛ فيخرج إليه ويصحبه متعلّمًا متأدبًا.

ذكر ابن حجر من فوائد حديث موسى والخضر: «ولزوم التواضع في كلِّ حالٍ، ولهذا حرص موسى على الالتقاء بالخضر -عليهما السلام- وطلب التعلم منه تعليمًا لقومه أن يتأدبوا بأدبه، وتنبيهًا لمن زكَّى نفسه أن يسلك مسلك التواضع» (فتح الباري ١/ ١٦٩).

كما يظهر الأدب والتواضع في مقولة الخضر: «يا مُوسَى إنِّي على عِلمٍ من عِلمِ الله -تعالى- عَلَّمَنِيه، لا تَعلَمُهُ أنْتَ، وأنتَ على عِلمٍ من علمِ اللهِ -تعالى- عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أعلَمُهُ».

ومن مظاهر التواضع والأدب الرفيع لدى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه القصة: تعلُّمه ممن هو دونه في الفضل والمنزلة. قال السعدي: «وكان قد أُعْطِيَ مِن العلم ما لم يُعْطَ موسى، وإن كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصًا في العلوم الإيمانية، والأصولية؛ لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضَّلهم الله على سائر الخلق، بالعلم، والعمل، وغير ذلك» (تفسير السعدي ص ٤٨١).

وقال أيضًا: «ومنها تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه، فإن موسى

-بلا شك- أفضل من الخضر». (تفسير السعدي ص ٤٨٢).

وأجاب ابن حجر عما ورد في الحديث من كون الخضر أعلم من موسى بقوله: «والحق أن المراد بهذا الإطلاق تقييد الأعلمية بأمر مخصوص؛ لقوله بعد ذلك: « إنِّي على عِلمٍ من عِلم الله -تعالى- عَلَّمَنِيهِ، لا تَعلَمُهُ أنْتَ، وأنتَ على عِلمٍ من علمِ الله -تعالى- عَلَّمَكَهُ الله لا أعلَمُهُ»» (فتح الباري ١/ ٢١٩).

ومما قاله ابن حجر في تقرير أفضلية موسى عليه السلام: «ولننبه هنا على مغالطتين؛ الأولى: وقع لبعض الجهلة أن الخضر أفضل من موسى تمسكًا بهذه القصة وبما اشتملت عليه، وهذا إنما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصة ولم ينظر فيما خصَّ الله به موسى عليه السلام؛ من الرسالة وسماع كلام الله وإعطائه التوراة فيها علم كل شيء، وأن أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته ومخاطبون بحكم نبوته حتى عيسى، وأدلة ذلك في القرآن كثيرة، ويكفي من ذلك قوله -تعالى-: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ (الأعراف:١٤٤)، وسيأتي في أحاديث الأنبياء من فضائل موسى ما فيه كفاية، قال: والخضر وإن كان نبيًّا فليس برسول باتفاق، والرسول أفضل من نبي ليس برسول، ولو تنزلنا على أنه رسول فرسالة موسى أعظم، وأمته أكثر؛ فهو أفضل، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل، وموسى أفضلهم، وإن قلنا: إن الخضر ليس بنبي بل وَلِيّ؛ فالنبي أفضل من الوليّ، وهو أمر مقطوع به عقلاً

ونقلاً، والصائر إلى خلافه كافر؛ لأنه أمرٌ معلوم من الشرع بالضرورة» (فتح الباري ١/ ٢٢١).

وما أراد موسى عليه السلام تعلُّمه من الخضر ليس مما يتَّصل بما هو مشروع على بني إسرائيل؛ إذ لو كان كذلك لأوحاه الله إليه، قال ابن عاشور: «وهذا العلم الذي سأل موسى تعلمه هو من العلم النافع الذي لا يتعلَّق بالتشريع للأمة الإسرائيليَّة، فإن موسى مستغنٍ في علم التشريع عن الازدياد إلا من وحي الله إليه مباشرة؛ لأنه لذلك أرسله وما عدا ذلك لا تقتضي الرسالة علمه.. وإنما رام موسى أن يعلم شيئًا من العلم الذي خصَّ الله به الخضر؛ لأن الازدياد من العلوم النافعة هو من الخير. وقد قال الله -تعالى- تعليمًا لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:١١٤) » (التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٠).

من أدب موسى عليه السلام:

يتجلَّى في هذه القصة مع التواضع الأدب النبوي لدى موسى عليه السلام، وله شواهد عدة، منها:

أولاً: مبادرته بسؤال الله ﷻ عن الخضر واللقاء به فور سماعه عنه؛ كما جاء فيما قصَّه رسول الله ﷺ، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «قام موسى النبي خطيبًا في بني إسرائيل فسُئِلَ أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتَب الله عليه؛ إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: أن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين، هو أعلم منك. قال: يا ربّ، وكيف به؟...» (أخرجه البخاري ١٢٢، ومسلم٢٣٨٠).

ثانيًا: تلطُّفه في طلبه من الخضر -عليهما السلام-؛ إذ قال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف:٦٦)، ولم يقل: أريد اتباعك؛ «فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنك هل تأذن لي في ذلك أم لا؟» (تفسير السعدي ص ٤٨٢).

ثالثًا: طلبه التعليم من الخضر؛ فقال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف:٦٦) فجعل نفسه مقام المتعلِّم، والخضر مقام المعلِّم، وفي حديث أُبَي ﷺ: «حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجًّى بثوب، فسَلَّم موسى فرَدَّ عليه، فقال وأنَّى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلِّمني مما عُلْمِتَ رشدًا».

قال السعدي: «وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يُظهِرُ للمعلم افتقاره إلى علمه، بل يدَّعِي أنه يتعاون هم وإياه، بل ربما ظنَّ أنه يُعَلِّم مُعَلِّمه، وهو جاهل جدًّا، فالذلّ للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم» (تفسير السعدي ص ٤٨٢).

رابعًا: تعليقه استعداده للصبر بمشيئة الله ﷻ لا بقدرته وحوله، ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ (الكهف:٦٩).

خامسًا: التزامه بطاعة الخضر وعدم عصيانه، فقال: ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (الكهف:٦٩).

سادسًا: حين نسي في المرة الأولى كما قال ﷺ: «فكانت الأولى من

موسى نسيانًا»، وفي إحدى روايات البخاري (٤٧٢٦) «كانت الأولى نسيانًا، والوسطى شرطًا، والثالثة عمدًا» اعتذر عن ذلك بالنسيان ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (الكهف:٧٣).

سابعًا: اعتذاره عن خطئه، واستعداده لتحمُّل تبعته، وعذره للخضر؛ إذ قال: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ (الكهف:٧٦).

إن مما يليق بالداعية وطالب العلم أن يتواضع في نسبة العلم لنفسه، ويبتعد عن ادعاء الإحاطة، فقد عتب الله على موسى حين قال بأنه أعلم أهل الأرض، رغم أنه أجاب عليه السلام بما يعلم، وقول موسى عليه السلام ذلك عن نفسه ليس كقول غيره، نقل ابن حجر عن ابن المنيّر قوله: «وليس قول موسى عليه السلام أنا أعلم كقول آحاد الناس مثل ذلك، ولا نتيجة قوله كنتيجة قولهم؛ فإن نتيجة قولهم العجب والكبر، ونتيجة قوله المزيد من العلم» (فتح الباري ١/ ٢٢٠).

ويجدر بطالب العلم والداعية ألا يَستنكف عن التعلُّم والاستفادة ممن هو فوقه أو مثله أو دونه، روى ابن جرير بإسناده (١٨/ ٦٣) إلى ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا أنه قال: «سأل موسى ربه وقال: ربِّ أيّ عبادك أحبّ إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال: فأيّ عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحقّ ولا يتبع الهوى، قال: أي ربّ أيّ عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علم نفسه، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدًى،

أو تردّه عن رَدًى، قال: ربّ فهل في الأرض أحد؟ قال: نعم، قال: رب، فمن هو؟ قال: الخضر، قال: وأين أطلبه؟...».

ومع اختلاف التخصُّص وتنوُّعه حتى في العلم والفرع الواحد تكثر هذه الحالة؛ فمن تمكَّن مِن تخصُّص ما -ولو كنت تراه دونك في العلم أو الفضل والمنزلة- فهو يعلم ما لا تعلم، ومن حقّه عليك أن تتأدب معه، وتُصغي له، وتتعامل معه تعامُل المتعلِّم مع المعلِّم، وتقدِّر رأيه، حتى ولو لم تقتنع به.

قال السعدي: «ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه، ممن مهَر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة.

فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أولي العزم من المرسلين، الذين منَحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يُعْطِ سواهم، ولكن في هذا العلم الخاصّ كان عند الخضر، ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلُّم منه.

فعلى هذا، لا ينبغي للفقيه المحدث، إذا كان قاصرًا في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهَر فيه، وإن لم يكن محدثًا ولا فقيهًا» (تفسير السعدي ص ٤٨٢).

ومن صُوَر الأدب اللائقة التأدب مع مَن يجهل ما لديك؛ فالقطع واليقين في مسائل الفكر والعلم أمرٌ نِسْبيٌّ؛ فما هو مسلَّم لدينا قد يكون مجهولاً أو مستنكرًا ممن هو أفضل وأعلم وأجلّ منا، لكنه ينتمي لتخصُّص آخر.

وهذا قد يتطلَّب إقناعهم بالبدهيات والمُسلَّمات، والحديث باللغة التي يفهمها غير المختصّ، ومن أهم ما يتأكد فيه مراعاة ذلك الحديث العام عبر وسائل الإعلام والتواصل.

ومما لا يليق في ذلك وَصْم مَن يُنكر بما هو بدهي لدينا بالجهل بالمُسَلَّمات؛ إذ المُسَلَّمات نسبيَّة يتفاوت فيها الناس تبعًا للمجال والتخصُّص والاهتمام.



هو أفصح مني لسانًا

حين أوحى الله ﷻ إلى نبيّه موسى، وأرسله إلى فرعون سأل ربه -تبارك وتعالى- أن يعينه بأخيه هارون، وعلَّل ذلك بأن هارون عليه السلام أفصح منه لسانًا، قال ﷻ: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ (القصص:٣٤).

قال ابن كثير: «وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة، حين خُيِّر بينها وبين التمرة أو الدرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل فيه شدة في التعبير؛ ولهذا قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ (طه:٢٧-٣٢)» (تفسير ابن كثير ٦/ ٢٣٦).

أول ما يتجلَّى في هذا الموقف تواضع موسى عليه السلام، واعترافه بالفضل لأخيه هارون عليه السلام، مع أنه أفضل من هارون؛ فهارون لمَّا يكن نبيًّا بعدُ، وحتى بعد الوحي إليه فهو لِشَدِّ عَضُد موسى -عليهما السلام-، وكل ما جاء في القرآن في خبر فرعون كان موسى هو الحاضر في الحوار والجدل.

وتواضع موسى عليه السلام هنا تواضع حقيقيّ، وليس تصنعًا، أو إظهارًا لشأن النفس؛ فهو هنا يخاطب ربه ومولاه ﷻ، العالم -سبحانه- بسريرته.

والموقف نفسه نراه لدى نبي الله سليمان، حين سأل الهدهد عن غيابه فقال له الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل:٢٢).

وقد تحدَّث طائفة من أهل العلم عن هذه الآية، واستشهدوا بمقولة الهدهد على التواضع العلمي، واعتراف الكبير بما لدى من هو دونه.

قال الزمخشري: «ألهم الله الهدهد فكافَح سليمان بهذا الكلام على ما أُوتِيَ من فضل النبوَّة والحكمة والعلوم الجمَّة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة؛ ابتلاءً له في علمه، وتنبيهًا على أنّ في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علمًا بما لم يُحِط به؛ لتتحاقر إليه نفسه، ويتصاغر إليه علمه، ويكون لطفًا له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة، والإحاطة بالشيء علمًا: أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم. قالوا: وفيه دليل على بطلان قول الرافضة: إنّ الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه». (الكشاف ٣/ ٣٥٩).

وقال شيخ الإسلام: «قال الرافضي: "وقال في خطبة له: من غالى في مهر امرأة جعلته في بيت المال، فقالت له امرأة: كيف تمنعنا ما أعطانا الله في كتابه حين قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ (النساء:٢٠)؟ فقال: كل أحد أفقه من عمر حتى الْمُخَدَّرَات».

والجواب: أن هذه القصة دليل على كمال فضل عمر ودينه وتقواه، ورجوعه إلى الحق إذا تبيَّن له، وأنه يَقبل الحق حتى من امرأة، ويَتواضع

له، وأنه مُعترف بفضل الواحد عليه، ولو في أدنى مسألة، وليس من شرط الأفضل أن لا ينبّهه المفضول لأمر من الأمور، فقد قال الهدهد لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل:٢٢). وقد قال موسى للخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف:٦٦)، والفرق بين موسى والخضر أعظم من الفرق بين عمر وبين أشباهه من الصحابة، ولم يكن هذا بالذي أوجب أن يكون الخضر قريبًا من موسى، فضلاً عن أن يكون مثله، بل الأنبياء المتَّبِعُون لموسى، كهارون ويوشع وداود وسليمان وغيرهم، أفضل من الخضر، وما كان عمر قد رآه فهو مما يقع مثله للمجتهد الفاضل» (منهاج السنة ٦/ ٧٦-٧٧).

وقال أيضًا: «وصاحب العلم العظيم إذا رجع إلى من هو دونه في بعض الأمور، لم يقدح هذا في كونه أعلم منه، فقد تعلَّم موسى من الخضر ثلاث مسائل، وتعلم سليمان من الهدهد خبر بلقيس» (منهاج السنة ٨/ ٣٠٣).

وقال ابن القيِّم: «ومن هذا: الحكاية المشهورة أن بعض أهل العلم سئل عن مسألة، فقال: لا أعلمها، فقال أحد تلامذته: أنا أعلم هذه المسألة، فغضب الأستاذ وهمَّ به، فقال له: أيها الأستاذ، لستَ أعلم من سليمان بن داود ولو بلغت في العلم ما بلغت، ولستُ أنا أجهل من الهدهد، وقد قال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾؛ فلم يعتب عليه ولم يُعنِّفه» (مفتاح دار السعادة ١/ ١٧٣).

قال عبد الرحمن بن مهدي: « كنا في جنازة فيها عبيد الله بن الحسن، وهو على القضاء، فلما وُضِعَ السرير جلس، وجلس الناس



حوله، قال: فسألته عن مسألة، فغلط فيها، فقلت: أصلحك الله، القول في هذه المسألة كذا وكذا، إلا أني لم أرد هذه، إنما أردت أن أرفعك إلى ما هو أكبر منها، فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: إذًا أرجع وأنا صاغر، إذًا أرجع وأنا صاغر؛ لأنْ أكون ذَنبًا في الحقّ، أحب إليَّ من أن أكون رأسًا في الباطل». (تاريخ بغداد ١٠/ ٣٠٧).

إن الكبار هم أحوج الناس إلى التواضع؛ فهم العُرْضَة لأن يروا من أنفسهم ما لم يروه في الآخرين، وتعامل الناس معهم وإجلالهم لهم قد يُغَذِّي نظرتهم لأنفسهم.

والتواضع الذي يحتاجه طالب العلم والداعية هو التواضع الحقيقي لا المتصنَّع، التواضع الذي يؤمن فيه صاحبه بقصوره ونقصه، وأن لدى غيره كثيرًا مما ليس لديه هو.

وكما كان هارون أفصح لسانًا من موسى -عليهما السلام-؛ فالداعية وطالب العلم المتخلق بأخلاق الأنبياء يؤمن أن غيره أعلم منه بالحديث، أو التفسير، أو الفقه وأقوال أهل العلم؛ فيعترف بذلك، ويحيل العلم إليه.

ومثل ذلك فيما يتَّصل بالواقع المعاصر؛ فكثيرًا ما يجد الشخص ممن هو دونه في العلم والمنزلة من يكون أقرب صلة بواقع ما، وأكثر خبرة بأشخاص أو مؤسسات؛ فالجدير به حينئذ أن يتحلى بمقولة موسى عليه السلام: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾.

وهكذا في ميدان السياسة والاقتصاد والتربية وسائر العلوم المعاصرة، يؤمن بأن المختصين أفصح وأعلم منه في مجالهم.

وارتباط شأن سياسي أو اقتصادي بجانب شرعي لا يعني أن طالب العلم الشرعي هو القادر على تقرير الموقف الشرعي دون أرضيَّة علمية تُعينه على ذلك.

وصدق نية الداعية، وغيرته على الدين، واجتهاده في تطبيق الشريعة لا يلزم منه أن يكون أكثر وعيًا في ميدان السياسة.

ولا ينتهي الأمر عند الميدان العلمي والفكري؛ فتميز المفضول على الفاضل يتجلَّى في الميدان العملي؛ فالداعية وطالب العلم ليس دومًا هو الأجدر بقيادة مؤسَّسة شرعية دعوية، أو تعليمية، وكثيرًا ما يَنهمك هؤلاء في أدوار يحسنها من هو دونهم، بل ربما أدَّى انشغالهم بها للإساءة لهم.

والذي يَعنينا هنا هو البعد الأخلاقي المتمثِّل في التواضع، ومعرفة قَدْر النفس، والاعتراف بما لدى الآخرين من قدرة وتميُّز.

وقد انتقد ابن جماعة -رحمه الله- ضعف التواضع، ووجود العُجْب والاعتداد بالنفس لدى بعض الفقهاء، فقال: «وقد بُليَ بعض أصحاب النفوس الخبيثة من فقهاء الزمان بكثير من هذه الصفات إلا مَن عصم الله -تعالى-، ولاسيما الحسد والعُجب والرياء واحتقار الناس، وأدوية هذه البلية مستوفى في كتب الرقائق، فمن أراد تطهير نفسه منها فعليه بتلك الكتب، ومن أنفعها كتاب الرعاية للمحاسبي -رحمه الله-» (تذكرة السامع والمتكلم ١٥).



قال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: «رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين. دخلت نفسي نخوة. فأردت أن أكسرها».

قال ابن القيِّم: «وكما أن مَن تواضع لله رفعه، فكذلك مَن تكبَّر عن الانقياد للحقِّ أذلَّه الله ووضَعه، وصغَّره وحقَّره، ومَن تكبَّر عن الانقياد للحقِّ - ولو جاءه على يد صغير، أو مَن يبغضه أو يعاديه - فإنما تكبُّره على الله؛ فإن الله هو الحق، وكلامه حقّ، ودينه حقّ، والحقّ صفته، ومنه وله، فإذا ردَّه العبد وتكبَّر عن قبوله: فإنما ردَّ على الله، وتكبَّر عليه» (مدارج السالكين ٢/ ٣١٧).

وعرَّف بعض السلف التواضع بقبول الإنسان الحق ممن هو دونه، قال إبراهيم بن الأشعث قال: «سألت فضيل بن عياض -رحمه الله-، عن الصبر على المصيبات، فقال: أن لا تَبُثّ، قال: وسألته عن الزهد، فقال: الزهد القناعة وهو الغنى، وسألته عن الورع، فقال: اجتناب المحارم، وسألته عن التواضع فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعته ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه». قال: وكان يقال: علِّم علمَك مَن يجهل، وتعلَّم ممن يَعلم؛ إذا فعلتَ ذلك علمتَ ما جهلتَ، وحفظتَ ما علمتَ. (جامع بيان العلم وفضله ٦٤٧).





ففهمناها سليمان

قال -تبارك وتعالى- عن داود وسليمان -عليهما السلام-: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٨-٧٩).

في هذه الآيات يبين الله ﷻ أن غنمًا قد رعَت في حرث قوم آخرين، وأن سليمان فَهِمَ من القضية ما لم يفهمه داود -عليهما السلام-.

روى ابن جرير بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وذلك أن رجلين دخلا على داود، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا أرسل غنمه في حرثي، فلم يُبْقِ من حرثي شيئًا، فقال له داود: اذهب فإن الغنم كلها لك، فقضى بذلك داود، ومرَّ صاحب الغنم بسليمان، فأخبره بالذي قضى به داود، فدخل سليمان على داود فقال: يا نبيّ الله! إن القضاء سوى الذي قضيت، فقال: كيف؟ قال سليمان: إن الحرث لا يخفى على صاحبه ما يخرج منه في كل عام، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادها وأصوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث، فإن الغنم لها نَسْل في كلّ عام، فقال داود: قد أصبت، القضاء كما قضيت، ففهَّمها الله سليمان» (تفسير ابن جرير ١٨/ ٤٧٦).

وأخرج نحوه بإسناده عن ابن مسعود ﷺ، ومجاهد، وحجاج، وابن إسحاق، وشريح، وقتادة، والزهري، وابن زيد.

وكان لداود وسليمان -عليهما السلام- مع القضاء موقف آخر، فعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهَب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود ﷺ فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود -عليهما السلام- فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقّه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها، فقضى به للصغرى»، قال أبو هريرة: والله إن سمعت بالسكين قط إلا يومئذ، وما كنا نقول إلا المُدْيَة. (أخرجه البخاري ٦٧٦٩، ومسلم ١٧٢٠).

وفي سبب قضاء كلٍّ من داود وسليمان بما قضيا به في هذه القصة نقل ابن حجر عن القرطبي قوله: «فيحتمل أن يقال: إن الولد الباقي كان في يد الكبرى، وعجزت الأخرى عن إقامة البينة، قال: وهذا تأويل حسَن جارٍ على القواعد الشرعية، وليس في السياق ما يأباه ولا يمنعه، فإن قيل: فكيف ساغ لسليمان نقض حكمه؟ فالجواب: أنه لم يعمد إلى نقض الحكم وإنما احتال بحيلة لطيفة أظهرت ما في نفس الأمر، وذلك أنهما لما أخبرتا سليمان بالقصة فدعا بالسكين ليشقه بينهما ولم يعزم على ذلك في الباطن، وإنما أراد استكشاف الأمر؛ فحصل مقصوده لذلك لجزع الصغرى الدالّ على عظيم الشفقة، ولم يلتفت إلى إقرارها

بقولها هو ابن الكبرى؛ لأنه علم أنها آثرت حياته، فظهر له من قرينة شفقة الصغرى وعدمها في الكبرى» (فتح الباري ٦/ ٤٦٤-٤٦٥).

لقد قدّر الله ﷻ لأنبيائه أن يجتهدوا في الحكم بين الناس فيما يظهر لهم، وقد لا يصيبون الحق فيما حكموا به؛ لأنهم اجتهدوا في ضوء ما رأوه من بيِّنات وقرائن، ذكر ابن حجر في فوائد حديث المرأتين: «وأن الأنبياء يسوغ لهم الحكم بالاجتهاد وإن كان وجود النص ممكنًا لديهم بالوحي، لكن في ذلك زيادة في أجورهم، ولعصمتهم من الخطأ في ذلك؛ إذ لا يُقَرُّونَ لعصمتهم على الباطل» (فتح الباري ٦/ ٤٦٥).

وقد بيَّن ﷺ أنه إنما يحكم بين الناس فيما يظهر له، وأن ذلك لا يُحِلُّ لمن حَكَمَ له ما لا يَحِلُّ له، فعن أم سلمة ﵂: أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أَلْحَنَ بحُجَّته من بعض، فمن قضيتُ له بحقِّ أخيه شيئًا، بقوله؛ فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها» (أخرجه البخاري ٢٦٨٠، ومسلم ١٧١٣).

إن سليمان أصغر من داود -عليهما السلام-، بل هو ابنه، ومع ذلك حين لاح لداود ﵇ الحق في قوله رَجَعَ إليه.

وكان سيد ولد آدم ﷺ إمامًا في الرجوع إلى الحقّ، قدوة في البعد عن التشبُّث برأي ليس عليه أثارة من وحي.

استشار ﷺ أصحابه -رضوان الله عليهم- في غزوة أُحُد، وأشار عليهم برأي، واستشهد برؤيا رآها وأوَّلَها، وكان رأيهم بخلاف رأيه ﷺ،



فلم يتشبَّث برأيه، ورجع إلى رأي أصحابه، فلما اعتذروا بقي ﷺ على موقفه تاركًا ما رآه قائلاً: «لا ينبغي لنبيٍّ يلبس لَأْمَتَهُ فيضعها حتى يحكم الله»، وترك ﷺ رأيه في مصالحة غطفان على ثلثي ثمار المدينة، ورجع لرأي السعدين رضي الله عنهما.

وكما يرجع المؤمن عن رأي رآه لاجتهاد أو دليل أو برهان فبان له خلاف ذلك، فهو يرجع أيضًا عما عمله أو قاله؛ استجابة وردة فعل وانفعال بحكم الطبيعة البشرية.

ومن صور ذلك ما حكته عائشة عن زينب رضي الله عنهما: «ولم أرَ امرأة قط خيرًا في الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به، وتقرب به إلى الله -تعالى-، ما عدا سَوْرَة من حِدَّة كانت فيها، تُسْرِع منها الفيئة» (أخرجه مسلم).

قال النووي: «ومعنى الكلام أنها كاملة الأوصاف، إلا أن فيها شِدَّة خُلُق وسرعة غضب، تُسْرِع منها الفيئة -بفتح الفاء وبالهمز- وهي: الرجوع، أي: إذا وقع ذلك منها رجعت عنه سريعًا ولا تُصِرُّ عليه» (شرح صحيح مسلم ١٥/٢٠٦).

ومنها ما كان بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كانت بين أبي بكرٍ وعُمَرَ محاورةٌ، فأغضَبَ أبو بكرٍ عُمَرَ، فانصَرَف عنه عُمَرُ مُغضبًا، فاتَّبَعه أبو بكرٍ يَسأَلُه أن يستغفِرَ له فلم يَفعَلْ، حتى أغلَقَ بابَه في وجهِه، فأقبَلَ أبو بكرٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ. فقال أبو الدَّرداءِ: ونحن عِندَه،

فقال رسولُ الله ﷺ: (أما صاحبُكم هذا فقد غامَر). قال: وندِم عُمَرُ على ما كان منه، فأقبَل حتى سلَّم وجلَس إلى النبيِّ ﷺ، وقصَّ على رسولِ الله ﷺ الخبرَ. قال أبو الدَّرداءِ: وغَضِبَ رسولُ الله ﷺ، وجعَل أبو بكرٍ يقولُ: واللهِ يا رسولَ اللهِ، لأنا كنتُ أظلَمُ . فقال رسولُ الله ﷺ: (هل أنتم تارِكونَ لي صاحِبي؟ هل أنتم تارِكونَ لي صاحِبي؟ إني قلتُ: يا أيُّها الناسُ، إني رسولُ اللهِ إليكم جميعًا، فقلتُم: كذَبتَ، وقال أبو بكرٍ: صدَقتَ» (أخرجه البخاري ٤٦٤٠).

قال ابن حجر: «وفيه ما طُبِعَ عليه الإنسان من البشرية حتى يحمله الغضب على ارتكاب خلاف الأولى، لكنَّ الفاضل في الدين يُسْرِع الرجوع إلى الأولى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾(الأعراف:٢٠١)» (فتح الباري٧/ ٢٦).

إنه معنى جميل وأخّاذ، ما أسهل أن تتغنَّى به النفوس، وأن تردِّد عباراته، لكنَّ التحدِّي في العمل والتحلِّي؛ ففي النفس البشرية أَنَفَة وعزَّة، وفيها سَوْرَة عناد؛ فيشق عليها الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الحق، أو الاعتذار عن إساءةٍ بَدَتْ، أو تجاوز لحدود الأدب.

تردد النفس حينها: لو اتضح لي الخطأ رجعت، ولو بانت لي إساءتي اعتذرت، لكني مُصِيب فيما ذهبت إليه، ومُحِقّ في موقفي ولا أبرئ نفسي.

ومن يفتش في حياته فلا يرى نماذج للرجوع إلى الحق، والاعتراف بالخطأ فليتأمل في نفسه؛ فالخطأ ملازم للبشر، والنقص مستولٍ



عليهم، وإنما أُتِيَ مِن قصور رؤيته لواقعه، وضعف تأمله في نفسه، والله المستعان.

إن كثيرًا مما يختلف فيه الناس من مسائل علمية وفكرية، أو نزاع في مواقف عملية، هو مما يسهل تبرير الرأي فيه، وإيجاد المسوِّغات لكلِّ طَرَفٍ، وتأمل ذلك في الخصومات والنزاعات بين الناس في أروقة المحاكم، فلا تنتظر حتى يظهر لك خطأ موقفك جليًّا كالشمس في رابعة النهار، فإن ذلك قلَّما يحصل فيما يختلف فيه الناس.

وما لم نتجرد، ونتَّهم أنفسنا، وننكر ذواتنا، وننظر إلى ما يقال عنا بعيدًا عن أشخاصنا، ونتفكر فيما يخالف ما رأيناه أو عملناه، ونقلِّب وجه الحق فيه، وقبل ذلك وبعده نلجأ إلى الله ﷻ نسأله العون والتوفيق، والهدى والسداد، ما لم نفعل ذلك فلن نجد أنفسنا ترجع إلى الحق، أو تُقِرّ بالخطأ.

ولئن كان الرجوع للحق، وقبوله ممن يرى الإنسان أنه دونه في المنزلة، لئن كان ذلك أمرًا منهجيًّا أصوليًّا يتَّصل بالرجوع عن الاجتهاد والفتوى ونحو ذلك، إلا أنه وثيق الصلة بالجانب الخُلُقِيّ؛ فالتواضع والنظرة للذات والآخرين من أهم ما يؤثِّر في ذلك، وإلا فالمبدأ على المستوى المعرفي بَدَهِيّ، ومتقرِّر لدى الجميع.



وعلمتني من تأويل الأحاديث

حين أتمَّ الله ﷻ نعمته على يوسف عليه السلام، ومكَّنه على خزائن الأرض، وجمعه بأبويه وإخوته توجَّه إلى ربه ﷻ شاكرًا داعيًا؛ فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (يوسف:١٠١).

المرسَلُون هم خير البشر في كلِّ اعتبار؛ فهم خيرهم نسبًا ومكانةً، وأوفرهم عقلاً وأسدّهم رأيًا، وأعلمهم وأجلهم، كما أنهم خير الناس خُلُقًا، وأحسنهم سجيَّة وسلوكًا، وأقومهم هديًا وسمتًا.

وقد جمع الله ﷻ ليوسف عليه السلام مع ذلك الفضل جمال الصورة وحُسنها، ومكَّنه من خزائن الأرض، وهو مع ذلك كريم من سلالة الكرام، وحين سئل ﷺ عن خير الناس ذكر يوسف عليه السلام؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: قيل يا رسول الله: من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم»، فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا» (أخرجه البخاري ٣٣٥٣، ومسلم ٢٣٧٨).

مع ذلك الفضل والمكانة يتواضع يوسف عليه السلام لربه ﷻ، وينسب الفضل له؛ فتأويل الأحاديث من تعليم الله ﷻ، وليس قدرة عقليّة أو مهارة شخصية.

إنه دائم الامتنان لربه -تبارك وتعالى-، فقد قال ممتنًا لربه بالهداية: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وقال ممتنًا له بجمعه مع أخيه: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾.

وقال ممتنًا له -سبحانه- بإخراجه من السجن: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾.

وهكذا نسب الفضل إلى الله أيضًا وهو مع الفتيين اللذين سألاه تعبير الرؤيا، فقال لهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ (يوسف:٣٧).

والخُلُق نفسه نراه لدى نبي الله سليمان عليه السلام، حين طلب من الملأ حوله إحضار عرش بلقيس فوصله قبل ارتداد طرفه نَسَبَ الفضل لله ﷻ؛ ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل:٤٠).

قال السعدي: «فلم يغترَّ عليه السلام بمُلْكِهِ وسلطانه وقدرته كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة» (تفسير السعدي، ص: ٦٠٥).

يسهل على كثير من الناس نسبة الرزق في المال والدنيا لله ﷻ،

والاعتراف له -سبحانه- بذلك، لكن الأمر يختلف عند الحديث عن العقل والعلم والخبرة.

ربما تحدَّث أحدنا عن خبراته ومعارفه، وعن مهاراته وقدراته، حديثًا مباشرًا أو غير مباشر، والأجدر بمن يتأسَّى بخلق الأنبياء التواضع، وقلة الحرص على ثناء الناس والبحث عن المكانة لديهم.

وما أكثر ما يتحدث البعض تصريحًا أو تلميحًا عن عقله وتفكيره، وينسى أن الله ﷻ هو الذي رزقه هذا العقل والفؤاد، ورزقه أدوات التعلُّم من سمع وبصر، لكن أكثر الناس لا يشكرون هذه النعمة؛ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الملك:٢٣).

وقد أدَّى الانفتاح الواسع على الثقافة الغربية، وبالأخص فيما يتَّصل بتطوير الذات والتنمية البشرية إلى تسلُّل كثير من القِيَم المخالفة؛ فالمجتمع الغربي مجتمع يبدأ وينتهي بالمادة، وإنجاز المرء وتأثيره مرتبط بالشهرة والإنجاز الدنيوي، حتى المتدينون منهم صلتهم بالدين صلة كهنوت لا منهج حياة.

وكثيرٌ من حسني النية -فضلاً عن مُلَوَّثِي الفكر- لا يملكون القدرة على النقد العميق للنموذج القيمي الغربي، ومن تأمل ما يقدِّمونه في النجاح والتميز والإنجاز، ونحو ذلك أدرك أثر تلك القِيَم المادية؛ فالنجاح والتميز إنما يصنعه الإنسان، والقدرات والمهارات والمواهب منجز شخصيّ، لا مِنَّة ربانية.

إنه لا ينبغي أن يُنْكَر أثر الجهد البشري في الاكتساب والتعلم، وفي النضج وتطوير الخبرات والمهارات، ونحو ذلك، لكنْ لا غِنَى للإنسان عن نسبة الفضل للمُنْعِم -جلَّ وعزَّ-، وشكره ﷻ، والثناء عليه بما هو أهله، ولا غِنَى له عن التواضع والبعد عن التعالي والتفاخر.

وغياب هذا الخُلُق الرفيع لا يقتصر على الجانب الوجداني فحسب، بل يمتد إلى منهجية التفكير والاستدلال؛ فيفرط هؤلاء في الاعتماد على عقولهم وتفكيرهم، ويُغْلُونَ من شأن آرائهم واستنتاجاتهم، فَتَضْعُفُ لديهم منهجية التسليم.

وقد قالت الملائكة -عليهم السلام- لربهم ﷻ: ﴿سُبۡحَـٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (البقرة:٣٢).

وكان أعلم الخلق وأهداهم سبيلاً ﷺ يستفتح صلاته إذا قام من الليل بهذا الدعاء: «اللهم ربَّ جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطِر السماوات والأرض، عالِم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تَشاء إلى صراط مستقيم» (صحيح مسلم ٧٧٠٩).

قال ابن القيِّم: «حقيق بالمفتي أن يكثر الدعاء بالحديث الصحيح: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»،



وكان شيخنا كثير الدعاء بذلك، وكان إذا أشكلت عليه المسائل يقول: "يا معلم إبراهيم علِّمني"، ويكثر الاستعانة بذلك اقتداءً بمعاذ بن جبل ﷺ؛ حيث قال لمالك بن يخامر السكسكي عند موته، وقد رآه يبكي، وقال له: والله ما أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك، فقال معاذ بن جبل ﷺ: إن العلم والإيمان مكانهما، مَن ابتغاهما وجدهما، اطلب العلم عند أربعة: عند عويمر أبي الدرداء، وعند عبد الله بن مسعود، وأبي موسى الأشعري، وذكر الرابع، فإن عجز عنه هؤلاء فسائر أهل الأرض عنه أعجز، فعليك بمُعَلِّم إبراهيم -صلوات الله عليه-» (إعلام الموقعين ٤/ ١٩٧-١٩٨).



ولا أقول للذين تزدري أعينكم

لما دعا نوح عليه السلام قومه لم يؤمن معه إلا ضعاف الناس، فاحتج عليه الملأ من قومه بذلك؛ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ (هود:٢٧).

فردَّ عليهم عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (هود:٢٨-٣١).

لقد أراد الله -تبارك وتعالى- بحكمته أن يكون أتباع الأنبياء من ضعفاء الناس؛ ففي حديث هرقل أنه قال لأبي سفيان رضي الله عنه: «سألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل» (أخرجه البخاري ٧).

ولما كانت هذه سُنَّة الله في أتباع الأنبياء، فقد كان أتباع محمد صلى الله عليه وسلم

كذلك كما ذكر أبو سفيان لهرقل: وقد ساوم سادة قريش محمدًا ﷺ على إبعاد هؤلاء الضَّعَفَة عن مجلسه، فجاء الوحي صريحًا في ذلك: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام:٥٢-٥٤).

وحين انصرف ﷺ عن ابن أم مكتوم عاتبه مولاه ﷻ في سورة تتلى إلى يوم القيامة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ (عبس:١-١١).

بل أمره الله ﷻ بالصبر على معايشة الضعفاء فقال -سبحانه-: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف:٢٨).

وكما أن أتباع الأنبياء هم ضعفاء الناس، فأهل الجنة كذلك؛ فهذه سُنَّة الله في خَلقه؛ فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «تحاجَّت الجنَّةُ والنَّارُ، فقالَت النَّارُ: أوثِرتُ بالمتكبِّرين والمتجبِّرين، وقالت الجنَّةُ: ما

لي لا يَدخُلُني إلَّا ضُعفاءُ النَّاسِ وسَقَطُهم؟ قال اللهُ تبارك وتعالى للجنَّةِ: أنتِ رَحمَتي، أرحَمُ بكِ مَن أشاءُ مِن عِبادي، وقال للنَّارِ: إنَّما أنتِ عَذابي، أُعذِّبُ بكِ مَن أشاءُ مِن عِبادي، ولكلٍّ واحدَةٍ منهما مِلْؤُها، فأمَّا النَّارُ: فلا تمتلِئُ حتَّى يضَعَ رِجلَه فتقولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فهنالِك تَمتلِئُ، ويُزوى بعضُها إلى بعضٍ، ولا يَظلِمُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِن خلْقِه أحدًا، وأمَّا الجنَّةُ: فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يُنشِئُ لها خَلْقًا» (أخرجه البخاري ٤٨٥٠، ومسلم ٢٨٤٦).

يتطلع بعض المصلحين إلى الصلة بعِلْيَة القوم، أهل الثراء والسلطان ونحوهم، وربما يحرص بعضهم على تلبية دعوات الطبقات الراقية أكثر من غيرهم؛ متعلِّلين بأن استجابة هؤلاء للدعوة أنفع وأجدى من غيرهم.

صحيح أن العناية بمن يتوقَّع عظم نفعه أمرٌ مطلوب، لكن لا بد من الاعتدال في ذلك، وإلا فلِمَ كان أتباع الأنبياء كذلك؟ ولِمَ كان أهل الجنة كذلك؟

وحري بالمصلحين وأهل العلم أن يعتنوا بالموهوبين والنوابغ، ويجتهدوا في دعوة من يُنتظَر منهم أثرٌ أعظم من غيرهم، لكن هذا معيار واحد يوضع ضمن سائر المعايير، ولا ينبغي أن يكون على حساب العناية بتعليم ودعوة مَن يُقبل على الخير ويرجوه، ولا أن يكون مدخلاً تتسلل منه حظوظ النفوس.

كما أن مَن يُرْجَى عِظَمُ أثره في الدعوة والدين ليس بالضرورة هو صاحب المال أو المكانة، ففي غير أهل المكانة والثراء من لديه قدرات

عالية، ومنهم من لديه صدق وتجرد، ومنهم من لديه همة وعزيمة وإرادة عالية.

بل إنْ كثيرًا من أهل الجاه والثراء تفسدهم الدنيا، وتعيد ترتيب أولوياتهم، وتَضْمُر لديهم كثيرٌ من معاني التضحية والصبر والبذل والولاء للدين.

وكثيرٌ ممن يبحث عن العِلْية تتسلل لنفسه الآفات؛ فيجاملهم على حساب دينه، ويجتهد في خطابٍ ناعِم لا يثير حفيظتهم، فيدور حول مكارم الأخلاق، والذوق واللباقة، ونصوص الرجاء، ويقف عند ذلك، ولا اعتراض على العناية بهذه الأمور، بل لا ينبغي للدعاة وأهل العلم إهمالها، إنما الإشكال في سيطرة هذا اللون من الخطاب، وإهمال ما تحتاجه النفوس من الدعوة للعزيمة والتضحية من أجل الدين، ومراقبة الله ﷻ، والورع، والوقوف عند حدوده ﷻ.

وليس المقام هنا مقام التعمُّق في منهجية الدعوة، إنما في صلة ذلك بالجانب الخلقي للداعية، فكما أن النموذج الصارم الحادّ الفظّ في التعامل مع الناس، والذي يُغَلِّب الترهيب على الترغيب، والاحتياط على السَّعَة، كما أن هذا النموذج مخالِف للهدي النبوي، فالنموذج المقابل كذلك مخالف للمنهج النبوي، والله أعلم.

وربما استُدرِجَ بعض الداعين للحَقِّ فوُظِّفَ في تسويغ فساد أهل الباطل ومكرهم، وقاده ذلك إلى التعالي عن ضعفاء الناس وعامتهم.

دُعِيَ أحد الأفاضل إلى زيارة دولة أخرى للمشاركة في برنامج دعوي، فاشترط عليهم مكتبه أن تكون التذكرة على درجة رجال الأعمال، مُحتجِّين بأنه يحب أن يستغل ذلك في دعوة أصحابها، فقالوا له: إن ركاب الدرجة السياحيَّة ليسوا بأقل حاجة للدعوة، ولا أقل إقبالاً عليها.

إن كثيرًا من مظاهر الخلل الخُلُقِيّ ليس مصدرها سوء النية، ولا قَصْد التعالي ورفع النفس فوق مقامها؛ فالأخلاق ليست مجرد تنظير فلسفي، ولا حديثًا جميلًا أخَّاذًا؛ إنها تتصل بتفاعل الإنسان مع مواقف الحياة، وتلك المواقف متداخلة متشابكة، وهي تقتضي التوازن، والنظر للموقف من كافَّة جوانبه، إلا أن كثيرًا منا لا يَستحضر كافة عناصر الموقف؛ فينظر لجانب دون آخر، كمن ينظر لمنزلة الداعية، وحاجته للمكانة لدى الناس، ويغفل عن حاجته للتواضع، ومن ينظر لأثر عِلْية الناس وعِظَم نفعهم حين يُرزق أحدهم الهداية، ويغفل عن الجوانب الأخرى.

إن الأمر لا يقتضي القطيعة مع العِلْية، ولا الانهماك مع الضعاف وحدهم دون سواهم، لكنَّ المُصلِح المتجرِّد حين يتواصل مع العِلْية فهو إنما يفعل ذلك بقَدْر الحاجة، محتفظًا بسَمْتِهِ ووقاره، مُبْتَعِدًا أن يكون ذلك داعيًا لاحتقار الضعفاء والترفُّع عليهم.



ولا أقول إني ملك

اعترض قوم نوح عليه بأنه بشر، وأن أتباعه هم أراذل الناس: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ (هود:٢٧).

فقال لهم عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (هود:٣١).

لم يكابر عليه السلام، ولم يبالغ في وصف حاله والحديث عن منزلته، بل أكد لهم فَقْره لربِّه، وعدم إحاطته بالغيب، وبأنه بَشَر ليس مَلَكًا.

وفي سورة الأعراف يَصِف نفسه بأنه رجل منهم فيقول: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف:٦٣).

ويقول هود عليه السلام لقومه المقولة نفسها: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:٦٩).

ويأمر الله -تبارك وتعالى- نبيه محمدًا ﷺ بأن يقول لقومه كما قال نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٥٠).

يُواجَه الداعية وطالب العلم كثيرًا بصرف الحديث إلى شخصه؛ فهو كسائر الناس، وليس لديه ما يميزه عنهم، وليس بعالم للغيب، ولا معصوم... ونحو ذلك.

والجدير بنا أن نعترف بضعفنا وقصورنا، وأن لا نقبل نقل الحوار والمعركة إلى أشخاصنا، بل أن نتجنَّب الحديث عن ذواتنا والدفاع عن أشخاصنا، وكثير ممن يلج هذا الباب لا يقف حيث ينبغي الوقوف، فيتبع التعقيبَ تعقيبٌ من المخالف، ويلحق بالرد على المخالف ردٌّ منه، وهكذا، وكلما دارت العجلة زاد حضور الجانب الشخصي، وحضر الشيطان في التحريش.

والأسلم للنفس البعد عن الردود والحديث الشخصي، والاقتصار على توضيح ما يحتاج إلى توضيح بلغة علميَّة موضوعيَّة؛ إن اقتضى المقام ذلك.

وقد يقول بعض الناس للآخرين: إنه أشبه بالعالم أو العابد الصالح بلسان حاله لا بلسان مقاله، بل ربما خرَّج مدح النفس وتزكيتها مخرج

التواضع وازدراء النفس: طُبِع من كتابي بحمد الله كذا نسخة، استمع لي كذا شخص، من باب التحدُّث بنعمة الله.. إلخ، ويُسَاق ذلك أحيانًا بدافع تحفيز الناس على الدعوة والعمل، أو رَفْع همتهم ونحو ذلك.

لن تخسر كثيرًا، ولن تَضْمُر دعوتك حين تترك قصة فيها إلماحٌ لشخصك، وإبراز لبعض فضائلك، سيَفْهَم الناس ما تقول، ويَعُونَ ما تُقَدِّم لهم، ولن تَقِف حماستهم للخير على معرفتهم بهذه القصة وذاك الموقف، فاجتهد في تجاوز كلّ ما فيه حديث عن الذات، أو إلماح لمنزلة النفس، ولو ظننت أن فيه التأثير والحثّ على الخير؛ فمداخل الحث والتأثير واسعة، وليست حِكرًا على الحديث عن الذات.

إن مداخل الشيطان على الصالحين دقيقة؛ فلئن كان يتدرج مع العاصي عبر الخطوات إلى أن يوقعه في المعصية، ويأتي من فيه صلابة وشدة من مدخل الطاعة والاجتهاد فيها، فهو يدخل على طالب العلم والداعية بمداخل تناسبه.

إننا أحوج ما نكون إلى لَجْم النفس بالتواضع، وتذكيرها بضعفها وقصورها، وبأن كثرة مَن يستمع ويتابع لا يعني التزكية والشهادة لها بالتُّقَى والصلاح، فربما كان ابتلاءً وامتحانًا فالله ﷻ يبلو عباده بالشر والخير ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾(الأنبياء:٣٥).

فكما يُبتلى أهل المال بتيسر سبل الكسب الحرام أو المشتبه،

ويُبتلى أهل الشهوات بتيسر أبوابها، فكذلك يُبتلى المصلحون بمثل هذه المداخل، وتلبّس المصالح الشخصية وحظوظ النفس لباس الحرص على الدعوة ونشرها، والله المستعان.

لقد بيَّن أنصح الخلق وأعلمهم بما يصلح النفوس، أن النفس يهلكها النظر للذات، وسماع الثناء، فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه ﷺ، قال: أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ، فقال: «ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك» مرارًا، ثم قال: «من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة، فليقل أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه» (أخرجه البخاري ٢٦٦٢، ومسلم ٣٠٠٠).

عن أبي موسى ﷺ، قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يُثْنِي على رجلٍ، ويُطْرِيهِ في مَدْحِهِ، فقالَ: «أهْلَكْتُم -أو: قَطعتُمْ- ظَهْرَ الرَّجُلِ» (أخرجه البخاري ٢٦٦٣، ومسلم ٣٠٠١).

فإذا نُهِيَ الناس عن التسبُّب بجَلْب العُجْب للشخص؛ فنَهْيُ الشخص عما يجلب العُجْب لنفسه من باب أوْلى.

ولقد نهى عمر ﷺ رجلاً استشاره في الحديث للناس؛ خوفًا من العُجْب بالنفس؛ إذ جاءه فقال له: إن قومي قدَّموني فصليتُ بهم، ثم أمروني أن أقصَّ عليهم، ففعلت. فقال له عمر ﷺ: «صلِّ بهم ولا تَقُصَّ



عليهم»، فتردد إلى عمر ثلاث مرات أو أربعًا فقال له عمر: «لا تَقُصَّ؛ فإني أخاف عليك أن ترفع نفسك فيضعك الله قبضة» (أخرجه الإمام أحمد في الزهد ٦٤٥).

وعدَّ بعضهم فتنة العُجْب بالنفس والنظر إليها أشد من الإيذاء والقتل، قيل لداود الطائي: «أرأيت من دخل على الأمراء فأمرهم ونهاهم؟ قال: أخاف عليه السوط، قال: إنه يقوى، قال: أخاف عليه السيف، قال: إنه يقوى، أخاف عليه الداء الدفين؛ العُجْب». (تاريخ الإسلام للذهبي ٤/ ٣٥٧).



فعلتها إذا وأنا من الضالين

حين جاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى فرعون رسولاً من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى احتجَّ عليه فرعون بما فعله قبل فراره منهم فقال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الشعراء:١٩)؛ فردَّ عليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء:٢٠-٢١).

وفي تفسير قول موسى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال ابن جرير: «وأنا من الجاهلين قبل أن يأتيني من الله وحي بتحريم قتله عليَّ. والعرب تضع الضلالَ موضع الجهل، والجهل موضع الضلال، فتقول: قد جهل فلان الطريق وضل الطريق، بمعنى واحد» (تفسير ابن جرير ١٩/ ٢٤٠-٢٤١).

وقال البغوي: «أي: من الجاهلين، أي لم يأتني من الله شيء. وقيل: من الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله. وقيل: من الضالين عن طريق الصواب من غير تعمُّد. وقيل: من المخطئين» (تفسير البغوي ٦/ ١٠٩).

يسعى المخالفون للداعية والناصح في تبرير موقفهم من خلال الهروب من ساحة النقاش الحقيقية، ونقل الحديث إلى شخص الداعية.

يبحث هؤلاء عن زلة أو هفوة، أو خطأ يُستدعى من تاريخه، وربما زِيدَ في الأمر ونُقِصَ؛ ليعترضوا على دعوته، ويطعنوا في دينه وأمانته.



ومع اتساع التقنية وانتشار وسائل التوثيق الصوتي والمرئي أصبح من السهل تصيُّد الهفوات والزلات، وتوظيفها في الطعن في شخصية الداعية أو الفقيه.

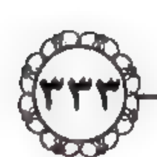
كيف تعامل موسى عليه السلام مع هذه المقولة من فرعون؟ لقد قالها بصراحة ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الشعراء: ٢٠)؛ **اعترف موسى عليه السلام بخطئه وجهله، وتجاوز الحديث عن شخصه ليتحدَّث عن دعوته ورسالته.**

إنها شجاعة عالية؛ شجاعة مع النفس، وأصعب ما على النفس أن تعترف بخطئها، وأن تُقِرَّ بما تُتَّهَم به.

يوهمنا الشيطان، وتوهمنا أنفسنا الأمارة بالسوء أن الإقرار بالخطأ، والاعتراف بالقصور مما يخدش دعوتنا لا ذواتنا، ومما يُمَثِّل دليل إدانة تجاهنا، وأن المستهدَف هو الدعوة والعلم والتدين لا أشخاصنا.

تعرَّض أحدهم لتصرُّف غير لائق مِن شابٍّ متديِّن مثله، وكان بينهما خلاف سابق، فاستشارني ماذا يفعل؟ قلت له: العفو هو خُلُق الأنبياء، فقال لي: هذا صحيح، لكن ما حصل ليس إهانة لشخصي، بل هي إهانة للدين والعلم!

زميل فاضل قال لي حين تخرجنا من الجامعة: إن الموظف الفلاني متحامِل ضدّ أحد الأجهزة الشرعيّة، وهو لا يَعرف عنه سوى أنه أبدى اعتراضات حول مسار معاملته، وآخر كان يحدثني عن ضابط الجوازات



في بلده بأنه يكره المتدينين، واستنتج ذلك من تعامله معه هو.

وبغضِّ النظر عن مثل هذه المواقف، فينبغي أن نفصل بين أنفسنا، وبين التدين والعلم، فقد يكره الناس بعض تصرُّفاتنا، وربما كان لبعضهم ما يبرِّر موقفه، وقد ينتقدوننا ويعترضون علينا، وربما وقف بعضهم في وجه مشروعاتنا، ومصدر ذلك كله الموقف من أشخاصنا لا من الدين، بل في كثير من المواقف يكون الدافع موضوعيًّا لا شخصيًّا، بغضِّ النظر عن صواب اجتهاده وخطئه.

كلنا نقع في الخطأ والتجاوز، وكلنا نعاني من صفات شخصيَّة سلبيَّة؛ فالجدير بنا أن نمتلك الشجاعة الأدبية، وأن نتأسى بأنبياء الله ورسله، وأن نقول: قلت ذلك وفعلته وأنا من الظالمين الجاهلين، أخطأت في هذا الموقف، وأستغفر الله ﷻ.

وكما يقتضي الخُلُق الحَسَن الاعتراف بالخطأ العلمي والفكري، أو العملي، فهو أيضًا يقتضي الاعتراف بجوانب القصور الشخصية، كما قال موسى عليه السلام معترفًا بما كان ينقصه ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ (طه:٢٧-٢٨). وكما قال مقرًّا بفضل هارون عليه في الفصاحة ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ (القصص:٣٤).

الاعتراف بالخطأ، والإقرار بقصور النفس يُهذِّبها، ويكسر كبرياءها؛ فيعرف صاحبها قدر نفسه، ويضعها في موضعها، وما أحوج النفوس لذلك؛ فهي تغفل وينسيها الشيطان.

وأحوج الناس إلى معرفة قَدْر أنفسهم هم مَن يُنظر إليهم نظرة عالية، ومن يحسن فيهم الظن، فربما انشغل الإنسان بما يقوله عنه الآخرون، وصرفه تعاملهم معه عن النظر لعيوب نفسه وقصورها.

وما أجدرنا أن نتأمل فيما قاله الصحابي الجليل عتبة بن غزوان ﷺ في خطبته: «ولقد رأَيْتُني سابعَ سبعةٍ مع رسولِ الله ﷺ ما لنا طعامٌ إلَّا ورَقُ الشَّجرِ حتَّى قرِحَتْ منَّا أشداقُنا ولقدِ التقَطْتُ بُردةً فشقَقْتُها بَيْني وبَيْنَ سعدٍ فاتَّزَرْتُ بنِصفِها واتَّزَر سعدٌ بنِصفِها ما منَّا أحَدٌ اليومَ حيٌّ إلَّا أصبَح أميرًا على مِصْرٍ مِن الأمصارِ، وأعوذُ باللهِ مِن أنْ أكونَ عظيمًا في نفسي صغيرًا عندَ اللهِ» (أخرجه مسلم ٢٩٦٧).

والتخلُّق بالاعتراف بالخطأ وعيوب النفس ينمِّي الموضوعيَّة لدى الإنسان، ويُعْلِي من قدرته على تقويم نفسه، واكتشاف أخطائها وعيوبها، والارتقاء بها.

وهو لا يُنْقِص منزلة الإنسان، بل يزيده رفعةً وشأنًا، ويُثبت صدقه وتجرُّده لدى الناس، وإن كان لا يلتفت لذلك ولا يعنيه رضا الناس بل رضا خالقهم ﷻ.

وتخلُّق القدوات بهذا الخُلُق يُرَبِّي الناس عليه؛ فيسعون في تصحيح أنفسهم، وتقويم عيوبهم حين يرون الكبار على هذا الخُلُق.



فتبسم ضاحكًا من قولها

سُمِّيت سورة في القرآن باسم النمل، وتضمَّنت هذه السورة قصة سليمان عليه السلام مع النمل، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (النمل:١٧-١٩).

وفي سبب تبسُّم سليمان من قول النملة قال الزمخشري: «فإن قلت: ما أضحكه من قولها؟ قلت: شيئان، إعجابه بما دلَّ من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم، وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى، وذلك قولها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ تعني: أنهم لو شعروا لم يفعلوا. وسروره بما آتاه الله مما لم يُؤْتَ أحدًا: من إدراكه بسمعه ما همَس به بعض الحكل الذي هو مثل في الصغر والقلة، ومن إحاطته بمعناه» (الكشاف ٣/ ٣٥٧).

قال السعدي: «إعجابًا منه بفصاحتها، ونُصحها، وحُسن تعبيرها، وهذا حال الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الأدب الكامل، والتعجُّب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم، كما كان الرسول ﷺ

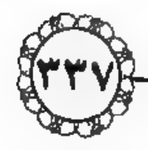
جُلّ ضحكه التبسم، فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب. وعدم التبسُّم والعجب مما يتعجبُ منه، يدل على شراسة الخلق والجبروت، والرسل منزَّهُون عن ذلك» (تفسير السعدي ٦٠٢).

وبغضِّ النظر عن سبب تبسُّم سليمان عليه السلام، فذِكْر القرآن الكريم لتبسُّمه من قول النملة دليلٌ على أهمية ذلك، فحاشا أن يكون في القرآن الكريم شيئًا من فضول القول، ولا مما لا يتطلب الوقوف عنده والتأمل فيه.

وعلى خطى سليمان عليه السلام كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم ﷺ كثير التبسُّم في وجوه أصحابه، فعن جرير رضي الله عنه، قال: «ما حَجَبني النبي ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلا تبسَّم في وجهي» (أخرجه البخاري ٣٠٣٥ ومسلم ٢٤٧٥).

وكان تبسُّمُ وجهه الشريف آخر ما رآه أصحابه -رضوان الله عليهم-، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر كان يُصلِّي لهم في وجَعِ النبيِّ ﷺ الذي تُوفِّيَ فيه، حتى إذا كان يومَ الاثنين، وهم صُفوفٌ في الصلاةِ، فكشَفَ النبيُّ ﷺ سِترَ الحُجرَةِ، ينظُرُ إلينا وهو قائمٌ، كأن وجهَه ورقةُ مُصحَفٍ، ثم تبسَّمَ يضحَكُ، فهمَمْنا أن نُفتَنَ من الفرَحِ برؤيةِ النبيِّ ﷺ، فنكَص أبو بكرٍ على عقِبَيهِ ليَصِلَ الصفَّ، وظنَّ أن النبيَّ ﷺ خارِجٌ إلى الصلاةِ، فأشار إلينا النبيُّ ﷺ: أن أتِمُّوا صلاتكم، وأرخى السِّترَ، فتُوفِّيَ من يومِه. (أخرجه البخاري ٦٨٠، ومسلم ٤١٩).

ويتبسّم ﷺ حتى في الفتوى وتقرير الحكم الشرعي، فعن عقبة بن



الحارث ﷺ أن امرأة سوداء جاءت فزعمت أنها أرضعتهما -أي: أرضعته وأرضعت زوجته معًا-، فذكَر للنبي ﷺ، فأعرضَ عنه، وتبسَّم النبي ﷺ، قال: «كيف وقد قيل، وقد كانت تحته ابنة أبي إهاب التميمي» (أخرجه البخاري ٢٠٥٢).

ولا يخلو المتصدِّي لدعوة الناس وتعليمهم من رؤية مواقف لا يستحسنها مما يدفع لها الطابع البشري، ويرى أنها مما لا تَليق بالعزائم والمُثُل العليا، فربما تعامَل مع بعض هذه المواقف بقَدْرٍ من الصرامة والحزم، وصرَّح بِلَوْمِ الناس وانتقادهم، مستشهدًا بنماذج من حال السلف وأخبارهم.

ولئن كان في بعض هذه المواقف ما يَستدعي المعالجة، والتنبيه بما يناسب المقام؛ فليس من اللائق أن يغلب الانتقاد والتدقيق، وأن يغيب التبسط والتسامح.

حين صلَّى بعض أصحاب النبي ﷺ معه الصبح لما سمعوا بمال البحرين، لم يعنِّفهم ﷺ، بل تبسَّم فعن عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بعث أبا عبيدةَ بنَ الجراحِ إلى البحرينِ يأتي بجزيتها، وكان رسولُ اللهِ ﷺ هو صالَحَ أهلَ البحرينِ وأمَّرَ عليهم العلاءَ ابنَ الحضرميِّ، فقَدِمَ أبو عبيدةَ بمالٍ من البحرينِ، فسمعتِ الأنصارَ بقدومِ أبي عبيدةَ فوافتْ صلاةَ الصبحِ مع النبيِّ ﷺ، فلمَّا صلَّى بهمُ الفجرَ انصرف، فتعرَّضوا لهُ فتبسَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ حين رآهم، وقال: «أظنُّكم قد سمعتم أنَّ

أبا عبيدةَ قد جاء بشيءٍ». قالوا: أجل يا رسولَ اللهِ، قال: «فأَبْشِرُوا وأَمِّلُوْا ما يسركم، فواللهِ لا الفقرُ أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبْسَطَ عليكمُ الدنيا، كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم، فتَنَافسوها كما تَنافسوها، وتُهْلِككم كما أهلكتهم» (أخرجه البخاري ٣١٥٨ ومسلم ٢٩٦١).

يتبسم ﷺ، ويحدِّث أصحابه عما يقرأه في نفوسهم، فيجيبونه بذلك، دون تكلُّف أو تبرير؛ فيُقِرُّهم ﷺ على هذه الطبيعة البشرية، ثم يَلْفِت نظرهم للمعنى التربويّ؛ فرؤية المعتني بشأن الناس وإصلاحهم ما يَستوجب التسديد لا تُبَرِّر الجفاء والصرامة، ولا تلغي حقهم في حسن التعامل.

ويستمع ﷺ لحديث أصحابه -رضوان الله عليهم- فيتبسم، فعن سماك بن حرب، قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم كثيرًا، «كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلِّي فيه الصبح، أو الغداة، حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية، فيضحكون ويتبسَّم» (أخرجه مسلم ٦٧٠).

ويتبسم ﷺ حتى في وجه من أساء له، فعن أنس بن مالك ﷺ، قال: «كنتُ أمشي معَ رسولِ اللهِ ﷺ وعليه بُرْدٌ نَجرانِيٌّ غليظُ الحاشيةِ، فأدرَكه أعرابيٌّ فجبَذ بردائِه جبذَةً شديدةً، قال أنسٌ: فنظَرتُ إلى صفحةِ عاتِقِ النبيِّ ﷺ وقد أثَّرَتْ فيها حاشيةُ الرِّداءِ من شدةِ جبذَتِه، ثم قال: يا محمدُ مُرْ لي من مالِ اللهِ الذي عِندَك، فالتفَتَ إليه فضحِك، ثم أمَر له بعَطاءٍ» (أخرجه البخاري ٦٠٨٨، ومسلم ١٠٥٧).



قال النووي: «فيه -حديث أنس- احتمالُ الجاهلين، والإعراض عن مقابلتهم، ودَفْع السيئة بالحسنة، وإعطاء مَن يتألف قلبه، والعفو عن مُرْتَكِب كبيرة لا حَدَّ فيها بجهله، وإباحة الضحك عند الأمور التي يتعجب منها في العادة، وفيه كمال خُلُق رسول الله ﷺ وحلمه وصفحه الجميل» (شرح صحيح مسلم ٧/ ١٤٧).

إن دلالة مواقف التبسم النبوي أوسع؛ فهي تعني -بالإضافة للاهتمام بالآخرين وتقديرهم- التبسط، وترك الكلفة، والبعد عن الجفاء واصطناع الوقار في غير مكانه.

وقد كان أصحاب النبي ﷺ يرون أن الجفاء مما لا يليق بحامل القرآن الكريم، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا، محزونًا، حليمًا، سكيتًا، لينًا. ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا غافلاً، ولا سخابًا، ولا صياحًا، ولا حديدًا» (أخرجه أبو داود في الزهد ١٧٣).

ولكلِّ خُلُق حَسَن حَدٌّ ينتهي إليه، وتجاوزه يقود إلى النقيض؛ فالتبسم وترك التكلف لا يعني تجاوز الوقار والسمت اللائق بأهل الصلاح، فقد كان ﷺ يَكتفي بالتبسم، ولا يبالغ في الضحك، فعن عائشة ﷺ، قالت:

«ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم» (أخرجه البخاري ٤٨٢٨، ومسلم ٨٩٩).

وقد أثنى ﷺ على مَن يتَّصفون بالوقار، فقال «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوبًا، الإيمان يمان والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم» (أخرجه البخاري ٤٣٨٨، ومسلم ٥٢).

وكان بعض السلف يرى أن على مَن هو في موضع القدوة أن يترفَّع عما يُخِلّ بوقاره؛ فعن موسى بن أعين، قال: قال لي الأوزاعي: «يا أبا سعيد كنا نمزح ونضحك، فأما إذا صرنا يُقتَدى بنا؛ ما أرى يسعنا التبسم» (حلية الأولياء ٦/ ١٤٣).

وحين يسلك المرء سبيل العلم يظهر أثر الوقار عليه، قال الحسن: «قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يُرَى ذلك في تخشُّعه وهديه ولسانه وبصره، وبِرّه» (البيهقي في شعب الإيمان ١٦٧٠).

وروى ابن وهب عن مالك أنه قال: «إن حقًّا على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون مُتَّبِعًا لآثار مَن مضى قبله» (جامع بيان العلم وفضله ١٢٨٧).

وروى الخطيب البغدادي بإسناده عن عليّ، قال: «إذا تعلمتم العلم فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بضحك وباطل؛ فتَمُجُّه القلوب»، ثم قال: «يجب على طالب الحديث أن يتجنَّب اللعب والعبث والتبذل في

المجالس بالسخف، والضحك، والقهقهة، وكثرة التنادر، وإدمان المزاح والإكثار منه، فإنما يستجاز من المزاح يسيره ونادره وطريفه الذي لا يخرج عن حدّ الأدب وطريقة العلم، فأما متَّصله وفاحشه وسخيفه، وما أوغر منه الصدور وجلب الشر؛ فإنه مذموم وكثرة المزاح والضحك يضع من القدر، ويزيل المروءة» (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ١٥٦).

وأحسب أنه مما لا يليق بطالب العلم أو المشتغل بالدعوة ما نراه من مبالغة في التبسُّط والمزاح، ونزول في لغة الحديث إلى ما يشبه ما يقوم به بعض المُهرِّجين؛ فينبغي أن يحفظ للدعوة والعلم الوقار والسمت اللائق بمقام ورثة الأنبياء.

وهكذا المعلِّم والمربِّي بحاجة إلى الاحتفاظ بقَدْرٍ يليق به من السَّمْت والوقار في تعامله مع طلابه؛ فثمة مَن يمازح طلابه كأنه واحد منهم؛ فيتجرؤون عليه بما لا يليق بمقامه، وربما امتدَّ ذلك لجرأتهم على الأكابر.



إن فيها لوطًا

حين جاء الملائكة المكرمون إلى إبراهيم عليه السلام وأخبروه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط قامت حمية إبراهيم عليه السلام على أخيه لوط: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (العنكبوت:٣١-٣٢).

وفي سورة هود يقول -سبحانه-: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (هود:٧٤-٧٦).

وفي شأن مجادلة إبراهيم عليه السلام قال ابن جرير: «وزعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أن معنى قوله: (يجادلنا) يكلمنا. وقال: لأن إبراهيم لا يجادل الله، إنما يسأله ويطلب إليه. قال أبو جعفر: وهذا من الكلام جهلٌ؛ لأن الله -تعالى ذكره- أخبرنا في كتابه أنه يجادل في قوم لوط، فقول القائل: «إبراهيم لا يجادل»، موهمًا بذلك أن قول من قال في تأويل قوله: (يجادلنا)، يخاصمنا، أن إبراهيم كان يخاصم ربَّه، جهلٌ من الكلام، وإنما كان جدالُه الرسلَ على وجه المحاجَّة لهم. ومعنى ذلك: «وجاءته البشرى يجادل رسلنا»، ولكنه لما عرف المراد من الكلام حذف «الرسل»» (تفسير ابن جرير١٥/ ٤٠٢-٤٠٣).

يوقن إبراهيم عليه السلام بأنهم ملائكة الله تعالى، وأنهم لا يتصرفون من تلقاء أنفسهم، إنما هم مُرْسَلُونَ بأمر الله تعالى العليم الحكيم، ولذا قالوا له ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ ، ومع ذلك جادلهم عليه السلام بشأنه، إنه القلب المليء بالرحمة بالمؤمنين، والولاء لهم، والحلم الذي رزقه الله إبراهيم عليه السلام، ينطلق خليل الرحمن على سجيته مجادلاً ومدافعًا عن أخيه لوط والمؤمنين معه.

لقد بشَّروه وزوجه بالولد، وسُرَّا به جميعًا، لكنه عليه السلام في غمرة هذه البشرى لم ينسَ أخاه لوطًا عليه السلام.

ومما وصفه الله تعالى به إبراهيم عليه السلام في هذه المجادلة أنه أوَّاه، قال ابن عاشور: «وأوّه: اسم فعل نائب مناب أتوجع، وهو هنا كناية عن شدة اهتمامه بهموم الناس» (التحرير والتنوير ١٢/ ١٢٣).

إن محبة المؤمن لإخوانه ورحمته بهم تقتضي الولاء لهم، وتقتضي الذَّبَّ عن أعراضهم، والوقوف معهم.

وحين تخلَّف كعب رضي الله عنه عن غزوة تبوك، حامَى عنه معاذ بن جبل رضي الله عنه في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، فقد سأل صلى الله عليه وسلم وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبَسه بُرداه والنظرُ في عِطفَيه، فقال معاذ بن جبل: بئسَ ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا. (أخرجه البخاري ٤٤١٨، ومسلم ٢٧٦٩).

وأَوْلى مَن ينبغي أن يقف معهم وينتصر لهم الداعية هم إخوانه وشركاؤه في طريق الحق والخير.



ومهما بلغ اختلاف الداعية وطالب العلم مع بعض إخوانه، ومهما وُجِدَتْ الفوارق والفجوات، فهذا كله لا يُسقط حق الولاء الإيماني، ولا يُبرِّر القعود عن القيام بالواجب الشرعي.

وهب أن أحدهم أخطأ خطأً شرعيًّا أو منهجيًّا، وهب أنه تجاوز، فكثير مما ينالهم ليس بسبب خطئهم، ولا حمية للدين وغيرة عليه، إنما توظف هذه الأخطاء للنيل منهم، وتسويغ الظلم.

وقد أمر ﷺ بنصر الأخ المظلوم؛ فعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالمـًا أو مظلومًا» فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمـًا كيف أنصره؟ قال: «تحجزه، أو تمنعه، من الظلم؛ فإن ذلك نصره» (أخرجه البخاري ٦٩٥٢).

وحين أخطأ أحد أصحاب النبي ﷺ وراسَل قريشًا مخبرًا إياهم بعزمه ﷺ على فتح مكة، سأله ﷺ «يا حاطب، ما حملك على ما صنعت؟» قال: يا رسول الله، ما لي أن لا أكون مؤمنًا بالله ورسوله؟ ولكني أردت أن يكون لي عند القوم يد يدفع بها عن أهلي ومالي، وليس من أصحابك أحد إلا له هنالك من قومه من يدفع الله به عن أهله وماله، قال: «صدق، لا تقولوا له إلا خيرًا» (أخرجه البخاري ٦٩٣٩).

وأحسب أنها سنة ماضية في حقِّ كلِّ مَن أخطأ من أهل الخير والصلاح ألا يقال فيه إلا الخير.

وأسوأ من القعود عن نصرة إخوة الدين إعانة الظالم عليهم، والوقوع



في أعراضهم، وربما تبرير ما يلحقهم من ظلم، انطلاقًا من أخطاء كثيرًا ما تُضَخَّم، ويُزَاد فيها ويُنْقَص، وبعضها محل اجتهاد ونظر، وهبها لم تكن كذلك فالظالم أشد منهم خطأ وانحرافًا، وظلمه لهم ليس باعثه نصرة الدين والحمية له.

إن هذا الموقف يبدأ من محبة القلب للمؤمنين، والرحمة بهم، والصدق في الولاء لهم.

والولاء للمؤمنين والرحمة بهم ونصرتهم أمر يتَّصل بالإيمان، وارتباطه بالأحداث التي تصنّف سياسية لا يعني أنه مجرد ممارسة سياسية أو خوض فيها، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنينَ: في تراحُمِهم، وتوادِّهم، وتعاطُفِهم، كمثلِ الجسدِ، إذا اشتكى عضوًا، تداعى لَه سائرُ جسدِه بالسَّهرِ والحمَّى» (أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦).





الخاتمة

هذا بحمد الله وعونه وتيسيره ما تيسر تقييده في سطور هذا الكتاب، وقد كان مرتقى صعبًا، وطريقًا شائكًا، أن يكتب الكاتب الضعيف عن مقام الكبار والعلية؛ عن مقام الأنبياء والمرسلين، من اصطفاهم وزكَّاهم خالِق البشر ﷻ.

فكيف لمثل هذا القلم أن يرتقي للحديث عن المصطفين الأخيار، وأي بلاغة أو فصاحة يمكن أن تَفِي ببيان أخلاق صفوة خَلْق الله ﷻ.

تردَّدتُ كثيرًا أن أكتب تلك السطور، وتوقفتُ مرارًا شاعرًا بالخجل من نفسي حين أتحدث عن خُلُق المرسلين.

لكني راهنتُ على فطنة القارئ ووعيه، وأنه لن يصدّه عن الانتفاع بما قد يرى مناسبته عبارةٌ لم يوفَّق فيها الكاتب، أو جملةٌ لا تليق بمقام النبوة، أو قصورٌ ولَّده ضعف قلم صاحبه، أو استنباط في غير مكانه، أو زلة وسقطة لم تَصْدُر عن سوء نية.

سعيت فيما كتبته لوعظ نفسي أولاً، ولمحاولة وَضْع إشارات وإضاءات علَّها تلفت نظر القارئ إلى مزيد من الاعتناء بأخلاق الأنبياء والمرسلين.

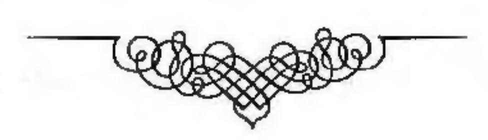
وأحسب أن كثيرًا من القراء لو عاد لدراسة ما جاء في القرآن والسنة

عن أخلاق الأنبياء وأخبارهم وأحوالهم سيخرج بالكثير، ويستدرك ما فات غيره.

ولو عدتُ مرة أخرى لما كتبتُه لرأيتُ فيه ما يستوجب الاستدراك والحذف والإضافة والتقديم والتأخير، كما قال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في رسالته لابن العماد: «إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ هذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل، وهذا أعظم العِبَر وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر».

أستغفر الله وأتوب إليه من كل قصور وخطأ، ومما خالجني ودَار في خاطري مما لا يليق، ومن كلِّ تعبير حوى جفاءً، أو تقصيرًا في مقام المرسلين، وأسأل الله ﷻ ألا يَكِلَنِي إلى عملي، وأن يحشرني في زمرة مَن أحببتهم من عباده المصطفين الأخيار، وأن يجعل هذا الجهد خالصًا لوجهه الكريم.

ومن حقي على إخواني النصيحة والتسديد، واستدراك ما ينبغي استدراكه، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.



المحتويات